سلسلة الخلفاء

مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

رَضِيَ اللهُ عَنهُما

وَأُسْرَتُهُ

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

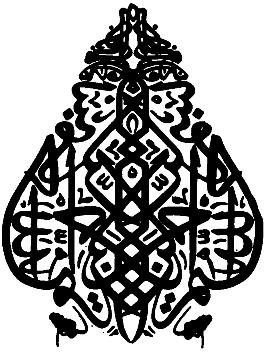

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا

وَأُسْرَتُهُ

مُقـدِمَة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين، وعلى إخوانه رسل الله وأنبيائه، وعلى صحبه الكرام، وآله الأمجاد، وسلّم تسليماً كثيراً، *أما بعـد* :

فإنّه من سمات الجاهليّة، في بلاد العرب ذلك الصراع الدائر بين القبائل والذي يمتدّ من المباهاة والفخر إلى المنافسة على المركز والمكانة، واتخاذ الوسائل الممكنة كلها بدءاً من الخطابة والشعر، وانتهاءً بالرمح والسيف، وما بينهما من جمع الجموع، وتشكيل الأحلاف، والاستعانة بالأعوان، والتي قد تتوسّع حتى تصل إلى خارج نطاق أرض العرب ومنازل قبائلهم.

وأيّام العرب كثيرة ومعروفة، مليئة بالمآسي، مغمورة بالأحزان، ينتهي بعضها بجولةٍ تعقبها النكبات، ويستمرّ بعضها سنواتٍ كلّها مصائب وجمرات، وما أيّام

البسوس، وداحس والغبراء بسرٍّ، وليس ما نتج عنها بخافٍ على مطّلعٍ.

ولا يقتصر هذا الصراع على القبائل الكبرى بل يتجاوز ذلك حتّى يصل إلى بطون تلك القبائل حيث تحدث بينها المنافسة، وقد يقع الصراع، ويكون القتال. والقبيلة التي نريد أن نتعرّف على بعض أحداثها هي قريش التي تُقيم في مكة المكرمة حيث البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للنّاس وأمناً، لذا لم يكن هناك حرب وقتال داخل مكّة، بل منافسة على الصّدارة، وسباق على المكانة.

ولم تكن المنافسة في مكّة بين بطون قريشٍ فقط، بل وصلت إلى أفخاذها، ووصلت مكانة بعض الأفخاذ إلى مستوى بطون قريشٍ الأخرى، وربما تجاوزتها. لقد كان بنو عبد منافٍ أحد بطون قريشٍ، ولكن ظهر منهم بنو هاشم، وبنو أميّة، ووصل كلا الفخذين في مكانتهما إلى مكانةٍ تفوق مكانة البطون الأخرى كبني تيم، وبني عديٍّ، وبني جُمحٍ، وبني سهم، وعندما تقاسمت بطون قريشٍ المهمّات الأساسيّة لها في مكة بصفتها قبيلة، ثم بصفتها مسؤولة عن خدمات الحجيج، أخذ أفخاذ بني عبد منافٍ ثلاث مهمّات، أي ما يُعادل ثلاثة

بطونٍ، إذ كانت السقاية لبني هاشمٍ، وهي بيد العبّاس بن عبد المطلب، وكانت الراية لبنَي أمية، وهي بيد أبي سفيان صخر بن حرب، وكانت الرفادة لبني نوفلٍ، وهي بيد الحارث بن عامرٍ.

ونافس أميّة بن عبد شمسٍ عمّه هاشم بن عبد منافٍ، وانحاز إلى أميّة أبناء عمّه نوفل بن عبد منافٍ، أمّا أبناء عمّه المطلب بن عبد مناف فقد وقفوا بجانب عمّهم هاشمٍ. وأخذ هذان الفخذان بنو هاشمٍ وبنو أميّة يتنافسان فيما بينهما كمنافسة بقية البطون بعضها لبعضٍ.

وجاء الإسلام وقضى على هذه الجاهليّة، فمن أسلم من أي بطنٍ من بطون قريشٍ أو من أي قبيلةٍ كان قد ترك هذه العصبية بل هذه الجاهلية والتفاخر بالآباء والأجداد، والتفت إلى إخوانه بالإسلام من أيّة فئةٍ كانت، يأتمرون بأوامر رسول الله ﷺ، ويأخذون منه التوجيه، ويتلقّون التعليم، ويُنفّذون ما يُؤمرون، أما الذين لم يُسلموا فاحتفظوا بجاهليتهم، وبقوا على عصبيّتهم، وتمسّكوا بما ورثوه من منافسةٍ بل عدّوا النبوّة نوع من أنواع المنافسة، ويبدو هذا جليّاً في كلام أبي جهل عمرو بن هشام عندما سأله الأخنس بن شريقٍ في رأيه عمّا سمع من محمّدٍ، فقال: ماذا سمعت تنازعنا

نحن وبنو عبد منافٍ الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهانٍ، قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نُؤمن به أبداً. فالموضوع كان عند سادة قريشٍ موضوع منافسةٍ، وعصبيةٍ استمراراً لما ورثوه من أيامهم في الجاهليّة، ولذا عدّوا منافستهم لبني عبد منافٍ والتي يدخل في عدادهم بنو هاشمٍ وبنو أمية على حدٍّ سواء.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن سادة قريش قد ردّوا دعوة الإسلام، ووقفوا هذا الموقف المعادي لها بل والمحارب لها أشدّ الحرب حرصاً على مصالحهم في السيادة والمكانة، وفي تسلّطهم على العبيد والمستضعفين، وفي إرواء شهواتهم بالإماء، وفي أكلهم أموال الناس بالباطل، وعن طريق الربا.

وجاء أهل الأهواء فدخلوا بالإسلام ظاهراً أو أنهم أظهروا الإسلام خوفاً من السيف إذ انتصر الإسلام، وحكم أهله، واختفى الكفر، وانتهى أتباعه، وزالت دوله، ولم يبق أمام أهل الأهواء إلا الدخول فيه، فدخلوا وأظهروا أنهم من أهله، ولكن بقيت قلوبهم مملوءةً غيظاً، مشحونةً حِقداً عليه، فنمّوا العصبيّة

الجاهليّة في نفوس أصحاب السلطان السابقين، وزرعوا في قلوبهم كراهية الإسلام وأهله، وربّوا أبناءهم على ذلك. ولما كانوا يحملون اسم الإسلام لذلك يمكنهم الهدم من الداخل، وتقويض الوشائج التي تربط المسلمين بعضهم مع بعضٍ، وما عليهم سوى اختيار المعاول، وتعيين الثغرة التي يَلِجون منها.

تفتّقت أذهان أهل الأهواء على تحديد ثغرةٍ يدخلون منها للهدم، وذلك بحمل مرحلة الجاهلية وسحبها على الحياة بالإسلام بإثارة النعرة القبيلية، وإحياء المنافسة العصبية، وتحديد ذلك بين طرفين فقط.

اختير بنو هاشم كطرفٍ أوّل، ويمكن وضع أي بطنٍ من قريشٍ بالطرفَ المقابل بسبب المنافسة له بعد بعثة رسول الله، ﷺ، لأن غالب سادة البطون الأخرى قد وقفوا الموقف المعادي خوفاً على مكانتهم ومصالحهم. وقد تبنّى أهل الأهواء طرف بني هاشم، وأثنوا عليهم ثناءً كبيراً متجاهلين الذين عادوا الإسلام منهم عداء كبيراً أمثال أبي لهب عبد العُزّى بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ، وقد كان هذا التبنّي لعلمهم أن عواطف المسلمين جميعاً بجانب بني هاشم حبّاً لرسول الله ﷺ، فأهل الأهواء بهذا الموقف

يكسبون عواطف عامّة المسلمين ويمكن توجيههم بل وإبعادهم عن عقيدتهم بإدخال زيغٍ فيها بالمغالاة في أحد أفراد بني هاشمٍ كما غالى النصارى بحبّ المسيح عليه الصلاة والسلامَ. وهذا ما فعلوه، واختاروا عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، لهذا الحبّ، لقربه من رسول الله ﷺ، حيث تربّى في بيت رسول الله ﷺ، وهو ابن عمّه الذي كفله بعد وفاة جدّه، ورعاه، وحماه بعد البعثة بعد حمى الله، ثم صاهره، وكان والد ريحانتي رسول الله ﷺ، في الدنيا الحسن والحسين، ثم لإيمانه العميق الذي يزن الجبال، ولشجاعته التي عرف بها في القتال ومنازلة الأعداء، وهذا ما يجعل عامّة المسلمين يتقبّلون كل ما يُقال في عليٍّ، رضي الله عنه، ولو كان فيه الشطط، ورفعه فوق مستوى البشر.

واختير بنو أميّة كطرفٍ ثانٍ لأن المنافسة بين فخذي بني عبد منافٍ هذين أكثر من غيرها رغم أنهما أبناء عمومةٍ، ورغم أن خلاف أحد أفراد الفريقين مع واحدٍ من الفريق الثاني كان يُعدّ قطعاً لصلة الرحم. هذه المنافسة التي كانت بين هذين الطرفين في الجاهلية قد سُحبت على الحياة في الإسلام، وذكرت سلبيات بني أمية في الجاهلية كلها، والمواقف الفردية التي وقفوها

ضد الإسلام قبل أن يُسلموا مع تجاهلٍ تام لحديث رسول الله ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟»[1].

وجاء فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأسلمت قريش كلها، ومنها أفراد بني أمية الذين تأخّروا بالإسلام، وانتهت العصبيّة الجاهليّة، وقضى الإسلام على النعرة القبليّة، والمنافسة العشيريّة، والنزعة الفرديّة، وأصبحت غالبية قريشٍ إخواناً في دين الله. ولكن التركيز على سلبيات بني أمية في الجاهلية، وسحب النعرة القبيلية التي كانت في الجاهلية على مرحلة الإسلام، قد جعل العامّة يتصوّرون استمرار المنافسة بين بني هاشم وبني أمية، ويميلون إلى بني هاشم بصفة أنَّ رسول الله ﷺ، منهم، ويحسبون هذا مِن الإسلام، ويمقتون بني أمية لمواقف بعضهم في الجاهليّة، ويظنّون بقاءها في القلوب، ويعدّون هذا من الإسلام أيضاً، وتغيب عنهم مبادئ الإسلام الأساسية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[2]،

---

(١) رواه مسلم ١٢١.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وقوله ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟»، فما كان في الجاهليّة فقد دُرس، وانتهى أمره، ويُعفى عما اقترفه المسلم في جاهليته، ويُسأل عما جناه في إسلامه، فإن كان خيراً فقد ذهب ماضيه بسيئاته، وإن كان غير ذلك أُضيف إلى ما سبق أن حصده.

السرّ الكامن

لم يكن سادة بني أمية وحدهم هم الذين تأخّروا عن قبول دعوة الإسلام، كما لم يكونوا وحدهم الذين وقفوا في وجه الدعوة، وأعلنوا معاداتها والحرب عليها، بل ربما كانوا أقلّ من غيرهم من بقيّة بطون قريشٍ وأفخاذهم.

فبنو مخزوم قد عُرفوا بمعاداتهم الشديدة للإسلام، وكان سيّدهم الوليد بن المغيرة عدوّاً لدوداً، ولآيات الله خصماً عنيداً، وقد نزل فيه قوله تبارك وتعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾[1]. وقد مات الوليد بن المغيرة كافراً. ومنهم أبو جهلٍ عمرو بن هشامٍ وهو ابن أخي الوليد بن المغيرة، ومعروف بعداوته للإسلام، ومشهور بها، وبجهله على المسلمين، وما فعله بالمستضعفين من تعذيبٍ وقتلٍ، قبّحه الله، وقد قتل كافراً يوم بدرٍ. كذلك معروف موقف خالد بن الوليد بن المغيرة، وابن عمه الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل قبل أن يُسلموا، رضي الله عن ثلاثتهم.

وبنو جُمحٍ وقفوا موقفاً عنيداً ضدّ الإسلام، ومنهم أُبيّ بن خلفٍ، لعنه الله، وأخوه أميّة بن خلفٍ، وقد ماتا كافرين، وعمير بن وهبٍ، وصفوان بن أمية بن خلفٍ قبل أن يُسلما.

وبنو سهمٍ، وتصدّى لمعاداة الإسلام منهم العاص بن وائل، ومات كافراً، ونبيه ومنبه ابنا الحجّاج، وقد قُتلا في بدرٍ كافرين. وعمرو بن العاص، رضي الله عنه، وذلك قبل أن يُسلم.

وبنو عامرٍ، وكان منهم سهيل بن عمروٍ، رضي الله عنه، وذلك قبل أن يُسلم يوم الفتح، وكذا بقية

---

(١) سورة المدثر: الآيات ١١ ـ ٢٩.

بطون قريشٍ وأفخاذها، بل المعروف أن قريشاً كلها عادت الدعوة، ووقفت ضدها، وحاربت رجالها، ونالت ممن أسلم من الموالي، والعبيد، والمستضعفين، وقتلت بعضهم، ولم تقصر مع من أسلم من أفرادها.

إذا كان موقف قريشٍ كلها هذا الموقف من الحرب للدعوة الإسلامية، فلماذا التركيز على بني أميّة خاصةً، والهجوم على أفرادهم باسم الإسلام؟.

الواقع أن أهل الأهواء لم تكن عداوتهم، ولم تكن حربهم، ولم يكن تشهيرهم، وسبّهم، وشتمهم لقبيلةٍ أو لعشيرةٍ أو لرجلٍ مهما كانت مواقفهم معاديةً، بل كان ذلك للإسلام مُمثّلاً بالحاكم من أي فئةٍ كانت، فلو تولّت بنو الحارث قوم أبي عبيدة بن الجراح حكم المسلمين، لكان الهجوم عليهم، ولما نال بني أمية شيء من تلك الحرب التي وجّهت عليهم عندما تولّوا الحكم، والدليل على ذلك.

أولاً: وجّه أهل الأهواء هجوماً على أبي بكر الصديق، لأنه الخليفة ويُمثّل المسلمين، ولم ينل قومه بنو تيم أي نقدٍ، ولم يُوجّه إليهم الهجوم الذي وجّه لبني أمية، وذلك لأن الصديق خليفة واحد من بني تيمٍ، على

حين توالى بنو أمية على الخلافة، واستمرّ حكمهم. وسبب الحقد على هذا الخليفة الراشدي، رضي الله عنه، أنه كان أوّل من سيّر الجيوش نحو دولة الفرس المجوسية يومذاك، لضربها في سبيل القضاء عليها، لوقوفها في وجه الدعوة، ولدعمها حركة الردّة التي قامت في أرض العرب، ولأنها تقوم على عبادة النار، وترفض عبادة الله الخالق للوجود، المسيّر للكون. ثم واجب الدعوة والعمل لنشر الإسلام.

ثانياً: وُجّه هجوم صاعق على الفاروق لأنه الخليفة، وأصبح يُمثّل المسلمين بعد الصدّيق، ولم ينل قومه بنو عديٍّ أيّ هجومٍ، وبُثّت شائعات عن الفاروق، رضي الله عنه، على مستوىً هابطٍ لا تصل إلى مستوى الرجال العاديين ودون ذلك بقليلٍ، وذلك لأنه قضى على دولة الفرس وأزالها نهائياً، وأذلّ دولة الروم فوق ذلك.

ثالثاً: وعندما تولّى أمر المسلمين عثمان بن عفّان نال نصيبه من الهجوم، وكان الهجوم عليه كسابقيه هجوماً شخصياً، ولم يصل إلى بني أمية أبداً، لأن الهجوم على ولي أمر المسلمين، ولم يتسلّم بنو أمية الحكم بعد كأسرةٍ. وكان أهل الأهواء قد ظنّوا أنهم حقّقوا أمراً بقتل الخليفة الراشدي الثاني، وهو الفاروق،

وأن الوضع في ديار الإسلام سيتخلخل، وأن الفوضى ستعمّ بقتل الخليفة، وقد استعدّوا لذلَك، فأثار أتباعهم في خراسان، وما أن وقعت الجريمة وقتل الخليفة حتى نقض أهل خراسان العهد، وردّوا الصلح. واختير عثمان خليفةً، ولم يحدث شيء في المجتمع الإسلامي بل ظلّ متماسكاً كما كان، متعاوناً كما يأمر الإسلام، وسارت الجيوش الإسلامية، وأعادت فتح خراسان، ولجأ أهل الأهواء إلى أوكارهم، وخاب ظنّهم لذا فقد امتلأت قلوبهم حِقداً، وشُحنت غيظاً، وصبّوا جام غضبهم على الخليفة حيث يمثّل الإسلام، ويعمل على تثبيت دعائمه.

كان الهجوم على الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل تحت شعار اغتصابهم الخلافة من صاحبها الذي ورثها عن رسول الله ﷺ، حسب زعمهم، مع أن كل مسلم يعلم أن الخلافة لا تورث، وإن كان يصحّ أن يخلفَ ولد أباه في الخلافة إن كان أهلاً لها، ووافق على ذلك أهل الحلّ والعقد، ولا يُعدّ خليفةً إلاّ بعد البيعة العامة، وذلك ولايةً واحدةً لا تتكرر. وقد رُشّح لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ابنه عبد الله بن عمر، فأبى ذلك، ولكن لم يقل أن ذلك لا يصحّ.

أما الخليفة الراشدي الرابع، فقد اتخذوه سلاحاً

لقرابته من رسول الله ﷺ، ولمكانته، وليُخفوا من إظهار محبته، ما يهدفون إليه من تجزئة المجتمع وانقسام المسلمين، ليُقاتل بعضهم بعضاً، وليهاجم بعضهم بعضاً، وليتكلم بعضهم عن بعضٍ، وليمكن لأهل الأهواء والأعداء أن ينتصروا على المسلمين بعد تفرقتهم، وليُعيد للمجوس مكانتهم، وللنار عبادتها.

بنو أميّة

إن بني أميّة في الجاهلية كبقيّة بطون قريشٍ وأفخاذها، وجاء الإسلام فأسلم بعضهم مثل عثمان بن عفان، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن سعيد بن العاص، وتأخّر آخرون، ووقف بعضهم في وجه الدعوة بشدّة وغلظةٍ، وأعلنوا الحرب عليها بضراوةٍ وعنفٍ مثل أبي سفيان صخر بن حربٍ، وعقبة بن أبي مُعيطٍ، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة شأنهم في ذلك شأن بقيّة بطون قريشٍ وأفخاذها. وجاء نصر الله، وتمّ فتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأسلم أهل مكة، وانتظموا في سلك الدعوة، وعُفي عمّا كان من أمر الجاهليّة، وأصبحت الأخوة في الإسلام، وديس على العصبيات، ثم أسلم العرب.

وانطلق المسلمون إلى الجهاد في سبيل الله، وإبلاغ الدعوة، ولم يكن هناك فرق بين قريشٍ وغيرها من القبائل، ولا بين بطنٍ من قريشٍ وآخر، فكان بنو

أمية كغيرهم بل لم يكن فرق بين العرب والأعاجم ما داموا ينطلقون في سبيل الله، ويُقاتلون لله، يسيرون تحت راية الإسلام، يلتقون على ذلك، ولا يتميّزون إلا بالتقوى.

وكان قادة من بني أمية كما كان من غيرهم، لقد كان يزيد بن أبي سفيان أحد قادة الجيوش الإسلامية التي انطلقت لفتح الشام، وكان أبوه أبو سفيان يقاتل تحت رايته، وتولّى إمرة الشام بعد إصابة أبي عبيدة بن الجراح بطاعون عمواس، وكان خالد بن سعيد بن العاص قائد المسلمين في مرج الصُّفَّر، ثم ظهر معاوية بن أبي سفيان وقاد بعض الفرق، وتمّ على يديه فتح قيسارية وبعض مدن الساحل الشامي، ثم آلت إليه إمرة الشام بعد وفاة أخيه، وذلك في خلافة الفاروق، رضي الله عنه. وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك هجوم على بني أمية أو نقد لهم إذ ليسوا سوى جزءٍ من قريشٍ، وكان منهم ما كان من قريشٍ عامّةً.

ولمّا آل أمر الخلافة إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وبدأ الهجوم عليه، والنقد له من الأعداء وأصحاب الأهواء، لم يكن ذلك لأنه من بني أمية، ولكن لأنه خليفة يمثّل المسلمين، ويحكم باسم

الإسلام، فالهجوم عليه طعن بالإسلام وتفرقة للمسلمين، إضافةً إلى أنه ألجم أصحاب العصبيات، وقمع حركتهم في خراسان، وألزمهم إلى العودة إلى العهد وطلب الصلح، وأخرس الألسن التي أخذت تُعيد إلى الأذهان عهد المجوسية وأيام آل ساسان.

وعندما انتهى الأمر إلى استلام بني أمية أمر المسلمين، وأخذ الخلافة وُجّهت السهام المسمومة إلى بني أمية عامّةً، وصُوّبت نحوهم الأسنّة، وسُلّطت عليهم الاتّهامات، ووُضعت الافتراءات، وافتُريت الأكاذيب، وأُثيرت الشائعات، فإن تشويه الحاكم إنما هو تشويه المبدأ الذي يحمله، والمنهج الذي يسير عليه، وإن ذلك لهو هدف الأعداء وأهل الأهواء. وإنَّ إثارة العصبيات، وسحب المرحلة الجاهلية على عصر الإسلام، ونبش المنافسة في الماضي إنما هو بذر لشرور الفتنة لتجزئة المجتمع، وإيجاد الصراع بين فئاته، وهو غرض الأعداء وأهل الأهواء، كي تضعف الأمّة، ويمكن الانتصار عليها، وإعادة كيان دولة آل ساسان، وعبادة النار.

وقد يقول قائل: إن الهجوم على بني أمية كان منذ أيام خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه. الواقع أن هذا ما نقرؤه اليوم، غير أنه قد دوّن حوالي منتصف

القرن الثالث الهجري عندما وضع الأعداء وأهل الأهواء مسارات مخططاتهم بإدخال أفكارٍ غريبةٍ في العقيدة في محاولةٍ منهم لتشويهها، وإثارة العصبيات لضرب فئاتٍ من المجتمع بعضها مع بعضٍ لإضعاف الأمة، والحكم الإسلامي، فما نقرؤه اليوم إنّما قد دُوِّن فيما بعد، ولكنه أُعطي زمناً سابقاً لحكم بني أميّة حيث شمل خلافة عثمان بن عفان ما دام أحد أفراد هذا الفرع القرشي، بل ركّز على مواقف بني أمية قبل الإسلام، وهذا ما لم يُركّز على فرعٍ آخر من قريشٍ، وذلك من أجل تشويه الفكرة عن بني أمية، وإعطاء المسلمين صورةً سيئةً جداً عنهم، ثم يُقال عنهم: إنهم الخلفاء، وإنهم حكّام المسلمين، فلا يُبالي الناس بعدها بالخلفاء وهيبتهم، ولا بالإسلام ومنهجه، ولا بالمفاهيم الإسلامية إذ تميع التعاليم، وتنحسر الأفكار من النفوس، وهذا من مخطط الأعداء وأهل الأهواء.

ركّز الأعداء على مواقف سادة بني أمية في جاهليتهم قبل إسلامهم ليُرسّخوا في أذهان العامة مُعاداة بني أمية للإسلام. لقد كان رأس دولة بني أميّة هو معاوية بن أبي سفيان، فوجّهوا الأنظار على مواقف والده أبي سفيان في أُحُدٍ، والخندق، بل وعلى موقف أمّه يوم

أحدٍ، بل واختاروا الألفاظ المناسبة للإساءة، وتناسوا مكانته بعد إسلامه، من إرسال رسول الله ﷺ، له والياً على نجران، وبعث أبي بكرٍ، رضي الله عنه، له إلى اليمن ليكون على الصدقات، وحسن صنيعه في الجهاد، فقد سار مع المجاهدين إلى الشام، وهو شيخ كبير قد ناهز السبعين من العمر، وكان يُقاتل تحت راية ابنه يزيد، كما تناسى الأعداء موقف أبنائه يزيد، ومعاوية في الجهاد، وموقف أُمّ معاوية هند بنت عتبة يوم أسلمت، وبايعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

سلّط الأعداء الأضواء على الكوارث التي نزلت بالمسلمين في عهد بني أمية، ولكن لم يكن الكتّاب مُنصفين في التدوين إذ ذكروا أخطاء جانبٍ وبالغوا فيها، وتركوا أخطاء الجانب الآخر، حتى بدا طرف ملتزم بالإسلام، يُدافع عنه، ويتمسّك به، وظهر طرف ثانٍ يدّعي الإسلام ادّعاءً، يضرب بحقدٍ، ويطعن بتشفٍّ، ويتصرّف بلؤمٍ. وفي كل خطوةٍ كان يرجع إلى المنافسة بين بني هاشمٍ وبني أمية في الجاهلية، وكأنه لم يكن هناك صراع، ولم تكن هناك منافسة إلا بين هذين الجانبين رغم أنهما يعودان إلى بطنٍ واحدٍ، هو عبد منافٍ، أحد بطون قريشٍ المعروفة، فبعضهما قريب من

بعضٍ، بينهما قرابة وصلة رحمٍ. ونُسيت المنافسة بين بقية البطون، وحُفظت هذه في جعبة تاريخ الأعداء وأهل الأهواء.

لم تحفظ المنافسة بين بني هاشمٍ وبين بني أمية فقط، بل نُسيت مبادئ الإسلام التي قضت على العصبية الجاهلية، إذ جاء أهل الأهواء وأدعياء الإسلام فأحيوها، ونبشوا الماضي، وأثاروا الخلافات والعصبيات. ولكن هذا ليس غريباً، فالأعداء إن استطاعوا طمسوا الإسلام ومبادئه، بل هذا هو هدفهم.

وإن مما ساعد على تدوين هذا، وقبول الروايات، أو على الأقل سماعها والسكوت عنها، الأمر الذي يُساعد على شيوعها وانتشارها.

١ ـ دُوّن أكثر هذا في العصر العباسي. وكانت الرغبة إظهار أخطاء بني أمية ليستقرّ الوضع لبني العبّاس.

٢ ـ التذكير بمواقف سادة الأمويين في جاهليتهم، ونسيان أن هذا كان موجوداً في كل بطنٍ من بطون قريشٍ، وغيرها من القبائل، بل ومن هذه البطون بنو هاشمٍ، ولا يُنكر أحد هذا، ومن يُنكر هذا يُذكّره القرآن بأبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا

حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾[1]. مع نسيان أن الإسلام يجبّ ما كان قبله.

٣ ـ التذكير بالمنافسة بين بني هاشمٍ، وبني أمية في الجاهلية، ويميل المسلمون عاطفةً إلى بني هاشمٍ محبةً لرسول الله ﷺ، الذي هو من بني هاشم، مما يُولّد شيئاً بالنفس على بني أمية.

٤ ـ التذكير بالأحداث والنوازل التي حلّت بالمسلمين في عهد بني أمية، والنفس البشرية تميل دائماً وتعطف على من أصابته مصيبة أو حلّت به كارثة، ولو كان هو سببها. ولا شك فإن فاجعة كربلاء، ويوم الحرّة، وضرب الكعبة، أحداث تدمى لها القلوب، وتبكي لها العيون، وتنقم النفوس على من كان وراءها.

٥ ـ التذكير بقسوة بعض الولاة وطغيانهم، مع أن هذا لم يحدث إلاّ في مصرٍ واحدٍ، وهو الكوفة، ذلك أن أهله كانوا يومذاك أهل فتنةٍ وشقاقٍ، ولا يخضعهم إلا السيف، ولا يخنعون إلا بالشدّة، ولا يركنون إلى الهدوء إلا إذا حزمهم الوالي حزم السلمة، وقد ملّهم علي بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، وتكلّم كثيراً عن سلوكهم

---

(١) سورة المسد: الآيات ١ ـ ٥.

الغريب، وأحبّ فراقهم، وكرههم الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، وفارقهم، وهو لهم كاره. لذا ولّى عليهم الأمويون الولاة القُساة الذين عرفوا أن السير معهم لا يصلح إلاّ بالشدّة، ولا يمكن إصلاحهم إلا بأخذهم بالعنف. ولهذا اشتهر زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله بن زياد، والحجّاج بن يوسف الثقفي، وعمر بن هبيرة، وخالد بن عبد الله القسري. أما ولاة بقية الأمصار فلم يُعرفوا بالشدّة، ولم يشتهروا بالقوة بل امتازوا باللين، ووُصفوا بالرأفة، فذلك حسب طبيعة أهل الأمصار بل إن أهل مصر لو تولّى أمرهم عبد ضعيف لخضعوا له، وانقادوا لسلطانه، ولرفعوه، وعدّوه من أحرار الدنيا وسادة البشرية.

وبعد ذاك دوّن أهل الأهواء التاريخ حسب هواهم، ودسّوا فيه ما شاؤوا من أكاذيب، وما وضعوا من افتراءات، وما اخترعوا من قصصٍ يأباها الدين، ولا يقبلها عقل، فقد وضع المسعودي[١] كتاباً في التاريخ

---

(١) المسعودي: علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن، من ذرية عبد الله بن مسعود، من أهل بغداد، أقام بمصر، وتوفي فيها عام ٣٤٦هـ، كان معتزلياً، من كتبه: التنبيه والإشراف. والبيان في أسماء الأئمة.

أسماه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ضمّنه ما يجول في هواه. وقد عني المستشرقون بهذا الكتاب، ومنهم «بربيه دي مينار» و «باڤيه دي كرتاي» ثم قام «شارل بلا» بتنقيح هذه الطبعة وصحّحها، وقامت الجامعة اللبنانية بنشرها عام ١٩٦٦م. وإن مما يرويه المسعودي في كتابه هذا:

١٨٣٩ ـ ولقد بلغ بهم في طاعتهم له، أنه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفّين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص أن عليّاً هو الذي قتل عمّار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن عليٍّ سنةً ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير.

١٨٤٠ ـ قال المسعودي: وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجلٍ من أهل الشام من زعمائهم، وأهل الرأي والعقل منهم: «من أبو تراب الذي يلعنه الإمام على المنبر؟» فقال: أراه لِصّاً من لصوص الفتن.

١٨٤١ ـ وحكى الجاحظ قال: سمعت رجلاً من العامّة، وهو حاج، وقد ذُكر له البيت يقول: إذا أتيته من يكلّمني منه؟، وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل

منهم، وقد سمعه يصلّي على محمّدٍ ﷺ: ما تقول في محمّدٍ هذا؟ قال: ربّنا هو[1].

ونُظمت قصائد، وحُشيت ضمن كتبٍ وضعت للشعر، ككتاب الأغاني الذي جمعه أبو الفرج الأصفهاني[2].

وكُتبت قصص نُسجت بأسلوبٍ أدبي، وصيغت بشكلٍ مُرغّبٍ، وحُشيت في كتبِ الأدب، وقدّمت للناس، فحفظت، وغدا العامّة يُرددونها حتى أصبحت عندهم كالحقائق، وما هي إلا افتراءات وأكاذيب. وروّجت الشائعات عن بني أمية من غير دراسةٍ أو تحقيقٍ أو تحليلٍ، أو من غير نظرةٍ فاحصةٍ عامّةٍ، ثم غدت هذه الشائعات رواياتٍ حيكت بشكلٍ مقبولٍ، ونُسجت خيوط الأخبار بصورةٍ تدين بني أمية، وتصوّرهم على حالةٍ كبيرةٍ من السوء.

وكلما كان الرجل من بني أمية أكثر مكانةً كان الاتّهام إليه أكبر، والشائعات عنه أكثر، فالناس تقول: إن

---

(١) مروج الذهب: سياسة معاوية ٣/ ٢٢٣.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد، ولد في أصفهان عام ٢٨٤هـ، وتوفي ببغداد عام ٣٥٦هـ.

كان الفاضل فيهم هكذا، فغيره أكثر جرأةً في سوء التصرّف. لذا كثُرت اتّهامات معاوية رغم صحبته، رضي الله عنه، فما من صاحب مكانةٍ مات في عهده إلاّ اتّهم أنه قد دسّ له السمّ، لقد اتُّهم بقتل الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، والأشتر النخعيّ، وحُجر بن عديّ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وغيرهم كثير، وأُشيع عنهم جميعاً أنهم قتلوا بالسمّ، وأُشيع عن معاوية، رضي الله عنه، عبارةً، زعم المبطلون أنه كان يُردّدها عند المناسبة «إن لله جنوداً من عسلٍ» أي كان يدسّ السمّ بالعسل لمن كان يريد قتله. ورُوّجت شائعات عن يزيد بن معاوية، وسليمان بن عبد الملك، ومعظم رجالات بني أمية.

وما برز من بني أمية رجل، وأصابه مكروه إلا اتّهم أهله بقتله، فقد أُشيع أن عمر بن عبد العزيز مات مسموماً، وماظهر في عهدهم إنسان لعب دوراً مُهمّاً، وناله أذىً إلاّ وافتُري أنّهم كانوا وراء ما أصابه، فقد أُشيع عن محمد بن القاسم الثقفيّ، وموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم الباهليّ أولئك القادة الفاتحين المعروفين أُشيع عن نهايتهم ما أُشيع.

ولم يُوفّ بنو أمية حقّهم في إعطاء أعمالهم الإيجابية مكانتها، ومنها الفتوحات الواسعة التي تمّت في عهدهم، بل لم يُشر أبداً إلى جهودهم في إحياء الأرض الموات بإقامة ملوكهم أبنيةً لهم على هامش المعمورة من الشام حيث لا يلبث الناس أن يبنوا قربها، وتُؤمن لها مُستلزمات الحياة، وتُحيي الأرض المجاورة لها. فقد أقام يزيد بن معاوية قصر«الحِير» قرب «حوّارين»[1]، ومات هناك.

وبنى عبد الملك بن مروان قصر «عَمرة» في جنوبي الشام، شرق عمّان إلى الجنوب قليلاً، وعلى بُعد ستين كيلومتراً منها. بينها وبين الأزرق.

وأحيى سليمان بن عبد الملك منطقة الرملة، إذ عيّنه أخوه الوليد عليها، فنزل باللّد، ثم انتقل إليها، ومصّرها، وكان أوّل ما بنى فيها قصره، وداراً تُعرف دار الصيّاغين، واختطّ المسجد، وبناه، واحتفر القناة التي تدعى «البردة» لريّ أراضي من أقام معه، وبالقرب منه.

---

(١) حوّارين: هي بلدة القريتين المعروفة في بلاد الشام، أو في ضاحيةٍ من ضواحيها، وهي على هامش الصحراء على طريق تدمر بينها وبين دمشق، وتبعد عن دمشق مائةً وخمسين كيلومتراً، وعن تدمر مائة كيلومتر.

وكان عمر بن عبد العزيز ينزل إلى المرج، ويحيي أرضه، وقد تُوفّي بـ «دير سمعان» في ضواحي دمشق في بداية أرض المرج، والمعروف الآن بـ «دير سلمان»، وقد غيّرت أسماء أماكن كثيرةٍ لبني أمية لأسبابٍ سياسيةٍ، وذلك عند قيام دولة بني العبّاس.

وعمّر هشام بن عبد الملك «الرصافة» جنوب مجرى نهر الفرات بخمسةٍ وعشرين كيلومتراً، إلى الجنوب الغربي من مدينة الرقّة، وعلى بعد تسعين كيلومتراً منها، وشقّ الأقنية إليها، فأُحييت أرضها، وزُرعت، وكانت جناناً ورياضاً، وقد توفّي فيها.

هذا إضافةً إلى حفر الأنهار، والمجاري، والأقنية، في دمشق وغوطتها، ولا تزال قائمةً إلى الآن، ولعل أهمها نهر يزيد الذي شُقّ من بردى من ضفّته اليسرى قبل أن يدخل دمشق، وهو أول فروع بردى من حيث الارتفاع، وقد أُخذت مياه نهر الفرع لريّ الجهة الشمالية من وادي بردى، وليسقي خاصّةً بلدتي القابون، وحرستا، وينتهي في شمالي أرض حرستا عند أقدام سفوح الجبل. وهذا كله يدلّ على اهتمامٍ كبيرٍ بالأرض، وعنايةٍ عظيمةٍ بشؤون السكان، ومصالحهم الحيوية.

ولم يكن أبناء خلفاء بني أمية وملوكهم ليُتركوا في القصور يرفلون بالحرير، ويعيشون بالنعيم، ويحيون حياة

الجواري، ويتحكّمون بالناس، وهم لا يزالون صبيان، كما يحلو لبعضهم أن يُصوّرهم، بل كانوا يحيون حياة القسوة، ويتدرّبون على القتال، ويتسابقون للجهاد، ويقودون الجيوش، ولم تكن قيادتهم، وهم بدمشق، أو في فسطاطٍ منصوبٍ لهم بعيدٍ عن ميدان المعركة، بل كانوا في ساحة الوغى في مقدمة الأبطال.

لقد أرسل معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد على رأس قوةٍ إلى بلاد الروم لحصار القسطنطينية، وكان معه عدد من الصحابة ومن أبناء الصحابة، وقد غاب سنتين، هذا يزيد الذي يصفه أهل الأهواء بالضعف والخور، وابن القصور والتنعّم، والواقع أنه كان شديداً صلباً، قوياً مقداماً. كان القائد والإمام للجيش والخطيب والمسؤول، وهذه مهمّة القائد أصلاً، وما شكاه منه رجل شهد معه قتالاً، ولا تكلّم عنه شخص حضر معه معركةً، ولا طعن في كفاءته إنسان كان في جيشه، ولا عابه في علم أحد انطلق تحت رايته، ولا أخذ عليه أولئك الكرام الذين ساروا معه أمثال عبد الله بن عبّاسٍ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبي أيوب الأنصاريّ، رضي الله عنهم جميعاً. ولكن بعد قرونٍ أخذ أهل الأهواء يُدوّنون، ويطعنون بيزيد بن أبي سفيان، وببني أمية جميعاً ويُضلّلون.

وأرسل عبد الملك بن مروان ابنه الوليد مرّات للغزو في بلاد الروم، وكان ابنه الآخر مسلمة قائد جبهة الروم، وغزواته أكثر من أن تُعدّ، وحصاره للقسطنطينية معروف ومشهور. وكان محمد بن مروان أخو عبد الملك أمير الجزيرة، يتولّى أمر الغزو بنفسه في أغلب الأحيان. وأولاد الوليد بن عبد الملك، وهم: العباس، وعبد العزيز، ومروان، وعمر كانوا يقودون الغزو في بلاد الروم، ويُساعدون عمّهم مسلمة بن عبد الملك على الجهاد، كما أن داود بن سليمان بن عبد الملك كان على رأس قوات أبيه المجاهدة في بلاد الروم، عندما انطلق عمّه مسلمة بن عبد الملك نحو القسطنطينية.

وكان هشام بن عبد الملك يفرض الغزو على بني مروان جميعاً، ومن يتأخّر يُمنع عنه العطاء، وكان أبناؤه في مُقدمة الغزاة، ومنهم: معاوية، وسليمان، ومسلمة، وسعيد.

وكان مروان بن محمد بن مروان يقود جيوش الغزو بنفسه، ويصبر في القتال صبراً شديداً، ويتحمّل الجراح، ويثبت في مواطن الخطر حتى لُقّب بالحمار لشدّة صبره.

وكان معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان من القادة.

وربما تداعى لأذهان بعضهم أن أمراء بني أمية كانوا يتولّون أمر القتال، ويجلسون في عاصمتهم، ويرسلون نواباً عنهم، لا، بل كانوا يُمارسون القيادة بأنفسهم، ويتعرّضون للقتل، ويكونون أمام المجاهدين.

وقد يخطر على بال أحدهم أن بني أمية كانوا يسلّمون القيادة لأمراء منهم خوفاً على أنفسهم من أن يتسلّمها غيرهم فيعمل ضدّهم، غير أن هذا لم يكن وارداً يومذاك، بل هو مفهوم عصري، حيث لم يكن أثر القائد على من معه من المجاهدين إلا في القتال، قتال أعداء الله. وإعطاء الأوامر والتعليمات أثناء الجهاد، والتقدّم أمامهم كقدوةٍ لهم.

كما أن بني أمية لم يتدخّلوا في شؤون القضاء أبداً، وكانوا يُعيّنون القضاة من خيرة أهل العلم، وَيَدَعونهم وشأنهم. ويخشى الأمويون أن تقع منهم حادثة يرجعون فيها إلى القضاء، لأن معنى ذلك الحكم عليهم، ولا بدّ من تنفيذ ما يأمر به القاضي، وإن كانوا هم أصحاب السلطة.

وكان بنو أمية يُقدّمون أهل العلم والفضل غالباً فيُسلمونهم قيادات الجند، ويُعطونهم الولايات، وإذا كانوا قد عيّنوا بعض الولاة القساة، بل والطغاة، فذلك في مصرٍ واحدٍ، لطغيان أهله يومذاك، وفساد طباعهم.

أثر الافتراءات:

والحقيقة أنه كان لكتابات أهل الأهواء والأعداء أثر في المجتمع الإسلامي حتى اليوم، إذ قبل فريق من الناس هذه الكتابات أو بعضها ونقم على جزءٍ من سلفه، وحقد على قسمٍ من أمته، وكره تاريخه، وصار في نفسه شيء على ما يَسمع عن أمجاده، والمبادئ التي قامت عليها، وزُعزعت أركان التعاليم، وهذا مما يهدف له الأعداء، وإن كانوا يلبسون ثياب الإسلام.

ورفض فريق آخر من الناس هذه الكتابات، وعرف أهدافها وغايتها، فضرب بها عرض الحائط، وحذّر منها، ولم تتغيّر فكرته، ولم تتبدّل نظرته، فبنو أمية بطن من قريشٍ، شأنهم مثل بقية البطون، منهم من قبل دعوة الإسلام مُبكّراً، ومنهم من تأخّر، منهم من عادى الدعوة وحاربها بكل إمكاناته وطاقاته، ومنهم من كانت معاداته خفيفةً كالآخرين، منهم من قُتل كافراً، وانتهى أمره، ومنهم من بقي حتى كان فتح مكة فأسلم كبقية أفراد قريشٍ، وكان من الطلقاء، وصار من المسلمين، وحسن إسلامه، وغدا من أفراد المجتمع الإسلامي، منهم الصالح، ومنهم دون ذلك طرائق قدداً. وعلى كلٍ فقد حدث شرخ في المجتمع الإسلامي، وأصبح الناس

فريقين، وهذا من أهداف الأعداء وأهل الأهواء وغايتهم.

ولم يقتصر الأمر على ذلك حيث خشي الأعداء وأهل الأهواء من التئام الانقسام الذي حدث، ووحدة الصفّ التي مُزّقت، خافوا من أثر تعاليم الدين والعودة إلى أخوة الإيمان، لذا اتّخذوا أحد كرام الصحابة سلاحاً ودِرْعاً يُهاجمون الآخرين تحت عنوان الدفاع عنه وعن أسرته بصفة قرباه من رسول الله ﷺ، ويحمون أنفسهم، ويُخفون قصدهم بإظهار محبته، وهم في الواقع أعداء الإسلام، وكل من ينتمي إليه. وقد نال بنو أمية الكثير من سهامهم لأنهم كانوا يُمثّلون المسلمين في حقبةٍ من الزمن، والحقيقة هي أن أحد كبار بني أمية قد اختلف مع من يُظهرون محبّته بالاجتهاد ووجهات النظر حتى وقع صراع دامٍ. ولا يزال المسلمون إلى اليوم يئنون من تلك الأحداثِ، لأن أهل الأهواء يُثيرونها دائماً، ويدوّنون عنها المشاهد كل حينٍ.

ونتيجة الإثارة والتدوين فقد تأثّرت العامة، وهم غالبية مجتمعنا، واهتزّت مكانة بني أمية في النفوس. وأدرك الأعداء والمستشرقون فأسهموا في الإثارة، فاعتنوا بأقوال أهل الأهواء، وأشاعوها، واهتمّوا بكتبهم، وعملوا على نشرها وتوزيعها ليبقى المجتمع الإسلامي

مُفكّكاً، ويتجرّع المفكرون وأهل الرأي وهم قلّة مرارة ذلك، ومهما بذلوا من جهدٍ فهو دون المطلوب، حيث تقبل العامّة على غير إنتاجهم نتيجة العاطفة الإسلامية، ومحبّة رسول الله ﷺ، وآله، وهذا واجب، ولكن القرابة بالتقوى والعمل الصالح، وقد كان هذا في ذلك الوقت، ولكن اليوم يحتاج إلى برهانٍ وصدقٍ، كما يحتاج الأمس واليوم إلى اتّباع الحق في القول والفعل، وإلى الحكم بالعدل دون تمييز.

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ، حين أنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] قال: «يا معشر قريشٍ ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا لأنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد منافٍ لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا عبّاس بن عبد المطلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمّدٍ، سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئاً»[2].

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٢) متفق عليه.

البَابُ الأوَّل

مُعَاوِيَة بن أبي سُفيَان

رَضي الله عنهمَا

الفصل الأول
قبل الإسلام

ولد مُعاوية سنة عشرين قبل الهجرة فهو أصغر من رسول الله ﷺ، بثلاثٍ وثلاثين سنة إذ كانت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهو ابن ثلاثٍ وخمسين سنةً. وكان مُعاوية من أبوين ثريين من سادات بني أمية وأشرافهم بل من سادات قريشٍ. فوالده أبو سفيان صخر بن حربٍ، تاجر معروف يجوب الجهات كلها التي تصل إليها قوافل قريشٍ، وهو من سادات بني أمية، وكانت راية قريشٍ بيده، فهو من ساداتهم، بل هو سيِّد الوادي، حيث ينضوي السادة تحت الراية التي يحملها. وأمّا أُمّه هند بنت عتبة بن ربيعة، وربيعة وأمية أخوان، وهما ابنا عبد شمس بن عبد منافٍ، فمعاوية من عبد شمس أُمّاً وأباً. وكان عتبة بن ربيعة أحد سادة بني أُميّة بل وسادة قريشٍ، وأغنيائهم، ويملك بساتين في الطائف.

وكانت أمّ مُعاوية تزهو على أترابها من نساء قريشٍ بجمالها، ونسبها، وثرائها.

نشأة مُعاوية:

نشأ مُعاوية إذن في أسرةٍ ذات سيادةٍ ورفاهٍ، غير أنه لم يربَّ على الرفاهية والدلال، فمن ناحيةٍ لم يكن هو الوحيد لأبويه، ولم يكن البكر لهما، كما أن أمه هنداً لم تكن الزوجة الوحيدة لأبي سفيان بل كان له غيرها، ولهنّ أولاد مثل الذي لها، وإن كانت لها ميزة بينهن بالجمال والنسب والثراء، والزهو عليهنّ لهذه الأسباب. إضافةً لما تعلم من مكانتها في نفس زوجها، وتمكّنها من قلبه، ودلّها الدائم عليه، وكانت ضرائرها يعرفن ذلك فلا يُنازعنها بل ويتحمّلن منها.

وبدت على معاوية مخايل الفطنة ومظاهر السيادة فاعتُني بتربيته أكثر من إخوته، وكان عنده استعداد لذلك.

قال المدائني عن صالح بن كيسان قال: رأى بعض مُتفرّسي العرب معاوية، وهو صبي صغير، فقال: إني لأظنّ هذا الغلام سيسود قومه، فقالت هند: ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه. وقال الشافعي: قال أبو هريرة:

رأيت هنداً بمكة كأن وجهها فلقة قمرٍ، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعها صبي يلعب، فمرّ رجل فنظر إليه فقال: إني لأرى غلاماً إن عاش ليسودنّ قومه، فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله، وهو معاوية بن أبي سفيان. وقال محمد بن سعدٍ: أنبأنا عليّ بن محمد بن عبد الله بن أبي سيفٍ، قال: نظر أبو سفيان يوماً إلى معاوية، وهو غلام، فقال لهندٍ: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبةً. وكانت هند تحمله وهو صغير وتقول:

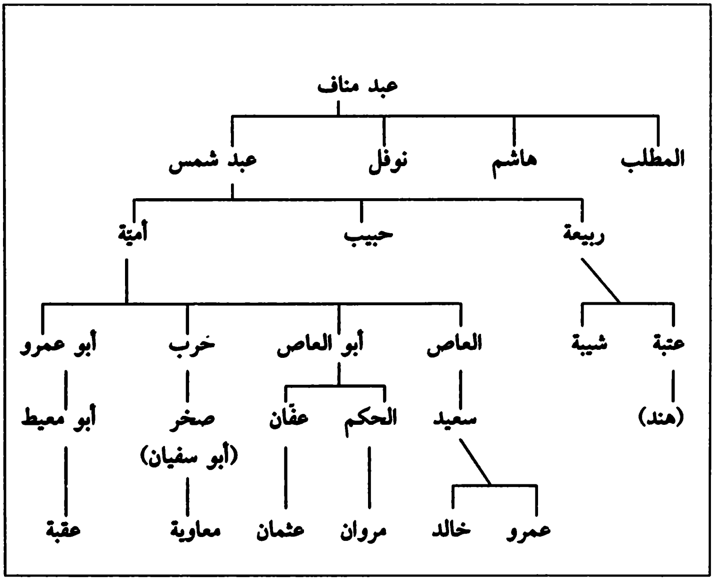

إنّ بـــنـــيّ مُـــعـــرق كـــريـــم

مُـحـبّـب فـي أهـلـه حـلـيـم

لـيـس بـفـحّـاشٍ ولا لـئـيـم

ولا ضـــجـــورٍ ولا ســـؤوم

صـخـر بـنـي فـهـر بـه زعـيـم

لا يُـخـلـف الـظـنّ ولا يـخـيـم[1]

حرص أبواه على تربيته والعناية به لما لمسا فيه، فعملا على عدم إثارته سواء أكان ذلك منهما أم من إخوته الآخرين، ومن نشأ على الغضب لا ترتفع به المكانة، ولا تعلو به الهمّة، كما أن الإثارة تحمل المرء على الحقد وخاصةً الذين يُثيرونه، ومن وُجد في قلبه حقد لا يمكن أن تسمو به الرتب، ومع عدم الإثارة نما عنده الحلم حتى صار حليماً مُتميّزاً بذلك.

وعوّداه على عدم التباهي أمام أقرانه، وكرّها إليه المفاخرة بين الأتراب، فمن تفاخر مقته صحبه، وحمل عليه رفاقه فلا يُمكن أن يُسوّدوه عليهم، ومع الزمن نشأ في نفسه اللّين، وتعوّد على حسن العشرة وأدب المودة.

وكان أبوه بخيلاً شحيحاً فكان يُمسك عنه، ويُقلّل

(١) البداية والنهاية: ٨/١٢٨.

عليه، والنفس لا تسمو مع البخل، والمنزلة لا ترتفع مع الشحّ، فكانت أمّه تأخذ من خلف أبيه، وتُعطيه بقدْرٍ، وتسمح له بالمقدار، فالكرم أحد مُقوّمات السيادة، غير أن التبذير أحد عوامل زعزعة الإدارة وزوال السلطان، فنشأ معاوية على السخاء عند الحاجة، والإمساك مع الضرورة.

واعتنيا أبواه بتعليمه حتى غدا قارئاً كاتباً، وكان قليل من يُجيد ذلك من العرب في تلك المرحلة من الزمن، وهذا ما دفع نفسه إلى الارتقاء والسمو، ومع ما أُعطي من حبّ التواضع ظهر على شخصيته الوقار، وعُرف بذلك.

البعثة المحمدية:

وبُعث رسول الله ﷺ، فاهتزّت مكة، وكثر الحديث عن رسول الله، عليه الصلاة والسلام، وكان معاوية لم يتجاوز السابعة من العمر، فلم يُدرك أبعاد الكلام، ولم يعرف مراميه غير أنه يتردّد أمامه كثيراً، فأبوه من الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بعنفٍ، وكذلك جدّه والد أمه، عتبة بن ربيعة، وعمّته أروى أم جميل زوجة أبي لهبٍ، وهذه البيوتات هي التي يتردّد عليها، ويُكثر زيارتها.

ثم لم يلبث أن سمع أن خاله أبا حذيفة بن عتبة قد أسلم، وأسلمت معه زوجه سهلة بنت سهيل بن عمرٍو، وكذلك سمع أن أخته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان قد أسلمت مع زوجها عبيد الله بن جحش، ثم انطلق كثير ممن كان قد أسلم مُهاجراً إلى الحبشة، ومنهم خاله وزوجته، وأخته وزوجها. وكان معاوية قد بلغ الثالثة عشرة من العمر، وأخذ يُدرك بعض المعاني. ولكنه لم يجد داعياً لهذه الحرب التي يشنّها سادة قريشٍ على الدعوة الإسلامية وعلى من أسلم. حيث لم يجد في المسلمين عملاً شاذّاً أو عُدوانياً، بل يجد استقامةً وهدوءاً، وأدباً وطاعةً، غير أنه لا يزال صغيراً، فرأي السادة هو المسموع والنافذ، وخاصةً أن بعضهم من أهله وذوي قرباه، فأبوه، وجدّه لأمه، وأخو ذلك الجد، كلهم من السادة ومن المدافعين عن الأصنام وعبادتها، وعن عادات الآباء والأجداد تعصّباً وحميَّةً، وما عليه إلا السمع والطاعة والانقياد للأشراف، وأهل الرأي على زعم الجاهليين يومذاك.

ورجع خاله أبو حذيفة بن عتبة وزوجه سهلة بنت سهيل بن عمرٍو مع بعض من رجع من المسلمين من الحبشة، وهم كما ذهبوا، عقيدة ثابتة، وإيمان راسخ، رجعوا إلى رسول الله ﷺ، وإلى دعوتهم، لا لموطنهم،

ولا لذي رحمهم ونسبهم في الدم، وأصبح معاوية الشاب الناشئ يفكّر في الأمر، ويرى أنه لا بد من أن تكون خيوط للحقيقة حتى يثبت هؤلاء ما هم عليه، وما آمنوا به.

وبعد ذلك وصلت أخبار عن ارتداد عبيد الله بن جحش، زوج أخته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وتركه الإسلام، واتّباع النصرانية، ديانة أهل الحبشة يومذاك، مع ثبات زوجته على عقيدتها وتمسّكها بها. ويُسائل معاوية نفسه، هل هذه الرّدة لضحالةٍ في العقيدة؟ وهل هي شخصية أم عامّة؟ إنه لم يرتدّ إلا شخص واحد بل لم تُوافقه زوجته المرتبطة به أشدّ الارتباط، والمهاجرة معه، والمعيل لها، وهذا يدلّ على أن الموضوع شخصي، وهذا النزوع إلى الالتحاق بالنصارى لا بدّ له من سببٍ. بل إن ما يدلّ على أنه حادثة فردية دخول أفرادٍ من قريشٍ في الإسلام باستمرارٍ، رغم كل ما يرونه ممّا يُصيب إخوانهم من عذابٍ وأذىً، إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، بل إن بعضهم قد فارق الحياة تحت العذاب وإجراماً من سادة المشركين.

الهجرة:

لما رأى رسول الله ﷺ، تمسّك قريشٍ بموقفها

المعاند للدعوة، وثباتها على جاهليتها، ووثنيتها، وأصنامها اتّجه يعرض نفسه على القبائل أثناء الموسم، غير أن قريشاً لم تتركه بل كانت تُلاحقه، تارةً تدّعي أمام القبائل أنه مجنون، وأخرى تزعم أنه ساحر يُفرّق بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه، والأخ وأخيه. وشاء الله أن يلتقي رسوله بجماعةٍ من أهل المدينة جاؤوا إلى الموسم، فعرض عليهم دعوته فوافقوه وقبلوا منه، وتواعدوا معه في الموسم القادم، وتمّ اللقاء، وكانت البيعة، وأشار رسول الله ﷺ، على أصحابه في مكة للهجرة إلى إخوانهم في المدينة، ليعيشوا معاً ضمن متجمعٍ واحدٍ يمكنهم من إقامة الحياة الإسلامية.

أخذ المسلمون في مكة يُهاجرون إلى إخوانهم أرسالاً حتى انتقل معظمهم. ثم جاء الإذن من الله لرسوله بالهجرة، وكانت قريش ترصده، وتُريد أن تقضي عليه قبل أن يُهاجر، غير أنه خرج من بين الرصد ولم يروه، ووصل إلى هدفه، وثارت أحقاد قريشٍ، وطار صوابها، وكاد سادتها يتميّزون غضباً لما حدث. ويتساءل مُعاوية لماذا هذا الغضب؟ لقد خرج محمد وصحبه وكفوا قريشاً ما تريد، فابتعدوا عنها، ولم يعرف ما تهدف إليه قريش.

ومرّ الزمن، واستدار العام، وذهبت موجة الغضب الظاهري، غير أن النفوس لا تزال مليئةً بالأحقاد، عامرةً بالشحناء، وإن كانت قد رجعت الحياة الاعتيادية إلى مكّة. وخرج والده أبو سفيان في قافلةٍ كبيرةٍ إلى الشام، ومعه كثير من أموال قريشٍ.

معركة الفرقان:

أراد المهاجرون في المدينة التعرّض لقافلة أبي سفيان حيث فيها جزء من أموالهم التي سطا عليها المشركون في مكة بعد أن هاجر أصحابها المسلمون إلى المدينة، فخرجوا لها برأي رسول الله ﷺ، وبقيادته، ولما وصلوا إلى موقع «العشيرة» شمال ينبع النخيل وجدوا أن القافلة قد فاتتهم، فرجعوا إلى المدينة، وترك رسول الله ﷺ، سعيد بن زيدٍ، وطلحة بن عبيد الله ينتظران قدومها، ويرصدان عودتها، وآبت القافلة راجعةً، غير أن أبا سفيان كان يبثّ أمامه الطلائع يتلمّسون الدروب، ويستجلون الأخبار، يسألون الركبان، ويتحسّسون المداخل، وقد بلغ أبا سفيان أن رسول الله ﷺ، قد استنفر المدينة، وأن من نفر قد تهيّأ لملاقاة القافلة، وما أن وصلت الأخبار إلى أبي سفيان حتى أخذ طريق الساحل، وأسرع الخطو، واستأجر من

يخبر قَريشاً بأن قافلتها قد وقعت بأيدي محمّدٍ وصحبه.

نجا أبو سفيان مع عيره، غير أن الخبر قد وصل إلى مكّة سريعاً، فانتفضت قريش، وهبّ سادتها، وشبّ صعاليكها، وانطلقوا يريدون إنقاذ القافلة والثأر من المسلمين، وتأديبهم ـ حسب اصطلاح المشركين ـ ومع أن أبا سفيان قد بعث لهم أنه قد نجا وقافلته، ولكن ليس هناك من سامعٍ إذ طمست الجاهليّة على عقولهم، وأعمت العصبيّة عيونَهم، وأصمّت الأحقاد آذانهم فتابعوا سيرهم، يدفعهم الأمل باستئصال شأفة المسلمين، وإسماع قبال العرب قاطبةً بفعلهم فتبقى تهابهم، وتخشى بأسهم، وتحدوهم الرغبة بالحصول على النهب والسلب، وسوق السبايا أمامهم، والأسرى المكبّلين بالأغلال، والتقى الفريقان، وكانت معركة الفرقان ـ يوم بدر ـ التي فرّقت بين الحق والباطل، فنصر الله الحق وأهله، وخذل الشرك وأعوانه، وأعزّ الإسلام وجنده.

لم يخرج معاوية مع المشركين إلى بدرٍ رغم أنه قد بلغ الثانية والعشرين من العمر، وربما كان ذلك لأنه خرج من أهله ما يكفي، إذ خرج أخواه حنظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن أبي سفيان، وخرج جده لأمّه عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وخرج خال

معاوية الوليد بن عتبة بن ربيعة، كما أن أباه أبا سفيان كان غائباً في قافلته.

كانت معركةً حاسمةً انتصر فيها المسلمون نصراً مُؤزّراً إذ قتلوا سبعين من طغاة قريشٍ وصناديدها، وأسروا مثل ذلك العدد. وهُزم المشركون هزيمةً نكراء إذ خلّفوا جثث أبطالهم في ميدان المعركة، وتركوا زعماءهم مكبّلين بأيدي شباب الإسلام. وكان من صرعى صناديد المشركين: أبو جهلٍ عمرو بن هشامٍ، وأُميّة بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط. وكان من الأسرى عقيل بن أبي طالبٍ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وسهيل بن عمروٍ.

كانت هذه الضربة فاجعةً بالنسبة إلى قريشٍ وخاصةً إلى أبي سفيان وزوجه هند بنت عتبة، وأهلها، إذ قُتل والد هند، عتبة بن ربيعة، وعمّها شيبة بن ربيعة، وأخوها الوليد بن عتبة، وابنها البكر حنظلة بن أبي سفيان. وزاد على أبي سفيان مقتل ابن عمه عقبة بن أبي معيط، وأسر ولده عمرو بن أبي سفيان. كما عدّ نفسه أنه المسؤول عن هذه المعركة وفاجعة قريشٍ بها لذا فهو لم يفد ابنه عمراً، بل أُبدل بأسيرٍ مسلمٍ فيما بعد أسره أبو سفيان، ونذر أبو سفيان أن لا يمسّ رأسه ماء من

جنابةٍ حتى يغزو محمّداً ﷺ، فخرج في مائتي راكبٍ من قريشٍ ليبرّ يمينه، فسلك النجدية، حتى نزل بصدر قناة إلى جبلٍ يقال له: «ثَيْب» من المدينة على بريدٍ أو نحوه، ثم خرج من الليل، حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حُيَيّ بن أَخْطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح إليه وخافه، فانصرف إلى سلّام بن مِشْكم، وكان سيّد بني النضير في زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقراه، وسقاه، وبطن له من خبر الناس، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث رجالاً من قريشٍ إلى المدينة، فأتوا ناحيةً منها يقال لها «العُرَيْض» فحرقوا في أصوار[1] من نخلٍ بها، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما، فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين، ونَذِر[2] بهم الناس. فخرج رسول الله ﷺ، في طلبهم، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، وهو أبو لبابة، حتى بلغ «قَرْقَرَةُ الكُدْر»[3]، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها

---

(١) أصوار: جمع صور، وهو جماعة النخل.

(٢) نَذِرَ بهم الناس: علموا بهم.

(٣) قرقرة الكدر: موضع بناحية المعدن بينها وبين المدينة ثمانية برد.

في الحَرْث يتخفّفون منها للنجاء[1]. فقال المسلمون، حين رجع بهم رسول الله ﷺ: أتطمع لنا أن تكون غزوةً؟ قال: «نعم»[2]. وقد سُمّيت هذه الغزوة بـ «غزوة السويق» لأن أكثر ما طرحه المغيرون من أزوادهم السويق، فحصل المسلمون على سويقٍ كثيرٍ، فعرفت الغزوة بهذا الاسم، ولم ير معاوية بن أبي سفيان في هذا العمل سوى غارةٍ وغدرٍ، كما أنهم لم ينالوا ثأراً، ولم يفوزوا بنصرٍ، بل فرّوا عندما علم المسلمون بهم. كما أن أبا سفيان لم يقتنع بما قام به، لذا قرّر القيام بهجومٍ كبيرٍ على المدينة، وأخذ يستعدّ لذلك.

معركة أُحُدٍ:

لما رجع أبو سفيان بِعِيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهلٍ، وصفوان بن أمية في رجالٍ من قريشٍ ممن أُصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدرٍ، فكلّموا أبا سفيان بن حربٍ، ومن كانت له في تلك العير من قريشٍ تجارةٌ، فقالوا: يا معشر قريشٍ، إن محمّداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال

---

(١) النجاء: السرعة.

(٢) سيرة ابن هشام.

على حربه، فلعلّنا نُدرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا، ففعلوا. ففيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾(١).

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ، حين فعل ذلك أبو سفيان بن حربٍ، وأصحاب العير، بأحابيشها، ومن أطاعها من قبائل كنانة، وأهل تِهامة(٢).

ودعا جبير بن مُطْعِم غلاماً له حبشياً، يُقال له «وحشي»، يقذف بحربةٍ له قذف الحبشة، قلما يُخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عمّ محمّدٍ بعمي طعيمة بن عديٍّ، فأنت عتيق.

فخرجت قريش بحدّها وجَدّها وحديدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تِهامة، وخرجوا معهم بالظُّعْن التماس الحفيظة، وألا يفرّوا. فخرج أبو سفيان بن حربٍ، وهو قائد الناس، بهند بنت عتبة، وخرج عكرمة بن أبي جهلٍ بأُمّ حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

(٢) سيرة ابن هشام.

هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببَرْزة بنت مسعود بنَ عمرو بن عمير الثقفية. وخرج عمرو بن العاص بِرَيْطة بنت منبّه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة، وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بسلافة بنت سعد بن شُهَيدِ الأنصارية، وهي أم بني طلحة: مسافع، والجلاس، وكلاب، قتلوا يومئذٍ هم وأبوهم، وخرجت خُناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بني مالك بن حِسْل مع ابنها أبي عزيز بن عمير، وهي أم مصعب بن عميرٍ، وخرجت عَمرة بنت علقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة. وكانت هند بنت عتبة كلما مرّت بوحشيٍّ أو مرّ بها، قالت؛ ويها أبا دسمة، اشف واستشف، وكان وحشيّ يُكنى بأبي دسمة، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين، بجبل ببطن السبخة، من قناة على شفير الوادي، مقابل المدينة[١].

وخرج رسول الله ﷺ، حتى نزل الشعب من أُحُدِ في عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى

(١) المصدر السابق نفسه.

أُحُدٍ. وجعل الرماة على الجبل الذي عُرف باسمهم، وأمرهم عدم مغادرتهم مواقعهم مهما كان من أمر المعركة، ونظّم أمر القتال، كما استعدّ الطرف المقابل، فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعضٍ قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويُحرّضنهم، فقالت هند فيما تقول:

ويــهــا بــنــي عــبــد الــدار
ويــهــا حــمــاة الأدبــار
ضــربــاً بــكــل بــتّــار

وتقول:

نــحــن بــنــات طــارق
نــمــشــي عــلــى الــنــمــارق
إن تُــقــبــلــوا نُــعــانــق
ونــفــرش الــنــمــارق
أو تُــدبــروا نُــفــارق
فــراق غــيــر وامــق

فاقتتل الناس، وحميت الحرب، وقاتل أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ، حتى أمعن في الناس، وحمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها. قال أبو دجانة سِماك بن خَرَشة: رأيت إنساناً

يخمش الناس خمشاً شديداً، فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ، أن أضرب به امرأةً.

وقُتل حمزة بن عبد المطلب، وقُتل مصعب بن عميرٍ صاحب لواء رسول الله ﷺ، فأعطى رسول الله ﷺ، اللواء عليّ بن أبي طالبٍ.

وكان الذي قتل حمزة بن عبد المطلب هو «وحشي». يقول وحشي: كنت غلاماً لجبير بن مطعمٍ، وكان عمّه طعيمة بن عديٍّ قد أُصيب يوم بدرٍ، فلمّا سارت قريش إلى أُحُدٍ، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عمّ محمّدٍ بعمي فأنت عتيق، قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، فلم أُخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصّره حتى رأيته في عُرض الناس مثل الجمل الأورق، يهدّ الناس بسيفه هدّاً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيّأ له، أريده، واستتر منه بشجرةٍ أو حجرٍ ليدنو مني إذ تقدّمني إليه سِباع بن عبد العزّى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إليّ يا ابن مُقَطِّعَةِ البظور، قال: فضربه ضربةً كأن ما أخطأ رأسه. قال: وهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثُنّته، حتى

خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغُلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيت فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأُعتق. فلما قدمت مكة أُعتقت، ثم أقمت، حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ، مكة هربت إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ، ليُسلموا تعيَّت عليّ المذاهب، فقلت: ألحق بالشام أو اليمن، أو ببعض البلاد، فوالله إني لفي ذلك من همّي إذ قال لي رجل: ويحك! إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، وتشهّد شهادة الحق.

فلما قال لي ذلك، خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ، المدينة، فلم يَرُعْه إلا بي قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق، فلما رآني قال: «أوحشيّ؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «اقعد فحدّثني كيف قتلت حمزة»، قال: فحدّثته، فلما فرغت من حديثي قال: «غَيِّب عني وجهك، فلا أرينّك». قال: فكنت أتنكّب رسول الله ﷺ، حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله ﷺ.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب

اليمامة خرجت معهم، وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائماً في يده السيف، وما أعرفه فتهيّأت له، وتهيّأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده، فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشدّ عليه الأنصاريّ، فضربه بالسيف، فربّك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وشرّ الناس[1].

ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها، عن الزبير، رضي الله عنه، أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَم هند بنت عتبة، وصواحبها مُشمّراتٍ هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حيث كشفنا القوم عنه، وخلّوا ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا، وصرخ صارخ ألا إن محمّداً قد قُتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم.

---

(١) سيرة ابن هشام.

وانكشف المسلمون، فأصاب فيهم العدو، وكان يوم بلاءٍ وتمحيصٍ، أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ، فدُثّ بالحجارة حتى وقع لشِقِّه، فأُصيبت رباعيته وشُجّ في وجهه، وكُلمت شفته. وانتهت المعركة بالنيل من المسلمين.

ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يُمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يُجدّعن الآذان والأُنُف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأُنُفِهِم خَدَماً وقلائد، وأعطت خَدَمها، وقلائدها، وقِرَطتها وحشياً، غلام جبير بن مُطْعم، وبقرت عن كبد حمزة، فلاكتها فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها، ثم علت على صخرةٍ مشرفةٍ، فصرخت بأعلى صوتها، فقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سُعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
ولا أخي وعمّه وبِكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري
شفيتَ وحشيّ غليل صدري
فشكر وحشيٌ على عمري
حتى ترمَّ أعظمي في قبري

وقالت:

شفيت من حمزة نفسي بأحد
حتى بقرت بطنه عن الكَبِدْ
أذهب عني ذاك ما كنت أجد
من لذعة الحزن الشديد المعتمِدْ
والحرب تعلوكم بشؤبوبٍ بَرِد
تقدم إقداماً عليكم كالأسد

وكان الحُلَيس بن زبّان، أخو بني الحارث بن عبد مناة، وهو يومئذٍ سيّد الأحابيش، قد مرّ بأبي سفيان، وهو يضرب في شِدْقِ حمزة بن عبد المطلب بزُجِّ الرمح، ويقول: ذُق عُقَق، فقال الحليس: يا بني كنانة هذا سيّد قريشٍ يصنع بابن عمِّه ما ترون لحماً[1]، فقال: ويحك! اكتمها عني، فإنها كانت زلّةً.

ثم إن أبا سفيان بن حربٍ، حين أراد الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته، فقال: أنعمتَ فعال، إن الحرب سجال، يوم بيومٍ، أُعل هُبَل، أي أظهر دينك، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عمر فأجبه، فقل: الله أعلى وأجلّ، لا سواء قتلانا في الجنة،

---

(١) لحماً: ميتاً، لا يقدر على الانتصار.

وقتلاكم في النار». فلما أجاب عمر أبا سفيان، قال له أبو سفيان: هَلُمّ إليّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ، لعمر: «ائته فانظر ما شأنه»، فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرّ، لقول ابن قمئة لهم: إني قتلت محمداً.

ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان في قتلاكم مُثَل، والله ما رضيت، وما سخطت، وما نهيت، وما أمرت.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ، لرجلٍ من أصحابه: «قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد».

ثم بعث رسول الله ﷺ، عليّ بن أبي طالبٍ، فقال: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها، ثم لأُناجزنّهم». قال عليّ: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصعنون، فجنّبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجّهوا إلى مكة.

وخرج رسول الله ﷺ، يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي قد بُقِر بطنه عن كبده،

ومُثِّل به، فجُدع أنفه، وأذناه، فقال حين رأى ما رأى: «لولا أن تحزن صفيّة ويكون سُنّةً من بعدي لتركته، حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريشٍ لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم»، فلما رأى المسلمون حزنَ رسول الله ﷺ، وغيظه على من فعل بعمّه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنُمَثِّلَنّ بهم مُثْلَةً لم يُمثّلها أحد من العرب.

ولما وقف رسول الله ﷺ، على حمزة قال: «لن أُصاب بمثلك أبداً! ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا». ثم قال: «جاءني جبريل فأخبرني، إن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله».

عن ابن عبّاسٍ، رضي الله عنهما، أن الله عزّ وجلّ أنزل في ذلك، من قول رسول الله ﷺ، وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[1]. فعفا رسول الله ﷺ، ونهى عن المثلة.

---

(١) سورة النحل: الآيات ١٣٦ ـ ١٣٨.

عن سمرة بن جندب قال: ما قام رسول الله ﷺ في مقامٍ قطّ ففارقه حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة.

كان يوم أُحُدٍ يوم السبت للنصف من شوال. فلما كان الغد من يوم الأحد لستّ عشرة ليلةً مضت من شوال، أذّن مُؤذّن رسول الله ﷺ، في الناس بطلب العدوّ، فأذّن مؤذّنه أن لا يخرجنّ معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس.

فخرج رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميالٍ، واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وقد مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي، ومعبد يومئذٍ مشرك، ولكن خزاعة كانت تميل إلى رسول الله ﷺ، فقال معبد: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج ورسول الله ﷺ، بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ، وأصحابه، وقالوا: أصبنا حدّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لنكُرَّنّ على بقيتهم، فلنفرغنّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً

قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أر مثله قطّ، يتحرّقون عليكم تحرّقاً قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فهم من الحَنَق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم، لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك.

ومرّ ركب من عبد القيس بأبي سفيان، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: وَلِمَ؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مُبلّغون عني محمّداً رسالةً أرسلكم بها إليه، وأُحَمّل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم؛ قال: إذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمرّ الركب برسول الله ﷺ، وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وإن أبا سفيان بن حربٍ لما انصرف يوم أحدٍ أراد الرجوع إلى المدينة ليستأصل ـ فيما زعموا ـ بقية أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم صفوان بن أمية بن

خلف: لا تفعلوا، فإن القوم قد حَرَبوا[1]، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا. فقال النبي ﷺ، وهو بحمراء الأسد، حين بلغه أنهم همّوا بالرجعة: «والذي نفسي بيده، لقد سُوِّمت لهم حجارة، لو صُبِّحوا بها لكانوا كأمس الذاهب»[2].

لم يشهد معاوية أُحُداً رغم أنه قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر، ورغم أنه موتور بل إن أسرته كلها موتورة ببدرٍ إن لم نقل قريشاً، وربما لم يكن مرتاحاً للأسلوب الذي خرجت به قريش إلى أحد إذ يُسيطر الخوف على أفرادها قبل المسير، فالحمزة صاحب الصولة في المشركين ببدرٍ لم يُفكّر أحد بمنازلته ولقائه بل مُني عبد بالعتق، وكان عنده الأمل بالعطاء بسخاءٍ إن هو تمكّن من قتل الحمزة أي إن القتل إن تمّ فهو غدر، وبالأجرة، كما أنهم خرجوا بالنساء خوفاً من الفرار، إذن يتوقّعون الفرار، وهم لا يزالون بمكة، فكيف تكون حالة جيشٍ كهذا؟

لم يحضر معاوية أُحُداً، غير أن تفاصيل الأحداث قد وصلت إلى مكة مع رجوع العائدين، بل تداولتها

(١) حَرَبوا: غضبوا.
(٢) سيرة ابن هشام.

الألسن، ولم تَرُق لمعاوية، فإن قريشاً قد نالت من المسلمين بعض النيل بقتل حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عميرٍ، وعبد الله بن جحشٍ إلا أنه نَيْلٌ شابَهُ الغدر، وتمّ بالدفع. هذا إضافةً إلى التراجع في الجولة الأولى من المعركة، ويتصوّر معاوية أمه وهي تفرّ مع بقية النساء، وهنّ مشمّرات فلا يرتاح لهذا المنظر، كما أن قريشاً بإمرة أبيه لم تجرؤ على المواجهة رغم انتصارها ـ حسب زعمها ـ عندما لحق بها رسول الله ﷺ. ولكن معاوية لم يستطع التفوّه بكلمةٍ واحدةٍ، فالأحقاد تغلي كالمِرْجَل في نفوس سادة قريشٍ عامّةً، وفي نفوس أسرته خاصّةً، وأشدّها ما كان في نفس أُمّه، ووجدت قريش في هذا النصر الجزئي أو النَّيل البسيط بل المدّعى ما يُخفّف عنها ما يخْتلج صدورها، فأظهرت الفرح والبهجة فلا يمكن لفردٍ منها أن يُعكّر عليها ما هي فيه.

مقتل خبيبٍ، رضي الله عنه:

إن ادّعاء قريشٍ العريض بانتصارها العظيم على المسلمين في أُحُدٍ قد أبقاهم بعد ذلك ضعفاء، وأبقى المدينة دون حمايةٍ كافيةٍ وهذا ما شجّع القبائل حتى الصغيرة منها، على الإغارة للحصول على بعض

المغانم، غير أنها لا تستطيع القيام بالهجوم قبل محاولة التجربة، والمحاولة لا تتمّ إلا بطريقة الغدر.

قدم على رسول الله ﷺ، بالمدينة رهط من عَضَل والقارة، وقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك، يُفقّهوننا في الدين، ويُقرئوننا القرآن. فبعث رسول الله ﷺ، معهم نفراً ستةً من أصحابه، وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنويّ، وخالد بن البكير الليثيّ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وزيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق. وأمّر رسول الله ﷺ، على القوم مرثد بن أبي مرثدٍ، وقيل: عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز، على صدور الهدأة غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يَرُع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف، قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليُقاتلوهم، فقالوا لهم: إنا والله ما نُريد قتلكم، ولكنا نُريد أن نُصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم.

فأما مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقالوا: والله لا نقبل من من مشركٍ عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا القوم حتى قتلوا.

وأما زيد بن الدثنة، وخُبيب بن عدي، وعبد الله بن طارقٍ فلانوا، ورقّوا، ورغبوا في الحياة، فأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران[1] انتهز عبد الله بن طارق يده من القِران، ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه. وأما خُبيب بن عديٍ، وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة فباعوهما من قريشٍ بأسيرين من هذيل كانا بمكة. فابتاع خُبيباً حُجير بن أبي إهاب ليقتله بأبيه، وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلفٍ. وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له، يقال له: نِسطاس، إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريشٍ، فيهم أبو سفيان بن حربٍ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليُقتل: أَنشُدُك الله يا زيد: أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك، نَضْرِبُ عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أُحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة تُؤذيه، وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمّدٍ محمّداً. ثم قتل نِسطاس زيداً.

---

(١) الظهران: وادٍ قرب مكة، ويعرف الآن بوادي فاطمة.

وأما خُبيب فقد خرجوا إلى التنعيم ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع رَكْعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع. فركع رَكْعتين أتمّهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنّوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. فكان خُبيب بن عديٍ أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. ثم رفعوه على خشبةٍ، فلما أوثقوه، قال: اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تُغادر منهم أحداً. ثم قتلوه، رحمه الله.

فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرته يومئذٍ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يُلقيني إلى الأرض فَرَقاً من دعوة خُبيبٍ، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعي عليه، فاضطجع لجنبه زالت عنه.

رأى معاوية مقتل زيدٍ بن الدثنة، وسمع قول أبيه أبي سفيان وجواب زيدٍ له، وعجب من حبّ المسلمين الشديد لنبيّهم، وساءل نفسه عن هذا الحب، وعرف أنه لا بد من أمرٍ هناك لا يعرفه، وفعلاً لم يعرف الإيمان وكنهه، ولم يدرك آثار الشهادة لمحمدٍ ﷺ، بالرسالة. وحضر معاوية كذلك مصرع خُبيبٍ، واستغرب عدم

الجزع من الموت، إذ يعيش هو في مجتمعٍ ترتعد فرائص الفرد من ذكر الموت، فأدرك أن في الإِسلام سرّاً لا تعرفه قريش حيث تنظر إلى المسلمين نظرةً من زاوية الكراهية لما تحمل في داخلها من أحقادٍ عليهم، وخاصةً بعد بدرٍ. وأخذ ينظر إلى الواقع فلم ير في المسلمين عيباً في سلوكهم، بل على العكس، هم النماذج من ناحية الأخلاق والاستقامة، ولم يصدر منهم أي اعتداءٍ بل كان يُعتدى عليهم من سادة قريشٍ، وهم لم يُهاجموا مكة بل قريش هي التي هاجمت المدينة. وإذا كان المسلمون قد خرجوا لاعتراض قافلة أبيه، فإن أباه قد سطا على دار بني جحش، وكذا فعل السادة الآخرون. إذن فلا بد من أن ننظر إلى الأمر بتجرّدٍ، ونترك نظرة الكراهية والأحقاد التي ورثناها ونشأنا عليها، ورسخت في نفوسنا.

في غزوة الخندق:

حزّب اليهود الأحزاب ضد المسلمين فأطاعتهم قريش فخرجت بجموعها، وقائدها أبو سفيان بن حربٍ، ووافقتهم غطفان فخرج منها بنو فزارة، وأشجع، ومرّة، وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر سيّد فزارة، فهؤلاء من خارج المدينة، وكان بنو قريظة من يهود من داخل المدينة، وسينقضون عهودهم مع رسول الله ﷺ.

وخرج معاوية بن أبي سفيان مع قريشٍ، وآن له أن يخرج، فقد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر، فلا بدّ له من أن يُشارك قومه، ومن ناحيةٍ فأبوه سيّد القوم وليس من السياسة أن يسير رجال قريشٍ، ويتخلّف ابن سيّدهم، وهو في أحسن حالٍ تُهيئه للقتال.

وانطلقت قريش بجموعها، ونزلت بمجمع الأسيال بعشرة آلاف، وجاءت غطفان، ونزلت إلى جانب أُحُدٍ بأعدادٍ كثيرةٍ، وقد أعجبتهم كثرتهم هذه، ولكن لم تغن عنهم شيئاً، هذا إضافةً إلى بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وهم داخل المدينة، فخطرهم عظيم، ومكرهم شديد، وأماكنهم وحصونهم في أعالي المدينة ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾[(1)]. فكان اليهود من أعالي المدينة، وقريش وغطفان من أسفلها، والمسلمون بين الطرفين في ثلاثة آلافٍ، كما لعب المرجفون من المنافقين دورهم فقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وقد ابتُلي المسلمون فصبروا فجاءهم نصر الله. ولم يكن الخندق سوى السبب الظاهري لردّ كيد المعتدين، أما السبب

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٠.

الحقيقي فهو نصر الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾[1].

ولم يكن لمعاوية أي دورٍ في هذه الغزوة، وكأنه جاء مراقباً ينظر ما يجري، بل الواقع إن الأحزاب جميعهم لم يكن لهم أي أثرٍ، إلاّ المجيء ومحاولة الغزو، ثم العودة خائبين فاشلين، وقد ورد اسم مُعاوية عرضاً في هذه الغزوة، وذلك مما ذكره حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، إذ كان بين الأحزاب عيناً لرسول الله ﷺ، ينظر ما يصنعون، قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قِدْراً ولا ناراً، ولا بناءً، فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريشٍ، لينظر أمرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريشٍ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقامٍ، لقد هلك الكراع والخفّ، وأخلفتنا

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٩.

بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدّة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مُرتحل، ثم قام إلى جمله، وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاثٍ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم. وعادت قريش إلى ديارها، وسمعت غطفان ما فعلت قريش فرجعت إلى منازلها.

ولما ارتحل الأحزاب، سار رسول الله ﷺ، إلى بني قريظة فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فعاقبهم جزاء خيانتهم ونقض عهدهم، وحكم فيهم سعد بن معاذ، رضي الله عنه : أن تُقتّل الرجال، وتُقسّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء. فقُتلت الرجال، وهم قريب من الألف. وقُسمت أموال بني قريظة ونساؤهم وأبناؤهم على المسلمين.

ورجع معاوية إلى مكة، وأخذ يُفكّر في أن جموع الأحزاب لم تُجدِ كثرتها شيئاً، وأنها قد رجعت خائبةً، بل قوي وضع المسلمين حيث خرج من الساحة إحدى الفئات المعادية، وهي بنو قريظة، وأصبح الصف متماسكاً داخل المدينة نسبياً، ولم يبق ما يعكر الصفو إلا المنافقون، رأى معاوية أنه لا بد من أن هناك قوةً قاهرةً

تتولّى رعاية المسلمين وحمايتهم، فيزداد عددهم، وينتقلون من مرحلة قوةٍ إلى مرحلة أعلى منها. ولكنه لم يُدرك بعد القدرة الإلهية، ولم يُؤمن بها على أنها المسيِّرة للكون، الخالقة، القاضية بما تشاء.

وانتصر المسلمون على بني المصطلق، وفشا فيهم الإسلام، فتوسّعت دياره، وزاد عدد أبنائه، وازدادوا قوّةً.

الحديبيّة:

خرج رسول الله ﷺ، في ذي القعدة من العام السادس من المدينة لزيارة البيت، وخرج ما يقرب من ألف وأربعمائة مسلمٍ، وساقوا معهم الهدي، وأحرموا بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له. غير أن قريشاً قد حالت بين رسول الله ﷺ، وبين هذه الزيارة، ولم تُجد الرسل بأن المسلمين قد جاؤوا للزيارة لا للقتال، فإن الحرب قد أكلت كبد قريشٍ، وأخيراً جرت هدنة بين الطرفين، وفيها أن يعود المسلمون دون عمرة في هذا العام، وأن يأتوا في العام القادم معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب، ويدخلوا مكة، ويبقوا فيها ثلاثة أيامٍ. وأن تكون هدنة بين الطرفين مدة عشرة أعوامٍ، يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعضٍ.

أدرك معاوية أن نجم المسلمين في علوٍ دائم، وأن قريشاً قد اعترفت بهم، وسمحت لهم بدخول مكّة لمدة ثلاثة أيامٍ. وأصبحت الرؤية تتضح عنده تدريجياً، ويجب أن ننظرَ إلى المسلمين من خلال واقعهم لا من خلال أحقاد بعض سادتنا بل وأهلينا لما أصابهم نتيجة تعنّتهم، فإن حقد أمه وأبيه يكاد يأكل كبديهما لما أصابهم يوم بدرٍ، ولذا فإنه لا يستطيع الحديث معهما عن جدوى هذه المعاداة للإسلام.

الفصل الثاني
معاوية في الإسلام

توضّحت الرؤية عند معاوية بعد صلح الحديبية، واستدار العام، وجاء المسلمون ليُؤدّوا العمرة حسب شروط الصلح الذي تمّ بين الفريقين في الحديبية، وهذه العمرة قضاءً عما كانوا قد أهلّوا به في العام الماضي، وحالت قريش بينهم وبين أداء ما أهلّوا به.

دخل المسلمون مكة، وخرج سادتها وبعض أهلها منها، وبقي بعضهم الآخر فكانوا يرقبون المسلمين من بعيدٍ، ويرصدون تصرّفاتهم، فرأوا فيهم النظام، والهدوء والسكينة، ومحبة بعضهم لبعضٍ، وكان أهل مكة يتناقلون هذه الأخبار، وما يرون، وما يسمعون فيما بينهم، فدخل الإيمان إلى قلب معاوية.

عن معاوية أنه قال: لما كان عام الحديبية، وصدّوا رسول الله ﷺ، عن البيت، وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت لأُمي، فقالت: إيّاك أن

تُخالف أباك، فأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله ﷺ من الحديبية وإني مُصدّق به، ودخل مكة عام عمرة القضية، وأنا مسلم، وعلم أبو سفيان بإسلامي، فقال لي يوماً: لكن أخوك خير منك، وهو على ديني، فقلت: لم آل نفسي خيراً، وأظهرت إسلامي يوم الفتح، فرحّب بي النبي ﷺ، وكتبت له[١].

ويبدو أن مُعاوية كان أقرب لأُمّه منه لأبيه، ومع أن أمه كانت حاقدةً على الإسلام والمسلمين كبراً، وحفاظاً على غطرستها، ثم لما أصابها في بدرٍ من قتل أبيها، وعمّها، وأخيها، وابنها إلا أنها كانت تعطف على معاوية وتُعطيه من مال أبيه، أما أبوه فكان حاقداً أيضاً، يقود المشركين لحرب الدعوة والمسلمين، ويريد الحفاظ على مكانته، ويخشى أن تتزعزع منزلته إن بدر من ابنه شيء، وفوق هذا فقد كان بخيلاً على ولده شحيحاً على أهله، شديداً على أبنائه بما يتناسب مع قيادته لقريش، غير أنه غير ذلك مع نسائه، وخاصةً مع هند بنت عتبة أم معاوية دون سواها، لما كانت عليه من جمالٍ، وما بها من أنفةٍ، وما لها من نسبٍ، وربّما أيضاً لأنها كانت

(١) طبقات ابن سعد. تاريخ ابن عساكر. سير أعلام النبلاء.

مكلومةً من يوم بدرٍ. وهذا ما جعل معاوية يُفاتح أمه في إسلامه. ومع أن هذه المفاتحة لأمه قد وقعت عليها كالصاعقة، إلا أن عاطفة الأمومة قد غلبت عليها فأظهرت عدم ثورتها، لكنها هددته بأبيه، وخوفته من بطشه إن عصاه، وأظهر ميله لأعداء والده، فقالت له: إياك أن تُخالف أباك. فأظهر معاوية طاعتها بسكوته وعدم الردّ عليها.

رأى معاوية أن إسلامه لم يتكامل، فلم يُعلن ذلك، ولم يُهاجر إلى رسول الله ﷺ، بل لا يزال يعيش وسط مجتمعٍ مشركٍ، قابعاً في داره لا يستطيع إظهار دينه، ولا أداء ما افتُرض عليه، لذا عاد ففاتح أمه بالهجرة إلى رسول الله ﷺ، بالمدينة، وهنا ثارت الأم، وهددته، وقالت له: إن خرجت قطعنا عنك القوت[1]. فهي التي تمدّه بالمال ليُنفق، وتُعطيه من خلف أبيه ليصرف. وهذا ما جعله يكفّ عن الحديث مع أمه، ويشعر أنه لا يزال في بداية الطريق بل لم يسلكه بعد.

وسار رسول الله ﷺ، لفتح مكة، وفُوجئت قريش بالمسلمين، وكان أبو سفيان بن حربٍ قد خرج يتقصّى

---

(١) الإصابة.

الأخبار، فالتقى بالمسلمين، وأُخذ إلى رسول الله ﷺ، وأسلم، ويبدو أن إسلامه كان نتيجة الخوف أو الأزمة التي وقع فيها، وليس له من أمرٍ يُنجيه سوى الإسلام فأسلم. فقال العباس لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحبّ هذا الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[(١)].

ولما رأى أبو سفيان القبائل المسلمة تمرّ على راياتها، ومرّ رسول الله ﷺ، في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، قال: سبحان الله يا عبّاس، من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ، في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحدٍ بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، فقال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنِعم إذن، قال: النجاء[(٢)] إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة

(١) البداية والنهاية.

(٢) النجاء: السرعة.

فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحَميت[1]، الدسم، الأحمس[2]، قُبّح من طليعة قومٍ، فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنّكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

لما نزل رسول الله ﷺ، بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجنٍ في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففُتحت له فدخلها فوجد فيها حمامةً من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها. ثم سجد سجدتين، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها، ودعا بماءٍ فشرب منها وتوضّأ. ثم وقف على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرةٍ أو دم أو مالٍ يُدّعى فهو موضوع تحت قدميّ هاتين، إلا سدانةَ

(١) الحميت: زق السمن.

(٢) الأحمس: كثير اللحم.

البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغَلَّظة ـ مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها ـ. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾»[1].

ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟». قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ثم جلس رسول الله ﷺ، في المسجد، فقام إليه عليّ بن أبي طالب، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعي له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاءٍ»[2].

ويبدو أن إسلام عددٍ من قريشٍ كان إسلاماً ظاهراً، ومنهم أبو سفيان، ويُروى أن رسول الله ﷺ، دخل الكعبة عام الفتح، ومعه بلال، فأمره أن يُؤذّن، وأبو

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) البداية والنهاية.

سفيان بن حربٍ، وعتّاب بن أُسيدٍ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتّاب: لقد أكرم الله أُسيداً أنَ لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحقّ لاتّبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلّمت لأخبرت عني هذه الحصا، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «لقد علمت الذي قلتم»، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتّاب: نشهد أنك رسول الله، ما اطّلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك[1]. وقد كان أبو سفيان على يقينٍ بنبوة محمدٍ ﷺ، غير أن نفسه لا تُطاوعه على الإيمان بذلك والانقياد والخضوع له.

ويروى أن أبا سفيان بن حربٍ بعد فتح مكة كان جالساً، فقال في نفسه: لو جمعت لمحمدٍ جمعاً، فإنه ليحدّث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه، وقال: «إذن يُخزيك الله» فرفع رأسه، فإذا رسول الله ﷺ، قائم على رأسه، فقال: ما أيقنت أنك نبيّ حتى الساعة[2].

وعن ابن عبّاسٍ أنه قال: رأى أبو سفيان

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

رسول الله ﷺ، يمشي والناس يطئون عقبه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجال القتال، فجاء رسول الله ﷺ، حتى ضرب بيده في صدره، وقال: «إذن يُخزيك الله». فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله ممّا تفوهت به[1].

لما كان ليلة ودخل الناس مكة ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبيرٍ وتهليلٍ وطوافٍ بالبيت حتى أصبحوا، فقال أبو سفيان لهندٍ: أترى هذا من الله؟ قالت: نعم هذا من الله. ثم أصبح أبوسفيان فغدا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «قلتَ لهندٍ: أتري هذا من الله؟ قالت: نعم هذا من الله». فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يُحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هندٍ.

وهكذا أسلم أبو سفيان، وإن يظهر أنه قد بقي للنفس حظّ، ويجول في خاطره أمر، ويسبح الخيال به أحياناً إلى بعيدٍ. وأسلمت هند بنت عتبة، وبايعت، وأما معاوية فهو مسلم من قبل، وقد جاء إلى رسول الله ﷺ، يوم الفتح، فرحّب به، مما يدلّ على حسن إسلامه.

---

(١) البداية والنهاية.

مع رسول الله ﷺ:

أقام رسول الله ﷺ، بمكة ما يقرب من أسبوعين، ثم سمع أن قبيلتي هوازن وثقيف تستعدّان لغزوه بمكة، وقد انضمّت إليهما قبائل أخرى مثل بني سعد بن بكرٍ، قوم حليمة السعدية، مرضعة رسول الله ﷺ، فخرج إليهم قبل أن يُداهموه، سار إليهم باثني عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون ممن خرجوا معه من المدينة لفتح مكة، وكان ممن خرج معه أبو سفيان بن حرب وولداه يزيد، ومعاوية.

كانت هوازن قد سبقت إلى وادي حُنين، وكمنت لهم في مضيق الوادي وبعض أحنائه، وفاجأت المسلمين مع عماية الصبح، وقابلت خيلهم بوابل من النبل فتراجعت الخيل وولّت الأدبار، فُوجئ المسلمون بذلك فأصابهم ذعر شديد، وتفرّقوا من غير نظامٍ، وتقهقروا متراجعين، وثبت رسول الله ﷺ، وعدد من أصحابه معه.

ولما انهزم الناس تكلّم رجال من جفاة الأعراب بما في أنفسهم من الضغائن، فقال أبو سفيان صخر بن حربٍ ـ وكان إسلامه بعد مدخولاً، وكانت الأزلام بعد معه يومئذٍ ـ قال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

ثم ثاب المسلمون إلى رُشدهم، ورجعوا إلى نبيّهم، والتفّوا حوله، وحملوا على الأعداء حملة رجلٍ واحدٍ، فنصرهم الله، وولّى المشركون الأدبار، لا يلوون على شيءٍ، فتركوا أنعامهم ونساءهم وذراريهم فغنمها المسلمون، وجمعت في الجعرانة.

واتّجه المشركون المنهزمون نحو الطائف فتحصّنت فيها جماعة، على حين سارت جماعة أخرى إلى أوطاس. فبعث رسول الله ﷺ، سريةً عليها أبو عامر الأشعري إلى أوطاس فغلب المشركين المتجمعين هناك. وسار رسول الله ﷺ، بمن معه إلى الطائف فحاصرها ما يقرب من شهرٍ، ثم غادرها، وقد فقد أبو سفيان صخر بن حرب عينه أثناء حصار الطائف.

رجع رسول الله ﷺ، من الطائف إلى الجعرانة، فقسم الغنائم بين الناس، فأعطى قوماً ومنع الآخرين، ومن منع كان أحبّ عليه ممن أعطى، أعطى قوماً من المؤلفة قلوبهم، يتألفهم، ووكّل آخرين لإسلامهم. وقد أعطى يومها أبا سفيان صخر بن حرب مائةً من الإبل، وأربعين أوقيةً، وأعطى ابنه معاوية مثل ذلك، وابنه الآخر يزيد مثله. ولم يكن عطاء رسول الله ﷺ، لمعاوية على أنه من المؤلّفة قلوبهم، ولكن كي لا يتميز

في الأسرة الصغيرة الواحدة من يتألّفه عن المسلم، مع إعلان دخولهم بالإسلام في وقتٍ واَحدٍ، ويشعر هذا بغضاضةٍ تبقى تُلاحقه، وذاك بفضلٍ يبقى يحمله، وفي هذا حكمة من رسول الله ﷺ، وربما لا تُوجد أُسرة أُخرى تُشبه أُسرة أبي سفيان صخر بن حربٍ. وقد حَسُن إسلام أبي سفيان، وولده يزيد بعد ذلك ـ والله أعلم ـ.

قال أبو سفيان: يا رسول الله، ثلاثاً أَعطينهنّ، قال: «نعم». قال: تومّرني حتى أُقاتل الكفار كما كنت أُقاتل المسلمين، قال: «نعم». قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم». وذكر الثالثة وهي أنه أراد أن يُزوّج رسول الله ﷺ، بابنته الأخرى ـ عزّة بنت أبي سفيان، واستعان على ذلك بأختها أمّ حبيبة، فقال: «إن ذلك لا يحلّ لي».

وعندما عاد المسلمون بعد قسمة الغنائم في الجعرانة إلى مكة مكثوا فيها قليلاً، ثم انطلق المهاجرون والأنصار إلى المدينة، وبقي أبو سفيان في مكة، ثم سار إلى نجران حيث ولاّه رسول الله ﷺ. أما معاوية فقد انتقل إلى دار الهجرة حيث عمل كاتباً لرسول الله ﷺ.

وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة لستٍّ بقين من ذي القعدة سنة ثمانٍ، وأخذ معاوية بالكتابة

لرسول الله ﷺ، والعمل بذكاءٍ كي يظفر بدعوةٍ له من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عرف يوم رسول الله، عند أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فذهب إلى أخته، وقد رأته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، يستأذن والقلم على أذنه. عن عائشة أنها قالت: لما كان يوم أم حبيبة من النبي ﷺ، دقّ الباب داقّ، فقال النبي ﷺ: «انظروا من هذا؟»، قالوا: مُعاوية. قال: «ائذنوا له» فدخل وعلى أذنه قلم يخطّ به، فقال: «ما هذا القلم على أذنك يا معاوية؟» قال: قلم أعددته لله ولرسوله، فقال له: «جزاك الله عن نبيّك خيراً، والله ما استكتبتك إلا بوحيٍ، وما أفعل من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا بوحيٍ من الله، كيف بك لو قمّصك الله قيمصاً؟» فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه وقالت: يا رسول الله، وإن الله مُقمّصه قميصاً؟ قال: «نعم ولكن فيه هنات وهنات»، فقالت: يا رسول الله فادع الله له، فقال: «اللهم اهده بالهدى، وجنّبه الردى، واغفر له في الآخرة والأولى»[1].

عن العرباض بن سارية السلمّي قال: سمعت

---

(١) رواه الطبراني.

رسول الله ﷺ، يدعونا إلى السحور في شهر رمضان: هلم إلى الغداء المبارك، ثم سمعته يقول: «اللهمّ علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب»[١].

عن مسلمة بن مخلدٍ أنه رأى معاوية يأكل، فقال لعمرو بن العاص: إن ابن عمك هذا لمخضدٍ[٢]، قال: أما إني أقول لك هذا، وقد سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «اللهمّ علّمه الكتاب، ومكّن له في البلاد، وقه العذاب»[٣].

عن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول لمعاوية: «اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهده، واهد به»[٤].

عن أبي أُميّة عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدي يحدّث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبي هريرة، فتبع رسول الله ﷺ، بها ـ وكان أبو هريرة قد اشتكى ـ فبينما هو يُوضئ رسول الله ﷺ، إذ رفع رأسه إليه مرّة أو مرّتين، وهو يتوضّأ، فقال: «يا معاوية إن

---

(١) رواه أحمد.

(٢) مخضد: يأكل كثيراً.

(٣) طبقات ابن سعد.

(٤) رواه أحمد والطبراني.

ولّيت أمراً فاتّق الله واعدل». قال معاوية: فما زلت أظنّ أني سأُبتلى بعملٍ لقول رسول الله ﷺ حتى ابتليت[١].

عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله ﷺ، قد جاء، فقلت: ما جاء إلاّ إليّ، فاختبأت على بابٍ، فجاءني فخطاني خطاةً أو خطاتين، ثم قال: «اذهب فادع لي معاوية» ـ وكان يكتب الوحي ـ قال: فذهبت فدعوته له، فقيل: إنه يأكل، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: إنه يأكل، فقال: «فاذهب فادعه»، فأتيته الثانية، فقيل: إنه يأكل، فأخبرته، فقال في الثالثة: «لا أشبع الله بطنه»، قال: فما شبع بعدها. وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه، فإنه لما صار إلى الشام أميراً، كان يأكل في اليوم سبع مراتٍ، يُجاء بقصعةٍ فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلاتٍ بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئاً كثيراً، ويقول: والله ما أشبع ولكن أعيا، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك. وأما في الآخرة: فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري وغيره من غير وجهٍ، عن جماعةٍ من الصحابة، أن رسول الله ﷺ، قال: «اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته

---

(١) رواه أحمد.

أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلاً، فاجعل ذلك كفارةً وقربةً تُقرّبه بها عندك يوم القيامة»[1].

تُوفّي رسول الله ﷺ، وهو راضٍ عن أبي سفيان وأبنائه. وكان أبو سفيان قد بلغ الثالثة والسبعين من العمر، ومعاوية كاتباً لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مع الصديق:

ارتدّ كثير من الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، وثبت أبو سفيان على إسلامه. وفي مطلع السنة الثالثة عشرة عبّأ الصديق الجيوش إلى الشام.

كان يزيد بن أبي سفيان أول الأمراء الذين ساروا إلى الشام، وكان في جنده أبوه صخر بن حرب، وكان قد بلغ الخامسة والسبعين، وسهيل بن عمرو. وكانت وجهة يزيد دمشق، ومعه سبعة آلافٍ، ثم أمدّه الصديق بأخيه معاوية بجندٍ كثيرٍ، ولما مرّ معاوية بذي المروة[2] أخذ من بقي من جند خالد بن سعيد.

ولما اجتمع المسلمون باليرموك للقاء الروم توفي الصديق، وتولّى الفاروق أمر الخلافة.

---

(١) رواه مسلم، وأحمد، والحاكم في مستدركه.

(٢) ذي المروة: بلدة في وادي القرى.

مع الفاروق:

كانت معركة اليرموك، وكان يزيد بن أبي سفيان على ميسرة المسلمين على مقربةٍ من الضفة اليمنى لنهر اليرموك، وكان تحت رايته أبوه صخر بن حربٍ، وقد فقد عينه يومذاك، وأصبح بعدها كفيفاً، حيث كان قد فقد عينه الأولى في الطائف ـ كما ذكرنا ـ وأخوه معاوية، وكان فتح دمشق بعد اليرموك. فولّى أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان. وسار هو إلى الشمال لفتح حمص وجهات الشمال.

بعث يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق دحية بن خليفة إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى حوران.

لم يكن تقدّم المسلمين في المناطق الساحلية يتماشى مع تقدّمهم في المناطق الداخلية بسبب عدم وجود أسطولٍ بحريٍ لهم. وكان لا بدّ من التحرّك على الساحل. لذا أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان بالتحرّك نحو قيسارية[1]، وتولّي أمرها، وكتب إليه: أما بعد، فقد ولّيتك قيسارية فسر

(١) قيسارية: مدينة على ساحل بلاد الشام بين حيفا ويافا، في منتصف الطريق بينهما.

إليها، واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا فنعم المولى ونعم النصير). فسار إليها، فحاصرها، وقاتل أهلها عدّة مراتٍ، وفي النهاية انتصر عليهم، وقتل منهم ما يقرب من ثمانين ألفاً، وبهذا الفتح العظيم انقطع رجاء الروم بالنصر.

أرسل يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية بن أبي سفيان على مقدمته بناءً على أوامر أبي عبيدة، ففتح المدن الساحلية صور، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وعرقة[1]، وطرابلس.

وغزا معاوية الصائفة عام ٢٢هـ، ودخل بلاد الروم في عشرة آلاف.

وقدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الشام، ووصل إلى الجابية، فنزع شرحبيل، وأمر عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر، وأبقى الشام على أميرين: أبي عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، ثم توفي أبو عبيدة فاستخلف معاذ بن جبلٍ. ومات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، فأقرّه عمر، فكان على دمشق، وبعلبك، والبلقاء.

---

(١) عرقة: مدينة كانت قرب طرابلس الشام، وهي غير موجودة الآن.

ونعى عمر لأبي سفيان يزيد، فقال: احتسب يزيد بن أبي سفيان، قال: من أمّرت مكانه؟ قال: معاوية، فقال: وصلت رحماً يا أمير المؤمنين، فكان معاوية على دمشق، وعمير بن سعد على حمص حتى قتل عمر بن الخطاب.

ذُكر معاوية عند عمر، فقال: دعوا فتى قريشٍ وابن سيّدها، إنه لمن يضحك في الغضب، ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه[(١)].

لما قدم عمر بن الخطاب الشام تلقّاه معاوية في موكبٍ عظيم، فلما دنا من عمر قال له: أنت صاحب الموكب؟ قالَ: نعم يا أمير المؤمنين، قال: هذا حالك مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: هو ما بلغك من ذلك، قال: ولِمَ تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز، قال: يا أمير المؤمنين، إنا بأرضٍ جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن نُظهِر من عزّ السلطان ما يكون فيه عزّ للإسلام وأهله ويرهبهم به، فإن أمرتني فعلت، وإن

(١) البداية والنهاية.

نهيتني انتهيت، فقال له عمر: يا معاوية ما سألتك عن شيءٍ إلا تركتني في مثل رواجب الفرس، لئن كنت ما قلت حقاً، إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً إنه لخديعة أديب. قال: فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت، قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه؟ فقال عمر: لحسن موارده ومصادره جشّمناه ما جشّمناه. وفي روايةٍ: أن معاوية تلقّى عمر حين قدم الشام، ومعاوية في موكبٍ كثيفٍ، فاجتاز بعمر، وهو وعبد الرحمن بن عوفٍ راكبان على حمار، ولم يشعر بهما، فقيل له: إنك جاوزت أمير المؤمنين، فرجع، فلما رأى عمر ترجّل وجعل يقول ما ذكرنا، فقال عبد الرحمن بن عوفٍ ما أحسن ما صدر عما أوردته فيه يا أمير المؤمنين، فقال: من أجل ذلك جشّمناه ما جشّمناه[١].

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد، عن أسلم مولى عمر، قال: قدم علينا معاوية، وهو أبيض بصّ وبّاص[٢]، أبضّ الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه، ثم يضع

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) وبّاص: برّاق اللون.

أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عن مثل الشراك، فيقول: بخٍ بخٍ، نحن إذن خير الناس، أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة. فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأُحدّثك أنا بأرض الحمامات، والريف، والشهوات، فقال عمر: سأُحدّثك ما بك، إلاّ إلطافك نفسك بأطيب الطعام، وتصبّحك حتى تضرب الشمس متنيك، وذوو الحاجات وراء الباب. فقال: يا أمير المؤمنين علّمني أمتثل، قال: فلما جئنا ذا طُوى أخرج معاوية حُلّةً فلبسها، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيبٍ، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجاً مُقِلاًّ، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمةً ـ أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل فيهما على عشيرتي وقومي، فقال: والله لقد بلغني أذاك ها هنا وبالشام. فالله يعلم أني لقد عرفت الحياء فيه، ثم نزع معاوية ثوبيه، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[1].

وعن أبي بكر بن أبي الدنيا، قال: كان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب. وروي أن معاوية دخل على عمر، وعليه حُلّة خضراء، فنظر

---

(١) البداية والنهاية.

إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدِّرَّة فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين، الله الله فيّ، فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لِمَ ضربته يا أمير المؤمنين؟ وما في قومك مثله؟ فقال: والله ما رأيت إلا خيراً، وما بلغني إلا خير، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم، ولكن رأيته ـ وأشار بيده ـ فأحببت أن أضع منه ما شمخ[1].

وروي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: إياكم والفرقة بعدي، فإن فعلتم فإن معاوية بالشام، وستعلمون ـ إذا وكلتم إلى رأيكم ـ كيف يستبزّها دونكم.

وكان معاوية أمير دمشق يحثّ المسملين على الجهاد، ويتقدّمهم، وكان في الشام عدة معسكراتٍ، منها دمشق، وحمص، وقنّسرين، ولكن المسلمين يخرجون منها جميعها لغزو الروم في الصيف والشتاء على حدٍّ سواء كي لا يتركوا فرصةً للروم يستعدّون فيها، وحتى لا يعرفوا الراحة ويبقى الخوف من المسلمين مسيطراً عليهم.

خرج معاوية سنة ثلاثٍ وعشرين على رأس

(١) البداية والنهاية.

صائفةٍ، وتمكّن من دحر الروم أمامه، وتوغّل في بلادهم حتى اقترب من «عمورية» إلى الجنوب من «أنقرة» وعلى مقربةٍ منها، أي أنه توغّل مسافةً طويلةً في عمق العدو، وهذا ما جعل الروم يحسّون بالنهاية، ويتوقّعون قرب زوال دولتهم إن استمرت الأوضاع في سيرها الذي هي فيه، فعملوا على تدارك الوضع ـ حسب رأيهم ـ فجمعوا حشوداً كبيرةً من مختلف الشعوب التي كانت تعيش في ظلّ دولتهم، ومن كل الجهات التي تخضع لسلطانهم، وعملوا على الإحاطة بجند المسلمين الذين يقودهم حبيب بن مسلمة الفهري، ويُجاهد بهم في أرمينيا من جهة الغرب، فطلب النجدة، واستعدّ للمواجهة. ووصلت الأخبار إلى أمير دمشق فكتب إلى أمير المؤمنين في المدينة ما يجري على الساحة الشمالية. غير أن الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان قد طُعن، وانتقل إلى رحمة الله، وبويع عثمان بن عفان، رضي الله عنه، خليفةً.

كان معاوية قد دوّخ الروم في الحرب البرية، غير أن المناطق الساحلية يحاول تجنّب القتال فيها بسبب عدم وجود قوةٍ بحريةٍ للمسلمين تدعم القوات البرية، وتصدّ هجمات الأعداء من قبل البحر، لذا ألحّ أمير دمشق معاوية بن أبي سفيان على أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب، رضي الله عنه، في غزو البحر، فإن الروم على مقربةٍ من حمص، ومما قاله: إن قريةً من قرى حمص ليسمع أهلها نُباح كلابهم، وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر. فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه. فكتب إليه عمرو: إني أرى خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرّق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّةً، والشكّ كثرةً، هم فيه كدودٍ على عودٍ، إن مال غرق، وإن نجا برق.

فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً. وقيل: إن عمر كتب إلى معاوية: إنا سمعنا أن بحر الشام يُشرف على أطول شيءٍ على الأرض، يستأذن الله كل يوم وليلةٍ أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب، وتالله لمسلم أحبّ إليّ مما حوت الروم، فإيّاك أن تُعرّض لي، وقد تقدّمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء مني، ولم أتقدّم إليه في مثل ذلك.

مع ذي النورين:

تابع الفتح الإسلامي سيره في عهد ذي النورين

عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وعاد معاوية يستأذن عثمان في غزو البحر، ولم يزل به حتى عزم عثمان على ذلك بأخرةٍ، وقال: لا تنتخب الناس، ولا تُقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو في البحر طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثي، حليف بني فزارة.

غزا معاوية قبرص في سنة ثمانٍ وعشرينٍ، وغزاها أهل مصر، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، حتى لقوا معاوية فكان على الناس، وصالح أهلها على سبعة آلاف دينارٍ يُؤدّونها إلى المسلمين في كل سنةٍ، ويُؤدّون إلى الروم مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبني ذلك، على أن لا يغزوهم، ولا يُقاتلوا من وراءهم ممن أرادهم من خلفهم، وعليهم أن يُؤذنوا المسلمين بمسير عدوّهم من الروم إليهم، وعلى أن يُبطرق إمام المسلمين عليهم منهم[١].

وقال الواقدي: وفي العهد الذي بينه وبينهم ألا يتزوّجوا في عدوّنا من الروم إلا بإذننا[٢].

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وكان في غزو قبرص من صحابة رسول الله ﷺ: عبادة بن الصامت، ومعه زوجه أم حرام، والمقداد بن عمرو، وشدّاد بن أوسٍ، وأبو ذر الغفاريّ.

وكانت معركة «ذات الصواري» البحرية، الشهيرة سنة إحدى وثلاثين، فخرج أهل الشام وعليهم أميرهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرحٍ من مصر. وكانت بالقرب من شواطئ كيليكيا جنوب بلاد الأناضول على مقربةٍ من بلاد الشام. وانتصر المسلمون على الروم انتصاراً عظيماً. فلم ينجُ من الروم إلا الشريد.

وفي هذه السنة توفي أبو سفيان والد معاوية.

وغزا معاوية المضيق «مضيق القسطنطينية» سنة اثنتين وثلاثين. وغزا في السنة التي تلتها «حصن المرأة» من أرض الروم من ناحية «ملاطية».

جمع عثمان لمعاوية الشام فأصبحت ولايةً واحدةً.

وعندما بدأت الفتنة جمع عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أمراء الأجناد: معاوية بن أبي سفيان، سعيد بن العاص، عبد الله بن عامرٍ، عبد الله بن سعد بن أبي سرحٍ، عمرو بن العاص، وقال لهم: أشيروا عليّ فإن الناس قد تنمّروا لي. فقال معاوية: أُشير

عليك أن تأمر أمراء أجنادك فيكفيك كل رجلٍ منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام.

ولما ودّع معاوية عثمان وخرج آيباً إلى الشام، قال له: يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا. فقال عثمان: لا أبيع جوار رسول الله ﷺ، بشيءٍ، وإن كان فيه قطع خيط عنقي، قال: فأبعث إليك جنداً منهم يُقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبةٍ إن نابت المدينة أو إيّاك، قال: أنا أُقتِّر على جيران رسول الله ﷺ، الأرزاق بجندٍ تُساكنهم، وأُضيّق على أهل دار الهجرة والنصرة، قال: والله يا أمير المؤمنين لتُغتالنّ أو لتُغزينّ، قال: حسبي الله ونعم الوكيل.

وعندما حوصر عثمان في داره كتب إلى الأمصار يستمدّهم، فما أن وصل كتاب أمير المؤمنين إلى الأمصار حتى خرجوا على الصعب والذلول فبعث أمير الشام معاوية بن أبي سفيان القائد حبيب بن مسلمة الفهريّ، وبعث أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح القائد مُعاوية بن حُديج السكونيّ، وخرج من الكوفةَ القعقاع بن عمرو التميميّ، وخرج من البصرة مُجاشع السلميّ.

وصل جند الشام إلى وادي القرى، وهناك بلغهم مقتل أمير المؤمنين فرجعوا، وظنّوا أن مهمتهم قد انتهت، وهذا أيضاً موقف جند الأمصار الأخرى، وهذه القرارات بالعودة كانت خاطئةً سواء اتّخذها قادة جند الأمصار، أم الولاة، فالأمر واحد، وذلك لأن هؤلاء الجند الذين قدموا لنصرة الخليفة، وقد أصبحوا تبعاً له، وحسب أوامره، فلما قُتل فهم تبعاً لأمير المؤمنين الجديد، يدعمونه، ويتلقّون الأمر منه، فلو فعلوا ذلك لكانوا سنداً له ضدّ المنحرفين الذين قتلوا الخليفة السابق، وتحكّموا بأمور المدينة.

مع رابع الخلفاء الراشدين، عليّ بن أبي طالبٍ:

أراد أمير المؤمنين عليّ، رضي الله عنه، توطيد أركان الحكم قبل كل شيءٍ بإخراج المنحرفين من المدينة، ولا يخرجون إلا إذا أمنوا ولاتهم في الأمصار، وهذا يقتضي تغيير الولاة، وهذا أمر كان يعمل له المنحرفون، لذا فقد أرسل ولاةً جدداً إلى الأمصار، فبعث سهل بن حنيفٍ إلى الشام مكان مُعاوية بن أبي سفيان، غير أن خيل مُعاوية ردّته من أطراف الشام بأمرٍ أو باجتهادٍ منها. وبعث إلى البصرة عثمان بن حنيفٍ فدخلها، وارتحل عنها واليها السابق عبد الله بن عامرٍ

مُتّجهاً إلى مكة، وأخذ عثمان بن حنيفٍ البيعة لأمير المؤمنين عليٍّ. وأقرّ على الكوفة أبا موسى الأشعريّ، وكان قد تولّى أمرها منذ مدةٍ وجيزةٍ، وكان المنحرفون قد طالبوا به، وهذا الإقرار يدلّ عَلى خطّة عليٍّ، وما ينوي عمله، وقد بعث أبو موسى ببيعته وبيعة أهل ولايته. وأرسل أمير المؤمنين إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة فدخلها، وأخذ البيعة للخليفة. وأرسل إلى اليمن عبيد الله بن عباسٍ، فدخلها، وأخذ البيعة لابن عمه. وبعث إلى مكة خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزوميّ، ولكن رفضت إمارته، وبقيت مكة دون والٍ. وهكذا بايعت الأمصار كلها باستثناء الشام التي بقي يُدير أمورها واليها السابق معاوية بن أبي سفيان، إذ لم يبعث ببيعته. وأرسل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ إلى مُعاوية يطلب منه البيعة غير أنه تأخّر بالجواب، ينتظر ما تؤول إليه الأمور، وما يكون من شأن المنحرفين الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان بن عفان الخليفة السابق، ولا يزالون يفرضون آراءهم أحياناً على أهل المدينة. غير أن هذا التأخير وإن كان اجتهاداً إلا أنه كان له أثره الخطير على الأمة كلها.

قرّر عليّ السير إلى الشام رغم نصح بعض الناصحين بإبقاء معاوية أميراً على الشام، وتولية

طلحة بن عبيد الله على البصرة، والزبير بن العوام على الكوفة ريثما تهدأ الأحوال، غير أن عليّاً لم يقبل. واستشار عليّ ابن عمه عبد الله بن عبّاسٍ في موضوع السير إلى الشام فأشار عليه عدم المسير. وحثّ عليّ الناس بالنهوض إلى الشام فرأى توانياً فلم يُجبر أحداً، بل نهض، وسار مع من نهض، ودفع باللواء إلى ابنه محمد الأكبر «ابن الحنفية»، ووجّه عبد الله بن عبّاسٍ إلى الميمنة، وعمر بن أبي سلمة إلى الميسرة وأبا ليلى بن عمر بن الجرّاح إلى المقدمة، وهو ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح. وولّى قثم بن العباس على المدينة، وكتب إلى عُمّاله على الأمصار بالنهوض إلى قتال أهل الفرقة، ولم يولّ أحداً من المنحرفين رغم إمكانات بعضهم. ثم بعث قُثم بن العباس إلى مكة، وولّى مكانه على المدينة سهل بن حنيفٍ.

وبينما كان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ يستعدّ للسير إلى الشام إذ يسمع بخبر من سار من مكة إلى البصرة، فاضطر أن يُغيّر خط سيره، فخرج إلى الربذة يريد أن يحول دون انطلاقهم إلى البصرة إلا أنهم قد فاتوه، فتبعهم، ووصل إلى «ذي قار» فوقف ينتظر وصول جند الأمصار. ونصح عليّاً بعض الناصحين بأن

لا يخرج من المدينة، فإن خرج منها فلن يعود إليها، وطلبوا منه أن يُرسل من نهض، ويمكث هو في دار الهجرة، ولكنه أصرّ إلا أن يكون على رأس الناهضين. جاء إلى أمير المؤمنين عليّ في «ذي قار» بعض الجند من الكوفة. وصل الركب المكي مع طلحة والزبير، وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة، وحدثت خلافات، وجرت معركة الجمل.

أما في الشام فإن مُعاوية قد خَبِرَ أهلها وخَبِرُوه، وأخذهم بأسلوبه فأحبّوه، ولان لهم فأطاعوه، وحزمهم فانقادوا له، ولم يُريدوا غيره، فعندما قام المنحرفون من الأمصار، وساروا إلى دار الهجرة، وقتلوا الخليفة مظلوماً وتسلّطوا، وخرج النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، إلى الشام، ومعه قميص عثمان الملطّخ بالدماء، وفيه أصابع زوجه نائلة بنت الفرافصة مُقطّعة، وعرضه على الناس فثار أهل الشام وبكوا أولاً لقتل الخليفة مظلوماً، وهو شيخ طاعن في السنّ، وكان قتله بيد طغمةٍ حاقدةٍ، وثانياً لأنه لم يستطع أحد بعد ذلك أن يُحرّك ساكناً، بل إن هؤلاء الرعاع قد سيطروا على دار الهجرة وتسلّطوا.

ووصلت الأخبار إلى الشام أن البيعة قد تمّت لعليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، بضغطٍ عليه من

المنحرفين، كما كان الضغط على الصحابة الآخرين، وعلى أهل المدينة عامةً. وأن عدداً من الصحابة من أهل الرأي لم يُبايعوا أمثال سعد بن أبي وقّاصٍ، وأسامة بن زيدٍ، ومحمد بن مسلمة، وحسّان بن ثابتٍ، وزيد بن ثابتٍ، وكعب بن مالكٍ، وأن طلحة والزبير لم يُعطيا البيعة إلاّ مكرهين، ثم تركا دار الهجرة مُغاضبين. وأن أمير المؤمنين عليّاً لم يقبض على زمام الأمر بالحزم المعروف عنه، ولم يستطع أن يقبض على قتلة عثمان، ويُقيم عليهم الحدّ، بل لا يزالون يتحكّمون في أمر المدينة، هكذا وصلت الأخبار إلى الشام، وهذا ما علمه معاوية أمير البلاد، وهذا ما عرفه أهل الشام، وإن كانت هذه الأخبار صحيحةً إلى حدّ؛ إلا أن روايتها كانت بأسلوبٍ يجعل معاوية يرى التريث بإرسال البيعة إضافةً إلى ما يجد في نفسه، وما يراه في المجتمع من حزنٍ على الخليفة المقتول ظُلماً في دار الهجرة بين إخوانه من صحابة رسول الله ﷺ.

وتتوالى الأخبار إلى الشام بأن عدداً من رجالات الأمة قد التجؤوا إلى مكة، واجتمعوا فيها، يعتزلون الفتنة أو يعترضون على تصرفات المنحرفين في دار الهجرة، أولا يرون إعطاء البيعة لعلي الآن، وفي مثل هذه

الظروف، وإن كانوا لا يعترضون على مبايعته حيث يعرفون فضله ومكانته، ويعرفون علمه، ويُقرّون بأهليته للخلافة.

ووقعت معركة الجمل، وأسف المسلمون لما تمّ، وهذا ما جعل أمير الشام مُعاوية بن أبي سفيان يتوانى في إعطاء البيعة للخليفة الجديد عليّ بن أبي طالبٍ، أو هكذا الأحداث صوّرت له الوضع، وهذا ما رآه ورآه معه عدد من الناس، ويُعدّ اجتهاداً، ولكن هو أمير على إقليمٍ عليه أن يُبايع على ما بايع عليه الناس، وأجمعت عليهِ الأمة، وعليه أن يُؤيّد الخليفة، ويدعمه، وينصحه، وما عليه مما يحدث، فالخليفة هو المسؤول أمام الله، وأمراء الأمصار يقفون إلى جانب الخليفة ويمدّونه.

أما أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ فيرى أن أمير الشام وغيره من أمراء الأمصار، إن هم إلاّ عمالاً للخليفة الذي يمثّل الأمة فإن طلب من أميرٍ ترك الولاية تخلّى، وإن طلب منه الاستمرار تابع، فهو في هذا الأمر تبع وليس بمجتهدٍ، وليس على الوالي إلاّ أن يُبايع هو وأهل مصره إذا بايع أهل دار الهجرة ومن فيها من أهل الحلّ والعقد، وقد بايعوا، وبايع أهل الأمصار وأمراؤهم،

فلماذا هذا التواني والتأخير؟ فهل أصبح أمير الشام من أهل الشورى ليؤخذ رأيه في البيعة؟ وقد عزله الخليفة وما عليه إلا الامتثال والطاعة، هذه هي نظرة عليٍّ لمعاوية، وهي نظرة صحيحة، أما بالنسبة إلى الأوضاع القائمة فيرى أنها غير مستقرةٍ، والمنحرفون لا يزالون في المدينة، وهذا موضوع حرج وخطير، وحلّه والإنتهاء منه لا يكون إلا بالانتهاء من موضوع البيعة، وطمأنينة الناس، ومتى تمّ هذا يستطيع الخليفة صرف المنحرفين إلى أمصارهم، فيتوزّع أمرهم، ويضعف شأنهم، وعندها يقتصّ منهم، وتُقام عليهم الحدود، أما الآن فإن لهم قوّة في تجمّعهم، ويتمكّنون من دار الهجرة لذا يصعب القصاص منهم، وهو اجتهاد في محلّه، وقد وُفّق صاحبه، ويُؤجر عليه - إن شاء الله -. ولم يقبل أمير المؤمنين عليّ من أمير الشام مُعاوية التصرّف الذي يقوم به، إذ ليس عليه سوى تنفيذ أوامر الخليفة ما دامت لا تُخالف الشرع. وكان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ لا يعرف إلا الشدّة بالحق، ولا يعمل إلا بالحزم، واللين عنده نوع من الضعف لذا قرّر التعبئة والنهوض إلى الشام.

وصل أمير المؤمنين إلى الكوفة في نهاية شهر

رجب سنة ستٍّ وثلاثين ومكث فيها أربعة أشهرٍ استعدّ خلالها للقتال، ولم يكن يرفق بنفسه ولا بأصحابه.

أرسل أمير المؤمنين إلى الشام جرير بن عبد الله البجليّ ليطلب من مُعاوية أن يُبايع، وكتب معه كتاباً إلى معاوية يذكر فيه: أنه قد لزمته بيعته لأنه قد بايعه المهاجرون والأنصار، فإن لم تُبايع استعنت بالله عليك وقاتلتك، وقد أكثرت القول في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله. . . . . . فقرأه مُعاوية على الناس، وقام جرير فخطب الناس، وأمر في خُطبته مُعاوية بالسمع والطاعة، وحذّره من المخالفة والمعاندة، ونهاه عن إيقاع الفتنة بين الناس، وأن يضرب بعضهم بعضاً بالسيوف. فقال مُعاوية: انتظر حتى آخذ رأي أهل الشام. أمر مُعاوية مُنادياً فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس، صعد المنبر، فخطب فقال: الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً، والشرائع للإيمان برهاناً، يتوقّد مصباحه بالسنة في الأرض المقدّسة التي جعلها الله محلّ الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلّها أهل الشام، ورضيهم لها، ورضيها لهم، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم أولياءه فيها، والقوام بأمره

الذابّين عن دينه وحرماته، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً، وفي أعلام الخير عظاماً، يردع الله بهم الناكثين، ويجمع بهم الإلفة بين المؤمنين، والله نستعين على إصلاح ما تشعث من أُمور المسلمين، وتباعد بينهم بعد القرب والإلفة، اللهم انصرنا على قوم يُوقظون نائماً، ويُخيفون آمناً، ويُريدون هراقة دمائنا، وإخافة سبلنا، وقد يعلم الله أنا لا نريد لهم عقاباً، ولا نهتك لهم حجاباً، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جاوب الصدى، وسقط الندى، وعرف الهدى، وقد علمنا أن الذي حملهم على خلافنا ـ البغي والحسد لنا ـ فالله نستعين عليهم. أيها الناس قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأني خليفة أمير المؤمنين عثمان عليكم، وأني لم أقم رجلاً منكم على خزائنه قطّ، وإني وليّ عثمان وابن عمه، قال تعالى في كتابه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[1]، وقد علمتم أنه قتل مظلوماً، وأنا أُحبّ أن تُعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان.

فقال أهل الشام بأجمعهم: بل نطلب بدمه،

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٣.

فأجابوه إلى ذلك، وبايعوه، ووثقوا له أن يبذلوا في ذلك أنفسهم وأموالهم، أو يُدركوا بثأره، أو يُفني الله أرواحهم قبل ذلك. فلما رأى جرير من طاعة أهل الشام لمعاوية ما رأى أفزعه ذلك وعجب منه. فقال معاوية لجرير: إن ولّاني على الشام ومصر بايعته، على أن لا يكون لأحد بعده عليّ بيعة، فقال: اكتب إلى عليٍّ بما شئت، وأنا أكتب معك. فلما بلغ علياً الكتاب قال: هذه خديعة، وقد سألني المغيرة بن شعبة أن أُولي معاوية الشام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1]، ثم كتب إلى جرير بالقدوم عليه، فما قدم إلا وقد اجتمعت العساكر إلى عليٍّ، وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص ـ وكان معتزلاً بفلسطين حين قتل عثمان ـ وكان عثمان قد عزله عن مصر فاعتزل بفلسطين، فكتب إليه مُعاوية يستدعيه ليستشيره في أموره، فركب إليه فاجتمعا على حرب عليٍّ.

وقد قال الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط[2] في كتاب مُعاوية إلى عليٍّ حين سأله نيابة الشام ومصر، فكتب إلى

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥١.

(٢) ورد في البداية والنهاية أن القائل عقبة بن أبي معيط، وهذا خطأ لأن عقبة قتل يوم بدر كافراً.

مُعاوية يُؤنّبه ويلومه على ذلك، ويُعرّض بأشياء فيه:

معاوي إن الشام شامك فاعتصم
بشامك لا تدخل عليك الأفاعيا
وحام عليها بالقتال وبالقنا
ولاتك مخشوش الذراعين وانيا
فإن علياً ناظر ما تُجيبه
فأهد له حرباً تُشيب النواصيا
وإلا فسلم إن في الأمن راحة
لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
وإن كتاباً يا ابن حربٍ كتبته
على طمع جانٍ عليك الدواهيا
سألت علياً فيه ما لا تناله
ولو نلته لم يبق إلا لياليا
إلى أن ترى منه التي ليس بعدها
بقاء فلا تكثر عليك الأمانيا
ومثل عليٍّ تغترره بخدعةٍ وقد
كان ما خربت من قبل بانيا
ولو نشبت أظفاره فيك مرّةً
فراك ابن هندٍ بعدما كنت فاريا

وروي أن أبا مسلم الخولاني وجماعةً معه دخلوا

على معاوية فقالوا له: أنت تُنازع عليّاً أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحقّ بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه وأمره إليّ؟ فقولوا له: فليُسلم إليّ قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره. فأتوا عليّاً فكلّموه في ذلك فلم يدفع إليهم أحداً، فعند ذلك صمّم أهل الشام على القتال مع معاوية. وعن عمرو بن شمر بن جابر الجعفي عن عامر الشعبي وأبي جعفر الباقر قال: بعث عليّ رجلاً إلى دمشق يُنذرهم أن عليّاً قد نهد في أهل العراق إليكم ليستعلم طاعتكم لمعاوية، فلما قدم، أمر مُعاوية فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فملؤوا المسجد، ثم صعد المنبر فقال في خطبته: إن عليّاً قد نهد إليكم في أهل العراق فما الرأي؟ فضرب كل منهم على صدره، ولم يتكلّم أحد منهم، ولا رفعوا إليه أبصارهم، وقام ذو الكلاع[1] فقال: يا أمير المؤمنين عليك الرأي وعلينا الفعال، ثم نادى مُعاوية في الناس: أن اخرجوا إلى مُعسكركم في ثلاثٍ، فمن تخلّف بعدها فقد أحل بنفسه، فاجتمعوا كلهم. فركب ذلك الرجل إلى

---

(١) ذو الكلاع: هو يزيد بن النعمان من أذواء اليمن، ولكن لم يكن يخاطب معاوية بأمير المؤمنين.

عليٌّ فأخبره، فأمر عليّ مُنادياً، فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصعد المنبر فقال: إن الناس قد جمعوا الناس لحربكم، فما الرأي؟ فقال كل فريقٍ منهم مقالةً، واختلط الكلام بعضهم في بعضٍ، فلم يدر عليّ مما قالوا شيئاً، فنزل عن المنبر، وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذهب والله بها ابن آكلة الأكباد[1].

صِفّين:

لما فرغ عليّ، رضي الله عنه، من معركة الجمل دخل البصرة، وشيّع أُمّ المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، لما أرادت الرجوع إلى مكة، ثم سار هو من البصرة إلى الكوفة، واستخلف عبد الله بن عباسٍ على البصرة، ودخل الكوفة لثنتي عشرة ليلةً خلت من رجب سنة ستٍّ وثلاثين.

وخرج عليّ، رضي الله عنه، من الكوفة عازماً المسير إلى الشام، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدريّ الأنصاريّ، وعسكر، رضي الله عنه، بالنُّخيلة، وكان قد أشار عليه جماعة بأن يُقيم بالكوفة ويبعث الجنود، وأشار آخرون أن يخرج فيهم

(١) البداية والنهاية.

بنفسه، فأبى إلا المباشرة، فجهّز الناس. فبلغ ذلك مُعاوية فدعا عمرو بن العاص فاستشاره. فقال: أما إذا بلغك أنه يسير فَسِرْ بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك. قال: أما إذن يا أبا عبد الله فجهزّ الناس. فجاء عمرو فحضّ الناس وضعَّف عليّاً وأصحابه، وقال: إن أهل العراق قد فرّقوا جمعهم، وأوهنوا شوكتهم، وفلّوا حدّهم. ثم إن أهل البصرة مُخالفون لعليٍّ، قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شرذمةٍ قليلةٍ، ومنهم من قتل خليفتكم، فالله في حقكم أن تُضيّعوه، وفي دمكم أن تُطلّوه.

كتب معاوية في أجناد أهل الشام، وعقد لواءه لعمرو. وبعث الوليد بن عقبة إلى معاوية يقول:

ألا أبـلـغ مُـعـاويـة بـن حـربٍ
فـإنـك مـن أخـي ثـقـةٍ مـلـيـم
قطعت الدهر كالسدم المعنّى
تُـهـدّر فـي دمـشـق فـمـا تـريـم
وإنـك والـكـتـاب إلـى عـلـيٍّ
كـدابـغـةٍ وقـد حـلـم الأديـم
يُـمـنّـيـك الإمـارة كـلّ ركـبٍ
لأنـقـاض الـعـراق بـهـا رسـيـم

وليس أخو التراث بمن توانى
ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيّاً
لجرّد، لا ألفّ ولا سؤوم
ولا نكلّ عن الأوتار حتى
يُبيء بها، ولا بَرِمٌ جثوم
وقومك بالمدينة قد أُبيروا
فهم صرعى كأنّهمُ الهشيم(١)

أرسل عليّ مقدمةً له عليها زياد بن النضر الحارثي وشُريح بن هانئٍ، فالتقيا بعد أن عبروا الفرات التقوا بأبي الأعور السلميّ عمرو بن سفيان في جندٍ من أهل الشام. فأرسلا إلى عليٍّ: إنا قد لقينا أبا الأعور السلميّ في جند من أهل الشام، وقد دعوناهم فلم يُجبنا منهم أحد، فمرنا بأمرك، فأرسل عليّ إلى الأشتر، فقال: يا مالك، إن زياداً وشُريحاً أرسلا إليّ يُعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلميّ في جمعٍ من أهل الشام، وأنبأني الرسول أنه تركهم مُتواقفين، فالنجاء إلى أصحابك النجاء، فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتالٍ إلا

(١) تاريخ الطبري.

أن يبدؤوك، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع، ولا يجرمنّك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم مرّةً بعد مرّةٍ، واجعل على ميمنتك زياداً، وعل ميسرتك شُريحاً، وقف من أصحابك وسطاً، ولا تدنُ منهم دنو من يريد أن يُنشب الحرب، ولا تُباعد منهم بُعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك، فإني حثيث السير في أثرك - إن شاء الله -. وكتب عليّ إلى زيادٍ وشُريحٍ: أما بعد، فإني قد أمّرت عليكما مالكاً، فاسمعا له وأطيعا، فإنه ممن لا يُخاف رهقه، ولا سِقاطه، ولا بُطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا الإسراع إلى ما الإبطاء عنه أمثل، وقد أمرته بمثل الذي كنت أمرتكما به، ألا يبدأ القوم حتى يلقاهم فيدعوهم، ويُعذر إليهم.

وخرج الأشتر حتى قدم على القوم، فاتّبع ما أمره عليّ وكفّ عن القتال، فلم يزالوا مُتواقفين حتى إذا كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السلمي فثبتوا له، واضطربوا ساعةً. ثم إن أهل الشام انصرفوا، ثم خرج عليهم من الغد هاشم بن عتبة الزهريّ في خيلٍ ورجالٍ حسن عددها وعدّتها، وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال، وصبر القوم بعضهم لبعضٍ، ثم انصرفوا،

وحمل عليهم الأشتر ودعا أبا الأعور السلمي للمبارزة فأبى أبو الأعور، وحجز الليل بينهم، وباتوا متحارسين. فلما كان صباح اليوم الثالث أقبل عليّ، رضي الله عنه، في جيوشه، وجاء معاوية، رضي الله عنه، في جنوده، فتواجه الفريقان، وتقابل الطرفان، فتواقفوا طويلاً، وذلك في أوائل ذي الحجة، ثم عدل عليّ، رضي الله عنه، فارتاد لجيشه منزلاً، وقد كان معاوية سبق بجيشه فنزلوا على مشرعة الماء في أسهل موضع وأفسحه، فلما نزل عليّ نزل بعيداً عن الماء، وجاء أهل العراق ليردوا الماء فمنعهم أهل الشام، فوقع بينهم مُقاتلة بسبب ذلك، وقد كان مُعاوية قد وكّل على الشريعة أبا الأعور السلميّ، وليس هناك مشرعة سواها. فعطش أصحاب عليٍّ عطشاً شديداً، فبعث عليّ الأشعث بن قيس الكنديّ في جماعةٍ ليصلوا إلى الماء، فمنعهم أولئك وقالوا: موتوا عطشاً، كما منعتم عثمان الماء، فتراموا بالنبل ساعةً، ثم تطاعنوا بالرماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك كله، وأمدّ كل طائفةٍ أهلها، حتى جاء الأشتر النخعيّ من ناحية العراقيين، وعمرو بن العاص من ناحية الشاميين، واشتدت الحرب بينهم أكثر مما كانت.

ثم ما زال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم عنه، وحلّوا بينهم وبينه، ثم اصطلحوا

على الورود حتى صاروا يزدحمون على تلك الشريعة، لا يكلم أحد أحداً، ولا يُؤذي إنسان إنساناً. وفي روايةٍ أن مُعاوية لما أمر أبا الأعور بحفظ الشريعة وقف دونها برماحٍ مُشرعةٍ وسيوفٍ مُسلّلةٍ، وسهام مُفَوقةٍ، وقسيٍّ موترةٍ، فجاء أصحاب عليٍّ عليّاً فشكوا إليه ذلك، فبعث صعصعة بن صوحان إلى مُعاوية يقول له: إنا جئنا كافّين عن قتالكم حتى نُقيم عليكم الحجّة، فبعثت إلينا مقدمتك فقاتلتنا قبل أن نبدأكم، ثم هذه أخرى قد منعونا الماء، فلما بلغه ذلك قال مُعاوية للقوم: ماذا يريدون؟ فقال عمرو: خلّ بينهم وبينه، فليس من النَّصف أن نكون ريّانين وهم عطاش، وقال الوليد: دعهم يذوقوا من العطش ما أذاقوا أمير المؤمنن عثمان حين حصروه في داره، ومنعوه طيب الماء والطعام أربعين صباحاً، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح: امنعهم الماء إلى الليل فلعلهم يرجعون إلى بلادهم، فسكت مُعاوية، فقال له صعصعة بن صُوحان: ماذا جوابك؟ فقال: سيأتيك رأيي بعد هذا. فلما رجع صعصعة فأخبر الخبر، ركب الخيل والرجال، فما زالوا حتى أزاحوهم عن الماء ووردوه قَهراً. ثم اصطلحوا فيما بينهم على ورود الماء، ولا يمنع أحد أحداً منه.

وأقام عليّ يومين لا يُكاتب مُعاوية ولا مُعاوية يُكاتبه، ثم دعا عليّ، بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشَبَث بن ربعيّ التميمي، فقال: ايتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الطاعة والجماعة، فقال له شبث بن ربعيّ: يا أمير المؤمنين، ألا تطمعه في سلطان تُولّيه إياه، ومنزلة يكون له بها أثرة عندك إن هو بايعك؟ فقال عليّ: ائتوه فالقوه واحتجّوا عليه، وانظروا ما رأيه ـ وهذا في أول ذي الحجة ـ. فأتوه فدخلوا عليه، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال أبو عمرة بشير بن عمرو: يا مُعاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، والله مُحاسبك بعملك، ومُجازيك بما قدّمت يداك، وإني أَنْشُدُكَ الله أن لا تُفرّق جماعة هذه الأمة، وأن لا تسفك دماءها بينها. فقال له معاوية: هلا أوصيت بذلك صاحبكم؟ فقال له: إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر، في فضله ودينه وسابقته وقرابته، وإنه يدعوك إلى مبايعته، فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في آخرتك. فقال معاوية: ويُطلّ دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً. ثم أراد سعيد بن قيس الهمداني أن يتكلم، فبدره شَبَث بن ربعيّ فتكلّم قبله، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: (يا معاوية، إني قد فهمت ما رددت على ابن محصنٍ، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب،

إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس، وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: «قُتل إمامكم مظلوماً ونحن نطلب بدمه»، فاستجاب و. . .) وكان في كلامه غلظة وجفاء بحق معاوية، فزجره معاوية وزبره في افتياته على من هو أشرف منه، وكلامه بما لا علم له به، ثم أمر بهم فأخرجوا من بين يديه. وصمم على القيام بطلب دم عثمان الذي قتل مظلوماً.

عند ذلك نشبت الحرب بينهم، وأمر عليّ بالطلائع والأمراء أن تتقدّم الحرب، وكان من قادة عليٍّ: الأشتر النخعيّ، وحُجر بن عديّ، وشَبَث بن ربعيّ، وخالد بن المعمر، وزياد بن النضر، وزياد بن خصفة، وسعيد بن قيس، ومعقل بن قيس، وقيس بن سعد بن عبادة.

وكان من قادة معاوية: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وحبيب بن مسلمة الفهري، وأبو الأعور السلمي، وذو الكلاع الحميري، وشرحبيل بن السمط، وحمزة بن مالك الهمداني، وربما اقتتل الناس في اليوم مرتين، وذلك في شهر ذي الحجة كله. وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عباسٍ عن أمر عليٍّ له بذلك.

فلما انسلخ شهر ذي الحجة ودخل المحرم تداعى

الناس للمتاركة لعلّ الله أن يُصلح بينهم على أمرٍ يكون فيه حقن دمائهم.

بعث عليّ إلى معاوية عدي بن حاتمٍ، ويزيد بن قيس الأرحبي، وشَبَث بن ربعيّ، وزياد بنَ خَصفَة فلما دخلوا عليه ـ وعمرو بن العاص إلى جانبه ـ قال عدي بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد، يا معاوية فإنا جئناك ندعوك إلى أمرٍ يجمع الله به كلمتنا وأمرنا، وتُحقن به الدماء، ويأمن به السبل، ويصلح به ذات البين، إن ابن عمك سيّد المسلمين أفضلها سابقةً، وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك من شيعتك، فانته يا معاوية لا يُصبك الله وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال له معاوية: كأنك إنما جئت مُهدّداً، ولم تأت مُصلحاً، هيهات والله يا عدي، كلا والله إني لابن حربٍ، لا يُقعقع لي بالشنان، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان؟ وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به، هيهات يا عدي بن حاتمٍ، وقد حلبت بالساعد الأشدّ.

وتكلم شَبَث بن ربعيّ وزياد بن خصفة ـ وتنازعا جواباً واحداً ـ فذكرا من فضل عليٍّ، وقالا: اتق الله يا

معاوية ولا تُخالفه، فإنا والله ما رأينا رجلاً قطّ أعمل بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه. أتيناك فيما يُصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينتفع به من القول والفعل، وأجبنا فيما يعمّنا وإياك نفعه.

وتكلم يزيد بن قيس فقال: إنا لم نأتك إلا لنُبلّغك ما بُعثنا به إليك، ولنُؤدّي عنك ما سمعنا منك، ونحن على ذلك لا ندع أن ننصح لك، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجّة، وأنك راجع به إلى الأُلفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك، إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليٍّ، ولن يُميّلوا بينك وبينه، واتق الله يا معاوية، ولا تخالف عليّاً، فإنا والله ما رأينا رجلاً قطّ أعمل بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فحمد اللَّهَ معاوية وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردّ ذلك عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب

صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نُجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شَبَث: أيسرّك يا معاوية أنك أُمْكِنْتَ من عمّارٍ تقتله! فقال مُعاوية: وما يمنعني من ذلك، والله لو أُمكنت من ابن سُميّة ما قتلته بعثمان، ولكن كنت قاتله بـ «ناتل» مولى عثمان. فقال له شَبَث: وإله الأرض وإله السماء، ما عدلت معتدلاً، لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام من كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برُحْبها. فقال له معاوية: إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق. وخرج القوم من بين يديه، فذهبوا إلى عليٍّ فأخبروه بما قال.

وبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهريّ، وشرحبيل بن السِّمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس إلى عليٍّ فدخلوا عليه. فبدأ حبيب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن عثمان كان خليفةً مهدياً، عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله، فاستثقلتم حياته، واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلته ـ إن زعمت أنك لم تقتله ـ ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم، فيولّي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم. فقال عليّ: وما أنت لا أم لك، وهذا الأمر وهذا

العزل، فاسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك. فقال له حبيب: أما والله لترينّي حيث تكره، فقال له عليّ: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك، لا أبقى الله عليك إن أبقيت عليّ، اذهب فصعِّد وصوِّب ما بدا لك[1].

وبقيت المراسلة والوفود بين الفريقين شهر ربيع الآخر وجُماديين من سنة سبعٍ وثلاثين، وكان يزحف بعضهم على بعضٍ فيحجز بينهم القُرّاء فلا يكون قتال.

وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلا على معاوية، فقالا له: يا معاوية علام تُقاتل هذا الرجل؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاماً، وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ، وأحقّ بهذا الأمر منك. فقال: أُقاتله على دم عثمان، وإنه آوى قتلته، فاذهبا إليه فقولا له: فليقدنا من قتلة عثمان، ثم أنا أول من يُبايعه من أهل الشام. فذهبا إلى عليٍّ فقالا له ذلك، فقال: هؤلاء الذين تريان، فخرج خلق كثير، فقالوا: كلنا قتلة عثمان فمن شاء فليرمنا، فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم حرباً.

وقال عمرو بن سعد: حتى إذا كان رجب وخشي

---

(١) تاريخ الطبري، والبداية والنهاية.

مُعاوية أن يُتابع القراء كلهم عليّاً، كتب في سهم من عبد الله الناصح: يا معشر أهل العراق إن مُعاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ليُغرقكم، فخُذوا حذركم، ورمى به في جيش أهل العراق. فأخذه الناس فقرؤوه وتحدّثوا به، وذكروه لعليٍّ، فقال: إن هذا لا يكون ولا يقع، وشاع ذلك. وبعث مُعاوية مائتي فاعلٍ يحفرون في جنب الفرات، فبلغ الناس ذلك فتشوّش أهل العراق من ذلك، وفزعوا إلى عليٍّ، فقال: ويحكم، إنه يريد خديعتكم ليُزيلكم عن مكانكم هذا، وينزل فيه، لأنه خير من مكانه، فقالوا: لا بدّ من أن نُخلي عن هذا الموضع، فارتحلوا منه، وجاء معاوية فنزل بجيشه، وكان عليّ آخر من ارتحل، فنزل بهم، وهو يقول:

فلو أني أُطعت عصمت قومي
إلى ركن اليمامة أو شآم
ولكني إذا أبرمت أمراً
يُخالفه الطغام بنو الطغام

فلما انسلخ شهر المحرم عبّأ معاوية وعمرو جيش الشام، فكان على المقدمة سفيان بن عمرو أبو الأعور السملي، وعلى الساقة بُسر بن أرطأة، وعلى الميمنة حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى الميسرة عبد الله بن

عمرو بن العاص، وعلى الخيل عبيد بن عمر بن الخطاب. وعلى خيل دمشق الضحّاك بن قيسٍ، وعلى أهل حمص ذو الكلاع الحميري، وعلى أهل فلسطين مسلمة بن مخلدٍ، ودفع مُعاوية اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

وعبّأ عليّ جيشه فجعل على خيل أهل الكوفة الأشتر النخعي، وعلى رجالتهم عمّار بن ياسرٍ، وعلى خيل البصرة سهل بن حنيفٍ، وعلى رجالتهم قيس بن سعد بن عبادة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى قرّائهم مِسعر بن فدكي التميمي. وتقدّم عليّ إلى الناس أن لا يبدؤوا واحداً بالقتال حتى يبدأ أهل الشام، وأنه لا يُذفّف على جريحٍ ولا يُتبع مُدبر، ولا يكشف ستر امرأةٍ ولا تُهان، وإن شتمت أمراء الناس وصلحاءهم.

وقام معاوية بالناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، والله ما أصبت الشام إلا بالطاعة، ولا أضبط حرب أهل العراق إلا بالصبر، ولا أكابد أهل الحجاز إلا باللطف، وقد تهيّأتم وسرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق، وسار القوم ليمنعوا العراق ويأخذوا الشام، ولعمري ما للشام رجال العراق ولا أموالها، ولا للعراق خبرة أهل الشام ولا بصائرها، مع أن القوم

وبعدهم أعدادهم، وليس بعدكم غيركم، فإن غلبتموهم لم تغلبوا إلا من أناتكم، وإن غلبوكم غلبوا من بعدكم، والقوم لاقوكم بكيد أهل العراق، ورقة أهل اليمن، وبصائر أهل الحجاز، وقسوة أهل مصر، وإنما يُنصر غداً من يُنصر اليوم، واستعينوا بالله ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ولما بلغ علياً خطبة معاوية، قام بأصحابه فحرّضهم على الجهاد، ومدحهم بالصبر، وشجّعهم بكثرتهم بالنسبة لأهل الشام، وسار عليّ في مائة ألفٍ أو يزيدون، وأقبل معاوية في نحوٍ منهم من أهل الشام. وتعاقد جماعة من أهل الشام على أن لا يفرّوا، فعقلوا أنفسهم بالعمائم، وكان هؤلاء خمسة صفوفٍ، ومعهم ستة صفوفٍ آخرين. وكذلك أهل العراق كانوا أحد عشر صفاً أيضاً. فتواقفوا على هذه الصفة أول يومٍ من صفر، وكان ذلك يوم الأربعاء، وكان أمير الحرب للعراقيين الأشتر النخعي، وأمير الحرب للشاميين حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا ذلك اليوم قتالاً شديداً، ثم تراجعوا من آخر يومهم، وقد انتصف بعضهم من بعضٍ، وتكافؤوا في القتال.

ثم أصبحوا من الغد يوم الخميس، وأمير الحرب

من أهل العراق هاشم بن عتبة، وأمير الشاميين يومئذٍ أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا قتالاً شديداً، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، ثم تراجعوا من آخر يومهم، وقد صبر كل من الفريقين للآخر، وتكافؤوا.

ثم خرج في اليوم الثالث ـ وهو يوم الجمعة ـ عمار بن ياسرٍ من ناحية العراق، وخرجٍ إليه عمرو بن العاص في الشاميين فاقتتل الناس قتالاً شديداً، وحمل عمار على عمرو بن العاص فأزاله عن موقفه، وبارز زياد بن النضر الحارثي ـ وكان على الخيالة ـ رجلاً فلما تواقفا تعارفا فإذا هما أخوان من أمٍ فانصرف كل واحدٍ منهما إلى قومه وترك صاحبه، وتراجع الناس من العشيّ، وقد صبر كل فريقٍ لصاحبه.

وخرج في اليوم الرابع ـ وهو يوم السبت ـ محمد بن عليّ «وهو ابن الحنفية» ومعه جمع عظيم، فخرج إليه في كثيرٍ من جهة الشاميين عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، وبرز عبيد الله بن عمر فطلب من محمد بن الحنفية أن يبرز إليه فبرز إليه، فلما كادا أن يقتربا قال عليّ: من المبارز؟ قالوا: محمد ابنك، وعبيد الله، فأمرهما بالكفّ، وتحاجز الناس.

ثم خرج في اليوم الخامس ـ وهو يوم الأحد ـ في العراقيين عبد الله بن عباس، وفي الشاميين الوليد بن عقبة، واقتتل الناس قتالاً شديداً، وجعل الوليد ينال من ابن عباسٍ بالكلام. فقال له ابن عباسٍ: فابرز إليّ فأبى عليه، وقَاتل ابن عباسٍ يومئذٍ قتالاً شديداً بنفسه.

ثم خرج في اليوم السادس ـ وهو يوم الاثنين ـ وعلى الناس من جهة العراقيين قيس بن سعد بن عبادة، ومن جهة أهل الشام ذو الكلاع الحميري، فاقتتلوا قتالاً شديداً أيضاً، وتصابروا، ثم تراجعوا ثم خرج الأشتر النخعي في اليوم السابع ـ وهو الثلاثاء ـ وخرج إليه قرنه حبيب بن مسلمة الفهري، فاقتتلوا قتالاً شديداً أيضاً، ولم يغلب أحد أحداً في هذه الأيام كلها. فقال عليّ لأصحابه: حتى متى لا نُناهض هؤلاء القوم بأجمعنا؟ ثم قام في الناس عشيّة الثلاثاء ـ ليلة الأربعاء بعد العصر ـ فقال: الحمد لله الذي لا يُبرَم ما نقض، وما أبرم لا ينقضه الناقضون، لو شاء ما اختلف اثنان من خلقه، ولا تنازعت الأمة في شيءٍ من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، وألقت بيننا في هذا المكان، فنحن من ربنا بمنأى ومسمع، فلو شاء لعجّل النقمة وكان منه التعسير حتى يكذّب الله

الظالم، ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة عنده هي دار القرار ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾[1]، ألا وإنكم ملاقو القوم غداً فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله النصر والصبر، والقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين. فلما انتهى عليّ، رضي الله عنه، من كلامه وثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها.

ثم أصبح عليّ في جنوده قد عبّأهم كما أراد ـ وهو يوم الأربعاء ـ وركب معاوية في جيشه قد عبّأهم كما أراد، وقد أمر عليّ كل قبيلةٍ من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام. فتقاتل الناس قتالاً عظيماً، لا يفرّ أحد من أحدٍ، ولا يغلب أحد أحداً، ثم تحاجزوا عند العشيّ.

وصلّى عليّ فجر الأربعاء بالناس، وباكر بالقتال، وتقدّم، وهو في القلب في أهل المدينة، وعلى ميمنته يومئذٍ عبد الله بن بُديل، وعلى الميسرة عبد الله بن عبّاسٍ، وعلى القراء عمّار بن ياسرٍ، وقيس بن سعد بن

---

(١) سورة النجم: الآية ٣١.

عبادة، وزحف عليّ بأصحابه إلى القوم. وأقبل معاوية ـ وقد بايعه أهل الشام على الموت، وتواقف الناس، وحمل عبد الله بن بُديل ـ أمير ميمنة عليٍّ ـ على ميسرة أهل الشام وعليها حبيب بن مسلمة فاضطره إلى اللجوء إلى القلب وفيه معاوية. ثم حثّ معاوية من معه، وأمر حبيب بن مسلمة أن يُعاود الكرة على عبد الله بن بُديل، فحمل حبيب على ميمنة أهل المدينة فأزالهم عن مواقعهم، وانكشفوا عن أميرهم، وثبت أهل المدينة مع عليٍّ وعليهم سهل بن حنيفٍ، ثم أمر عليّ الأشتر أن يلحق المنهزمين فيردّهم، ففعل، والتفّ الناس حول أمير المؤمنين عليٍّ، وكان عبد الله بن بُديل في موقفه ثابت يُقاتل مع ثلاثمائةٍ من جنده، ثم تقدّم نحو معاوية غير أنه قتل. وحمل الأشتر بمن رجع معه من المنهزمين، وصدق الحملة حتى خالط الصفوف الخمسة الذين تعاقدوا ألا يفرّوا وهم حول معاوية، فخرق منهم أربعةً، وبقي بينه وبين معاوية صف، لكنه وجد دفاعاً قوياً وكاد أن يتراجع. وشجّع عليّ أصحابه، وحملوا على الشاميين، وجالوا في صفوفهم وصالوا فقتل كثير من الأعيان من الفريقين، وكان ممن قتل في هذا اليوم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وذو الكلاع الحميري، وعمّار بن ياسرٍ، وكان مقتل عمار، رضي الله عنه، يُبيّن

أن علياً كان على حقٍّ، وأن اجتهاده صحيحاً، وأن معاوية كان مخطئاً في اجتهاده لقول رسول الله ﷺ، لعمّارٍ: «ويح عمّار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار»[١]. وزعم بعضهم من أهل الشام أن من قتل عماراً هو الذي أخرجه للقتال وهو شيخ كبير، وذلك لعدم إضعاف عزيمة أهل الشام وعدم توانيهم بالقتال. وسرى هذا الكلام بين الجميع، وذلك لأنهم كانوا إذا تحاجزوا انتقل بعضهم من معسكر جماعتهم إلى معسكر الطرف الآخر، وتحادث بعضهم مع بعضٍ.

واستمّر القتال يوم الخميس ـ التاسع من صفر ـ ودعا عليّ معاوية إلى أن يُبارزه، فأشار عليه بالخروج إليه عمرو بن العاص، لكنه أبى عليه، وقدّم عليّ ابنه محمداً في عصابةً كثيرةٍ من الناس، فقاتل قتالاً شديداً، ثم تبعه عليّ في عصابةٍ أخرى فحمل بهم، فقتل في هذا الموطن خلق كثير من الفريقين. وحانت صلاة المغرب، فصلّى الناس صلاتي العشاء إيماءً واستمّر القتال في هذه الليلة كلها، وهي من أعظم الليالي شرّاً

---

(١) رواه البخاري.

بين المسلمين، وعليّ أمام الناس في قلب الجيش، وعلى الميمنة الأشتر النخعي، وعلى الميسرة عبد الله بن عباسٍ. كان الرجلان يقتتلان حتى يُثخنا، ثم يجلسان يستريحان، وكل واحدٍ منهما يَهْمز الآخر، ويهمر عليه، ثم يقومان يقتتلان كما كانا. فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة، وهم كذلك، وصلّى الناس الصبح إيماءً وهم في القتال حتى تضاحى النهار، وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام، وذلك أن الأشتر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة، فحمل بمن فيها على أهل الشام، وتبعه عليّ فتنقّضت غالب صفوفهم، وكادوا ينهزمون، فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح، وقالوا: هذا بيننا وبينكم، قد فني الناس فمن للثغور؟ ومن لجهاد المشركين والكفار؟. وقيل: إن الذي أشار بهذا عمرو بن العاص، وذلك لما رأى أن أهل العراق قد استظهروا في ذلك الموقف، أحبّ أن ينفصل الحال، وأن يتأخّر الأمر، فإن كلا الفريقين صابر للآخر، والناس يتفاوتون. فقال لمعاوية: إني قد رأيت أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقةً، أرى أن نرفع المصاحف وأن ندعوهم إليها، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك بَرَد القتال، وإن

اختلفوا فيما بينهم، فمن قائلٍ نُجيبهم، ومن قائلٍ لا نُجيبهم فشلوا وذهبت ريحهم[1].

رفع أهل الشام المصاحف، فقال أهل العراق: نُجيب إلى كتاب الله، ونُنيب إليه، ولكن قال لهم علي: عباد الله، امضوا إلى حقكم، وصدقكم، وقتال عدوكم، ويحكم، والله إنهم ما رفعوها إلا خديعةً ودهاءً ومكيدةً، فقال بعض العراقيين: ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله. فقال لهم: إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الكتاب. فاحفظوا عني نهيي إياكم، واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا فإن تُطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم. قالوا: فابعث إلى الأشتر فليأتك ويكفّ عن القتال. وكان ممن أشار على عليٍّ بالقبول الأشعث بن قيسٍ الكندي.

بعث عليّ، رضي الله عنه، يزيد بن هانئ إلى الأشتر ليكفّ عن القتال، فقال الأشتر ليزيد بن هانئٍ: قل له: ليست هذه الساعة التي ينبغي أن تُزيلني عن موقفي فيها، إني قد رجوت أن يفتح الله عليّ، فرجع يزيد فأخبر علياً بما قال الاشتر. وصمم الأشتر على

---

(١) البداية والنهاية.

القتال لينتهز الفرصة، فارتفع الهرج، وعلت الأصوات، فقال أولئك القوم لعليٍّ: والله ما نراك إلا أمرته أن يُقاتل، فقال: أرأيتموني ساررته؟ ألم أبعث إليه جهرةً وأنتم تسمعون؟ فقالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك. فقال عليّ ليزيد بن هانئٍ: ويحك، قل له: أقبل إليّ فإن الفتنة قد وقعت. فلما رجع إليه يزيد بن هانئٍ فأبلغه عن أمير المؤمنين أنه ينصرف عن القتال، ويقبل إليه، جعل يتململ ويقول: ويحك، ألا ترى إلى ما نحن فيه من النصر، ولم يبق إلا القليل؟.

أقبل الأشتر إلى عليٍّ وترك القتال، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الذلّ والوهن، أحين علوتم القوم، وظنّوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وسُنّة من أُنزلت عليه، فلا تُجيبوهم، وأمهلوني، فإني قد أحسست بالفتح، قالوا: لا، قال: أمهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في النصر، قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك. ثم أخذ الأشتر يُناظر أولئك القوم الداعين إلى إجابة أهل الشام. فقال لهم: إن كان أول قتالكم حقاً فاستمّروا عليه، وإن كان باطلاً فاشهدوا لقتلاكم بالنار. فقالوا: دعنا منك فإنا لا نُطيعك ولا صاحبك أبداً، ونحن قاتلنا هؤلاء في الله، وتركنا قتالهم لله. فقال لهم الأشتر:

خُدعتم والله فانخدعتم، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم و. . . . فسبّهم وسبّوه.

ورغب أكثر الناس من العراقيين وأهل الشام بكمالهم إلى المصالحة والمسالمة مدةً لعله يُتفق على أمرٍ يكون فيه حقن لدماء المسلمين، فإن الناس قد تفانوا في هذه المدة.

وقفة تأمُّلٍ:

ولا شكّ أن موقعة صفّين حادثة مؤلمة وفاجعة في تاريخ المسلمين، أفاد منها المرجفون فبالغوا فيها، واستغلّها المغرضون فدسّوا فيها افتراءاتهم التي تخدم أهدافهم، وتأثّر العامّة بما كتب هؤلاء وأولئك، فنقموا على فريقٍ حتى أخرجوه من الملّة، وانحازوا إلى فريقٍ فرأوا رأي المغرضين، وساروا إلى جانبهم، وأخذوا بعض فكرهم.

أما الاختلاف فإن الحق بجانب عليٍّ، رضي الله عنه، وهو أمير المؤمنين، وعلى الآخرين طاعته، وتلقّي تعليماته، وتنفيذ أوامره، وأما معاوية فكان عليه البيعة، والطاعة، والدخول فيما دخل فيه الناس، وأما مقتل أمير المؤمنين عثمان فهي من اختصاص الخليفة الذي بُويع، وليس من اختصاص والٍ من الولاة أو فردٍ من الأفراد وإن كان من أقربائه. وقد وقع مُعاوية بالخطأ بسبب بقاء

قتلة أمير المؤمنين عثمان في دار الهجرة بعد بيعة عليٍّ، رضي الله عنه، وبقيت لهم سطوة، فظنّ معاوية أن عليّاً راضٍ عنهم، وخاصّةً أن الأخبار تصل إلى دمشق مبالغ فيها من بعض الناس، والواقع أن عليّاً كان يمقت قتلة عثمان، رضي الله عنه، ويعدّهم مجرمين قتلة، ويريد القصاص منهم، وإقامة الحّد عليهم، ولكن لا يستطيع لاجتماعهم في المدينة، وقوتهم، وكثرتهم، ويريد، أن يُغيّر الولاة حتى يطمئن القتلة، ويتفرقوا، وتضعف قوتهم، وعندها يُحاسبهم. وقد وقف معاوية، وهو لا يدري، في وجه تنفيذ هذه الخطّة. فردّت خيله والي الشام الجديد، فبقي القتلة في دار الهجرة، لم يتفرّقوا، وامتنع هو عن البيعة، وأخذ يُطالب بدم الخليفة المقتول ظلماً، وهذا ما زاد القتلة خوفاً على أنفسهم فبقوا مجتمعين. ولما سار عليّ، رضي الله عنه، إلى البصرة ساروا بجيشه بل كان بعضهم من قادتهم حيث أن عمار بن ياسرٍ والأشتر النخعي من المتهمين بالتحريض على أمير المؤمنين عثمان، رضي الله عنه، وهذا ما زاد مُعاوية إمعاناً في مطالبته بدم عثمان، إذن كان اجتهاده خاطئاً، ونرجو أن يُؤجر عليه.

وأما صورة القتال فقد تكلّم بها المغرضون وأطنبوا، وأعطوا صوراً بشعةً عنها، وتوسّعوا، وأظهروا

أن هناك أحقاداً دفينةً بين الفريقين، وهذا ما أثّر في أفكار العامة حتى تصوّروا أن الحرب كانت بين عدوّين لدودين لا يمكن أن يلتقيا، أحدهما مؤمن، والآخر يعادي الإيمان، ويُحارب أهله، وإن كان يتظاهر بالإسلام، على حين أنه يتبيّن من خلال الأحداث أن الخلاف قد كان في وجهة النظر وأدّى إلى تلك الفاجعة، ولا أثر للحقد فيه، إذ كثيراً ما كان الفريقان يلتقيان ويقف أحدهما مقابل الآخر أياماً وأسابيع بل أشهراً ولم يحدث قتال، فلو كانت هناك أحقاد، لا يمكن لواحدٍ أن يرى الآخر وينتظره دون أن يُفرغ شيئاً مما شُحن بإشعال النار وبدء القتال. لقد كان الطرفان يستقيان من شريعةٍ واحدةٍ دون أن يحدث بينهما احتكاك، وعندما يتوقّف القتال بينهما مساءً يذهب فريق من معسكرهم إلى معسكر الطرف الثاني ويكون بينهما أحاديث بل وعن القتال، ولم يقع صدام بينهما أو انتقام، وكثيراً ما كانت أعداد من أهل الشام تذهب إلى معسكر العراقيين لتصلّي خلف عليٍّ، رضي الله عنه، وهذا كله يدلّ على أنه ليس من أحقاد أبداً بين أحد من الجانبين أدّى إلى صراعٍ تصاعدت حدّته حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من مآسي، بل إن وقف القتال برفع المصاحف ليدلّ على أنّ القتال كان بين أخوين نزغ الشيطان بينهما فكانت الفاجعة، ولنرجع إلى

قول عليٍّ، رضي الله عنه، إلى أصحابه قبل بدء القتال لنرى هل يتضمن أيّ نوعٍ من الحقد: «لا تبدؤوا واحداً بالقتال حتى يبدأ أهل الشام، ولا يُذفّف على جريحٍ، ولا يُتبع مُدبر، ولا يكشف ستر امرأةٍ ولا تهان، وإن شتمت أمراء الناس وصلحاءهم»، إنه كلام يدل على خلقٍ كريمٍ ليس فيه أي معنى من معاني الأحقاد أو الضغائن، بل يُؤكّد على معاني خلاف إخوةٍ في وجهات النظر، وهي تزول لا شك مع زوال بواعثها.

ونحن لا نستطيع أن نُجرّد أحد الفريقين من صفة الإيمان، كما فعل المغرضون، فالمؤمنون قد يختلفون، وقد يقع بينهما قتال، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾[1]. فالله سبحانه وصف الطائفتين بالإيمان وإن كانت إحداهما باغيةً. ونحن نُعطي الفريقين صفة الإيمان، ونرجو أن يكونا كذلك، ونعتقد أن الحق والصواب كان بجانب عليٍّ، رضي الله عنه، وإن كان في جيشه قتلة عثمان، رضي الله عنه، وأن معاوية رضي الله عنه، كان مخطئاً في

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

اجتهاده ورأيه، وهو معذور عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين من الطرفين ـ أهل العراق وأهل الشام ـ كما ثبت في الحديث الصحيح: (تمرق مارقة عند فرقةٍ من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق)[1]. فكانت المارقة الخوارج، وقتلهم عليّ وأصحابه[2].

التحكيم:

اتّفق الفريقان بعد مكاتباتٍ ومداولاتٍ على أن يُحكّم كل واحدٍ من الأميرين ـ عليّ ومُعاوية ـ رجلاً من جهته، ثمّ يتّفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل مُعاوية عمرو بن العاص، وأراد عليّ أن يُوكّل عبد الله بن عبّاس، فاحتجّ بعض جماعة عليٍّ، وأشار الأشعث بن قيسٍ بأبي موسى الأشعري، وتابعه أهل اليمن، واحتجّوا بأنه كان ينهى عن الفتنة والقتال، وكان أبو موسى قد اعتزل، وأقام بالحجاز. وقال عليّ: فإني أجعل الأشتر حكماً، فقال بعض جماعة عليٍّ: وهل سَعَر الحرب وشفر الأرض إلا الأشتر؟ قال: فاصنعوا ما

(١) رواه البخاري.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية.

شئتم. فأبوا إلا أبا موسى الأشعري. فذهبت الرسل إلى أبي موسى ـ وكان قد اعتزل ـ فلما قيل له: إن الناس قد اصطلحوا، قال: الحمد لله، قيل له: وقد جُعلت حكماً، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم مشوا به إلى عليٍّ، رضي الله عنه.

كتب الطرفان بينهما كتاباً، وقد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه عليّ بن أبي طالبٍ، أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وليس أميرنا. فقال الأحنف بن قيس: لا تكتب إلا أمير المؤمنين، فقال عليّ: امح أمير المؤمنين، واكتب: هذا ما قاضى عليه عليّ بن أبي طالبٍ، ثم استشهد عليّ بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة، من كتابة: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فامتنع المشركون من ذلك، وقالوا: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فكتب الكاتب: هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل العراق ومن معهم من شيعتهم، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين. إنا ننزل عند حكم الله وكتابه، ونُحيي ما أحيا الله، ونُميت ما أمات الله، فما وجد

الحكمان في كتاب الله ـ وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ـ عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله، فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المتفرقة.

ثم أخذ الحكمان من عليٍّ ومعاوية ومن الجُندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين ـ كليهما ـ عهد الله وميثاقه، أنهما على ما في هذه الصحيفة، وأجّلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبّا أن يُؤخّرا ذلك على تراضٍ منهما. وكُتب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبعٍ وثلاثين، على أن يُوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بـ «دومة الجندل» في رمضان، ومع كل واحدٍ من الحكمين أربعمائةٍ من أصحابه، فإن لم يجتمعا لذلك ـ اجتمعاً من العام المقبل بـ «أَذْرُح»[1].

وروي أن الأشعث بن قيسٍ لما ذهب إلى مُعاوية بالكتاب، وفيه «هذا ما قاضى عبد الله عليّ أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان» قال مُعاوية: لو كان أمير المؤمنين لم أُقاتله، ولكن ليكتب اسمه، وليبدأ به قبل اسمي

---

(١) أذرح: بلد في جنوبي الشام من أعمال معان.

لفضله وسابقته، فرجع إلى عليٍّ، فكتب كما قال معاوية.

وروي أن أهل الشام أبوا أن يُبدأ باسم عليٍّ قبل معاوية، وباسم أهل العراق قبلهم، حتى كُتب كتابان: كتاب لهؤلاء فيه تقديم مُعاوية على عليٍّ، وكتاب آخر لأهل العراق بتقديم اسم عليٍّ وأهل العراق على مُعاوية وأهل الشام.

وشهد على هذا التحكيم من جيش عليٍّ:

١ - عبد الله بن عباس.
٢ - الأشعث بن قيس الكنديّ.
٣ - سعيد بن قيس الهمدانيّ.
٤ - عبد الله بن الطفيل المعافريّ.
٥ - حُجر بن يزيد الكنديّ.
٦ - ورقاء بن سمي العجليّ.
٧ - عبد الله بن بلالٍ العجليّ.
٨ - عقبة بن زيادٍ الأنصاريّ.
٩ - يزيد بن جُحفة التميمّي.
١٠ - مالك بن كعبٍ الهمدانيّ.

ومن جيش معاوية:

١ - أبو الأعور السلمّي.
٢ - حبيب بن مسلمة الفهريّ.
٣ - عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.
٤ - مخارق بن الحارث الزبيديّ.
٥ - وائل بن علقمة العدويّ.
٦ - علقمة بن يزيد الحضرميّ.
٧ - حمزة بن مالك الهمدانيّ.
٨ - سبيع بن يزيد الحضرميّ.
٩ - عتبة بن أبي سفيان - أخو معاوية -.
١٠ - يزيد بن الحرّ العبسيّ.

وخرج الأشعث بن قيسٍ الكنديّ بالكتاب يقرؤه

على الناس، ويُعرضه على الطائفتين. واطلق عليّ ما كان بيده من أسرى أهل الشام، وكذا فعل مُعاوية بعد ذلك فأطلق أسرى أهل العراق الذين كانوا لديه.

وذُكر أن الأشعث بن قيسٍ مرّ على ملأٍ من بني تميم فقرأ عليهم الكتاب فقام إليه عروة بن أُدَيَّة، وأديّة أُمّه، وهو عروة بن جرير من بني ربيعة بن حنظلة، وهو أخو أبي بلالٍ مِرداس بن جريرٍ، فقال: أتحكمون في دين الله الرجال؟ ثم ضرب بسيفه عجز دابة الأشعث بن قيسٍ، فغضب الأشعث وقومه، وجاء الأحنف بن قيس وجماعة من رؤساء بني تميمٍ يعتذرون إلى الأشعث بن قيسٍ من ذلك.

وتفرّق الناس من صفّين إلى بلادهم، وخرج مُعاوية إلى دمشق بأصحابه، رجع عليّ إلى الكوفة، ولما اقترب من دخول الكوفة اعتزل من جيشه ما يقرب من اثني عشر ألفاً، وأبوا أن يُساكنوه في بلده، ونزلوا بمكانٍ يُقال له: حروراء لذا نُسبوا إليه فيقال: الحروريّة، أولئك هم الخوارج. فبعث إليهم عليّ، رضي الله عنه، عبد الله بن عبّاسٍ فناظرهم فرجع بعضهم، وأبى آخرون فقاتلهم عليّ بن أبي طالبٍ وأصحابه بالنهروان، وكان على ميمنته حُجر بن عديٍّ، وعلى الميسرة شَبَث بن

ربعيّ، وعلى الخيل أبو أيوب الأنصاريّ، وعلى الرجالة أبو قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة. وأمر عليّ أبا أيوب الأنصاريّ أن يرفع راية الأمان للخوارج، ويقول لهم. من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن. فانصرف كثير منهم، وكانوا في أربعة آلافٍ، فلم يبق منهم إلا ألف أو أقلّ مع عبد الله بن وهب الراسبيّ، فزحف عليّ عليهم، فقُتل قادتهم: عبد الله بن وهب الراسبيّ، وحرقوص بن زهيرٍ، وعبد الله بن شجرة السلميّ، وشُريح بن أوفى، مع أعدادٍ كثيرةٍ منهم، وجُرح أربعمائة، فأرسلهم عليّ إلى قبائلهم لمداواتهم.

اجتمع الحكمان: أبو موسى الأشعريّ وعمرو بن العاص، رضي الله عنهما، بدومة الجندل في شهر رمضان، وقد بعث عليّ أربعمائة فارسٍ مع شريح بن هانئٍ، ومعهم أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباسٍ، وإليه الصلاة، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة فارسٍ، ومعهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، فتوافوا بدومة الجندل، وهي منتصف المسافة بين الكوفة ودمشق، وشهد معهم جماعة من رؤوس الناس كعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ.

اتفق الحكمان على أن يعزلا عليّاً ومعاوية، وأن يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما، وقد أشار أبو موسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب، واقترح عمرو بن العاص ابنه عبد الله، ثم رجعا إلى أن يتركا الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على من يختارونه لأنفسهم.

وجاء الحكمان إلى مجمع الناس ـ وكان عمرو رغم سنه لا يتقدّم بين يدي أبي موسى بل يُقدّمه في كل الأمور أدباً وإجلالاً لفضله وسابقته، فقال عمرو: يا أبا موسى قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه. فخطب أبو موسى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على رسول الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أمراً أصلح لها ولا أَلَمّ لشعثها من رأي اتفقت أنا وعمرو بن العاص عليه، وهو: أن نخلع عليّاً ومُعاوية ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيُولّوا عليهم من أحبّوه، وإني قد خلعت عليّاً ومعاوية. ثم تنحّى وجاء عمرو فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه، وأثبت صاحبي مُعاوية، فإنه وليّ عثمان بن عفّان، والطالب بدمه، وهو

أحقّ الناس بمقامه(١).

وثب شريح بن هانيءِ - مقدّم جيش عليٍّ - على عمرو بن العاص فضربه بالسوط، فقام إليه ابن لعمرو بن العاص فضربه بالسوط، وتفرّق الناس في كل وجهٍ إلى بلادهم. فأما عمرو وأصحابه فدخلوا على مُعاوية فسلّموا عليه بتحية الخلافة، وأما أبو موسى فاستحيى من عليٍّ، فذهب إلى مكة، ورجع عبد الله بن عبّاسٍ، وشريح بن هانيءٍ إلى عليٍّ فأخبراه بما فعل أبو موسى وعمرو، فاستضعفوا رأي أبي موسى، وعرفوا أن أبا موسى لا يوازن عمرو بن العاص دهاءً.

ومع ذلك فإن معاوية لم يُسمّ به نفسه أميراً للمؤمنين، ولم يقبل أن يُدعى بذلك إذ يعلم أنه لا يصحّ أن يوجد خليفتان للمسلمين، كما يعرف أنه لا يوازن عليّاً علماً، وفضلاً، وسابقةً، وقرابةً فهو يُقرّ بهذا ويعلمه، ويُردّده دائماً، كما يعرف ذلك كل مسلمٍ.

---

(١) البداية والنهاية. ويذكر ابن كثير أن عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس من غير إمام، والحال هذه، يؤدّي إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف. فأقرّ معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهاد يخطئ ويصيب. ويقال: إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة، وردّ عليه عمرو بن العاص مثله.

وقفة:

واستغلّ المغرضون حادثة التحكيم، وما وقع من خلافٍ، وما تكلّم به عمرو بن العاص، فتركوا لخيالهم العنان في نسج القصص والافتراءات، وحبك الحكايات والأكاذيب لإبعاد فكرة التفاهم بين الفريقين، ولإبقاء المسلمين على حالةٍ من الخلاف والشقاق، فصوّروا أبا موسى الأشعري رجلاً طاعناً بالسنّ، خَرِفاً، وأن عمرو بن العاص شاب ذو مكرٍ ودهاءٍ، والحقيقة أن عمرو بن العاص أكبر سناً من أبي موسى الأشعري بتسع وعشرين سنةً، وأكثر المغرضون من القصص المكذوبة في هذه القضية. والحقيقة أن أبا موسى، رضي الله عنه، كان يصرّ على بيعة معاوية لعليٍّ قبل كل شيءٍ، ثم يأتي دور القصاص من قتلة عثمان، رضي الله عنه، وأن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، طلب بالقصاص من قتلة عثمان، رضي الله عنه، أولاً، ثم يبحث بموضوع البيعة، وهذا هو جوهر الخلاف من البداية، ولمّا صعُب الاتفاق على هذا الأمر، طُرح موضوع خلع عليٍّ ومعاوية معاً. ولكن كيف يخلع عليّ من إمارة المؤمنين ومعاوية لا يدّعيها، فيخلع من إمرة الشام وهي لا تتساوى مع إمرة المؤمنين، ولكن أبا موسى كان يرى أن المسلمين لا يقبلون غير عليٍّ خليفةً، لذا فالأمر مُنتهٍ عنده مهما

كانت صيغة الاتفاق. وأما عمرو بن العاص فقد رأى أن في هذا الاتفاق خلع عليٍّ من إمرة المؤمنين، فأصبح معاوية مُوازياً له، وأن معاوية لم يُخلع، لأنه لم يكن أميراً للمؤمنين ليُخلع من ذلك، وإذن يمكن أن يكون، وعلى كلٍ فقد كان في كلامه خداع، وفي تصرّفه دهاء، وهو غير مقبول، ونعدّه قد أخطأ في طريقة تعامله، وهو ليس بمعصوم. وربما يُعذر عند بعضهم نتيجة الوضع الذي كانت به الأمة، والمكانة التي كان عليها قتلة عثمان، رضي الله عنه.

عودة الصراع:

شعر عليّ بالغمّ بعد أحداث الخوارج، ونتائج التحكيم، واختلاف آراء جماعته، وعدم سماع كلام إمامهم أمير المؤمنين، وقد أراد النهوض إلى الشام بعدما استراح جنده، فدعاهم للقتال فلم ينفروا، وحثّهم فلم يستجيبوا، وحرّضهم فلم يُعيروا كلامه اهتماماً، حتى ضاق بهم ذرعاً، وتمنّى لو لم يعرفهم، فكانت حياته معهم محنةً شاقةً، وعيشاً مليئاً بالصعاب والمشاق والمنغّصات، يأمر فلا يُطاع، ويدعو فلا يُستجاب له، حتى تمنّى الموت، فكان يقول: ما يُؤخّر أشقاها؟ يقول ذلك لينتهي مما يجد من

أصحابه، إذ كان رسول الله ﷺ، قد أخبره أنه سيقتله أشقى الأمة.

أما معاوية فقد كان أمره نافذاً، ويجد الطاعة من جنده، والتجاوب من الشاميين، وتصل إليه أخبار العراقيين مع أميرهم، كما جاءته أنباء التحكيم بما يرغب لذا فكّر بالتوسّع، توسعة دائرة حكمه، فقد كانت الأمور تجري كما يشتهي، لذا بدأ بالمغامرة.

أرسل معاوية إلى مصر عمرو بن العاص فاستطاع أن يدخلها، وأن يحكمها بعد مقتل واليها من قبل عليّ بن أبي طالبٍ، محمد بن أبي بكرٍ، ولم يستطع الأشتر النخعيّ أن يصل إليها، إذ مات بالطريق، وهو ماضٍ إليها، وذلك عام ثمانية وثلاثين. إذ كان الأشتر مع عليٍّ في صفّين، فلما رجع أعاده إلى عمله بالجزيرة أميراً على مدينة نصيبين ثم وجّهه إلى مصر، فمات مسموماً، وهو في طريقه إليها. وبذا تبعت مصر لمعاوية.

بعث معاوية بن أبي سفيان إلى البصرة عبد الله بن عامرٍ الحضرميّ إذ توقّع أن يجد له أعواناً هناك، إذ سبق لأهلها أن نُكبوا في معركة الجمل، وفيها من يُطالب بثأر عثمان، كما قد حدثت اضطرابات، ولكن لم يصل معاوية إلى نتائج مرضيةٍ.

وأرسل معاوية إلى «هيت» سفيان بن عوفٍ في ستة آلافٍ، فلم يجد بها أحداً فدخلها، وسار منها إلى الأنبار، فأغار عليها، وأزال خيل عليٍّ عن مسالحها، ثم عاد، ولم يُصَب أحد من جنده بأذىً.

وبعث معاوية إلى تدمر الضحّاك بن قيسٍ، غير أنه هُزم أمام قائد عليٍّ حُجر بن عديّ الكنديّ.

وأرسل النعمان بن بشيرٍ في ألفي رجلٍ إلى عين التمر.

وفرّق معاوية جنده على أطراف المناطق التابعة لأمير المؤمنين، فكانت الغارات مستمرةً، ومع ذلك فأهل العراق لا يرغبون بالنهوض للقتال. وهذا ما زاد أمير المؤمنين ألماً وغمّاً.

وجهّز معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاريّ في ألف وسبعمائة رجلٍ وبعثه إلى تيماء فدخلها.

أرسل معاوية بن أبي سفيان أميراً على الموسم من قبله ليُقيم للناس حجهم، هو يزيد بن شجرة الرهاويّ، فلما دنا من مكة خافه قثم بن العباس عامل مكة من قبل عليّ، فاعتزله، وتوسّط الناس بالأمر، واختاروا عثمان بن أبي طلحة أميراً للحج عام تسعةٍ وثلاثين،

وسمع عليّ بمسير يزيد بن شجرة فندب الناس لردّه فتثاقلوا، ثم أرسل معقل بن قيسٍ في جندٍ فلما وصلوا إلى مكة كان الموسم قد انتهى، وعاد يزيد بن شجرة ومن معه نحو الشام، غير أن جند العراق قد أدركوا مؤخرة جند يزيد، فأسروا نفراً منهم، وساروا بهم إلى الكوفة.

وبعث معاوية عام أربعين بُسر بن أرطأة إلى الحجاز في ثلاثة آلاف رجلٍ، فدخل المدينة، وخرج منها عامل عليٍّ أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيدٍ مُتّجهاً إلى الكوفة، وبايع أهل المدينة بُسراً، ومنهم بعض الصحابة أمثال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن زمعة، وعمر بن أبي سلمة، برأي أُمّ المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية، رضي الله عنها، إذ خافت عليهم، وخافوا على أنفسهم. وانطلق بُسر بن أرطأة بعدها إلى مكة فخافه أبو موسى الأشعري، إلا أنه عفا عنه. ومن مكة اتّجه بُسر نحو اليمن وواليها من قبل عليٍّ ابن عمه عبيد الله بن عباسٍ. ومرّ بُسر على الطائف، وهمّ أن يقسو على أهلها إلا أن المغيرة بن شعبة نصحة ألا يفعل، فعدل عن رأيه. ولما وصل بُسر إلى اليمن غادرها عاملها عبيد الله بن عباسٍ بعد أن استخلف عليها

عبد الله بن عبد الله المدّان إلا أن بُسراً قد دخلها. كان عبيد الله بن عباسٍ قد اشتدّ على أهل اليمن، وكتب إلى أمير المؤمنين عليّ يشكو حالهم، فأرسل إليهم يستصلحهم، فلم تفدهم الرحمة والرأفة فهدّدهم فخافوه، فكتبوا إلى معاوية يستنصرونه فأرسل إليهم بُسر بن أرطأة.

أرسل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، إلى جزيرة العرب جارية بن قدامة، ومعه ألفا رجلٍ، ووهب بن مسعود، ومعه ألفان أيضاً. وسار جارية حتى أتى نجران، ففرّ بُسر بن أرطأة إلى مكة فتبعه جارية فدخلها، وطلب من أهلها البيعة لأمير المؤمنين فأخبروه أنه قد بلغهم نبأ مقتله، فقال: بايعوا لمن بايع له أصحاب عليٍّ فبايعوه، ثم اتّجه جارية إلى المدينة فدخلها، وكان أبو هريرة، رضي الله عنه، يصلي بالناس، فبايع أهل المدينة الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما.

إذن قُتل عليّ، رضي الله عنه، ومصر، والشام، وشمالي الحجاز بيد معاوية، على حين كانت المناطق التي تتبع أمير المؤمنين غير ذلك، فأوضاع الحجاز غير مستقرّة، وأحوال العراق مُتردّية، وفارس وكرمان مُتوثّبة، وقد سبق للسكان فيهما أن حجبوا الخراج عن أمير

المؤمنين، ثم طردوا عامله عليهم سهل بن حنيفٍ، فبعث إليهم زياد بن أبيه فأعاد الأمن، وضبط الأمر، فخضع الأهالي هناك.

مقتل عليٍّ، رضي الله عنه.

اجتمع الخوارج، ونظروا في أمرهم، وقالوا: إن عليّاً ومُعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة فلو قتلناهما لعاد الأمر إلى حقه، وقال رجع من قبيلة غطفان من أشجع: والله ما عمرو بن العاص دونهما، وإنه لأصل هذا الفساد. فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أقتل علياً، وقال الحجاج بن عبد الله الصريمي، وهو البُرَك: وأنا أقتل معاوية، وقال زاذويه مولى بني العنبر بن عمرو بن تميم(١): أنا أقتل عَمراً. فأجمع رأيهم أن يكون قتل الثلاثة في ليلةٍ واحدةٍ، وجعلوا تلك الليلة هي الحادية والعشرين من شهر رمضان في صلاة الفجر، وقيل: السابعة عشرة. وخرج كل واحدٍ منهم إلى ناحيةٍ.

استطاع عبد الرحمن بن ملجم ـ قبّحه الله ـ أن يقتل عليّاً، رضي الله عنه. وأما البُرَك فإنه ضرب

---

(١) قيل: إن الذي تعهد بقتل عمرو بن العاص هو: عمرو بن بكر التميمي.

معاوية، وهو يصلّي، فأصاب مأكمتيه، وكان معاوية عظيم الأوراك، فقطع منه عِرْقاً، يُقال: إنه عِرْق النكاح، فلم يولد لمعاوية بعد ذلك. فأمر به معاوية فقطعت يده ورجله[1]، وأقام بالبصرة، ثم بلغ زياداً أنه قد وُلِدَ للبُرَك، فقال: أيولد له، وأمير المؤمنين لا يولد له فقتله. ويروى أن معاوية اتّخذ بعد ذلك المقصورة. وأما صاحب عمرو بن العاص، فقد أرصد له، غير أن عمراً اشتكى بطنه، فلم يخرج يومذاك للصلاة، فصلّى مكانه صاحب شرطته خارجة بن حذافة، فضربه الخارجي فقتله، فلما أُدخل على عمرٍو رآهم يخاطبونه بالإمرة، قال: أو ما قتلت عمراً؟ قيل: لا، إنما قتلت خارجة، فقال: أردت عمراً، وأراد الله خارجة. واقتُصَّ من الخارجي فقتل.

مع الحسن بن عليّ، رضي الله عنهما:

بعد إصابة عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، دخل عليه جندب بن عبد الله، فقال له: يا أمير المؤمنين إن فقدناك، ولا نفقدك أفنبايع الحسن، فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر، ونهى عن المثلة بقاتله، وقال: إن

(١) لم يحكم عليه بالقتل لأنه لم يقتل.

متّ فاقتلوه بي، وإن عشت رأيت رأيي فيه، ثم لم يلبث أن تُوفّي. واتّجه الناس إلى الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، فبايعوه، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة. وبقي الحسن في الخلافة ستة أشهرٍ، رأى خلالها تخاذُل أصحابه، وضرورة اتّفاق الأمة، فآثر الصلح، ودعا معاوية إليه، فوافق، وتنازل الحسن له في خمس وعشرين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، ودخل معاوية الكوفة، وانتقل الحسن والحسين إلى المدينة.

لم يكن في نيّة الحسن أن يُقاتل أحداً، ولكن غلبوه على رأيه حيث ألحّ عليه قيس بن سعد بن عبادة في النفير لقتال أهل الشام، فوافق وأخذ بالاستعداد، فأتى بقيس بن سعدٍ من أذربيجان، وكان والياً عليها، وجعله أميراً على مقدمته، وولّى عبد الله بن عبّاسٍ مكانه على أذربيجان، وحشد حشوداً عظيمةً، وسار بها لقتال معاوية وأهل الشام، إلا أن جيشه قد اختلفوا في آرائهم، وثار بعضهم على بعضٍ، وهم بالمدائن في طريقهم إلى الشام، ونهب بعضهم أمتعة بعضٍ، بل نهبوا سرادق أمير المؤمنين الحسن، ونالته طعنة.

لما رأى الحسن، رضي الله عنه، تفرّق واختلاف آراء عسكره، منهم من يريد الحرب، ويستميت من أجل

ذلك، ومنهم من يريد القعود، ويُحبّ العافية، ومنهم من يحقد على غيره، ويرغب بالضرب، ومنهم من يميل إلى الفتنة ويعمل إلى الفوضى لذا فقد مقت الحسن جنده، ورغب في الخلاص منهم، وتذكّر رأي أبيه بهم، وما لقيه من تعبٍ منهم، فوجد من الخير العمل لجمع كلمة المسلمين، وحقن دمائهم، وتذكّر قول جدّه رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن ابني هذا سيّد، وسيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1].

وكان قبل مقتل عليٍّ، رضي الله عنه، لا يوجد في ديار الإسلام سوى خليفةٍ واحدٍ، هو عليّ، رضي الله عنه، ولم يكن معاوية، رضي الله عنه، سوى أمير للشام، ورغم الخلاف الذي كان بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما، ورغم القتال الذي وقع بينهما فإن معاوية، رضي الله عنه، لم يكن يُنادى إلا بأمير الشام، ولم يكن هو يُفكّر بأكثر من ذلك لما يُقرّه في نفسه في فضلٍ لعليٍّ، وما يقوله في لسانه، ولما يعرف من علمه، وربما يراسله فيسأله عن بعض المسائل التي لا يستطيع ـ معاوية ـ أن يُبدي فيها رأياً شافياً أو يُعطي فيها قولاً ثابتاً

(١) أخرجه البخاري.

يطمئن إليه، كما أن شيعة معاوية المتمسكين به، والمحبين له، والذين لا يعرفون والياً غيره لا يُسمّونه إلا أمير الشام. فلمّا قُتل عليّ، رضي الله عنه، أعلن معاوية، رضي الله عنه، نفسه خليفةً، وتسمّى باسم أمير المؤمنين، وأصبحت شيعته يُنادونه بهذا الاسم حيث أصبح جزءاً واسعاً من ديار الإسلام يتبعه، ويُطيع أهالي هذا الجزء أميرهم، ويأتمرون بأمره، ولا خلاف بينهم في الرأي، على حين أن الجزء الذي يتبع أمير المؤمنين الحسن فإن أهله على خلافٍ فيما بينهم بالرأي، ويُبدون آراءهم المخالفة لأميرهم، ويُظهرون عدم الطاعة، ولا ينفر بعضهم للقتال إذا ما دُعي إليه.

إن وضع أصحاب الحسن، وما هم عليه من خلافٍ، ووجود خليفتين في ديار الإسلام، وهو لا يصحّ، إذ لا يوجد للمسلمين سوى خليفةٍ واحدٍ، فمن الخليفة الشرعي الحسن أم معاوية؟. الخليفة في الإسلام لا ينحصر بأسرةٍ معينةٍ، ولا بأهل إقليم، ولا يُؤخذ بالوراثة ولا بالعهد إليه، بل حسب شروطٍ تتوفّر فيه، وسماتٍ يتميّز بها من يُقدّمه أهل الحلّ والعقد لهذا المنصب. وليس هناك من رجلٍ يطلب الخلافة لنفسه، وليست هناك من جماعةٍ ترفع شخصاً من لدنها وتُسلّمه هذا المركز الحسّاس، كما لا يمكن لأهل إقليمٍ أن

يفرضوا خليفة من عندهم على المسلمين. وقد بايع أهل الشام أميرهم معاوية، وبايع أهل الكوفة وأكثر العراقيين الحسن بن عليٍّ، فكلا الرجلين قد بُويع من أهل إقليمٍ، وهذا لا يصحّ في الإسلام، غير أن الذين بايعوا الحسن فيهم رجال الخليفة السابق، كما أن بينهم رجالاً من الحجاز، لذا كانت بيعته أقرب إلى الشرعية من بيعة معاوية، لذا نعدّ الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، في هذه الحقبة من الزمن هو الخليفة الشرعيّ.

لما رأى الحسن، رضي الله عنه، هذه الأوضاع التي يعيشها المسلمون، وأحوال أصحابه، وما هم عليه من الشقاق، وعدم الطاعة له، ورأى معاوية واتفاق شيعته، وطاعتهم، وتذكّر قول رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن ابني هذا سيّد، وسيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، عندئذٍ كتب لمعاوية بن أبي سفيان - وكان قد ركب في أهل الشام فنزل مَسْكِن - يراوضه على الصلح بينهما، حيث يعرف هو أيضاً عدم رغبة الحسن بالقتال، ويعرف حديث رسول الله ﷺ، بشأن الحسن، رضي الله عنه، ومدحه إياه على صنيعه، وهو ترك الدنيا الفانية، ورغبته في الآخرة الباقية، وحقنه دماء هذه الأمة.

بعث معاوية للحسن، رضي الله عنهما،

عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سَمُرة فقدما عليه بالكوفة، فبذلا له ما أراد من الأموال، فاشترط أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف درهم، وأن يكون له خراج (دار أبجرد) و (فسا)، وأن لا يُسَبّ عليّ، وهو يسمع، وعلى أن تكون له الخلافة من بعده، وعلى أن لا يُطالب معاوية أحداً من أهل المدينة بشيءٍ وقع منه قبل اليوم، فإذا وافق معاوية وأصحابه على ذلك، نزل الحسن عن الإمرة لمعاوية، وحقن الدماء بين المسلمين، فاصطلحوا على ذلك، وبعث الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، إلى أمير مقدمته قيس بن سعدٍ أن يسمع ويُطيع، فأبى قيس بن سعدٍ من قبول ذلك، وخرج عن طاعتهما جميعاً، واعتزل بمن أطاعه، ثم راجع الأمر فبايع مُعاوية، واجتمعت كلمة المسلمين. وعُرف ذلك العام بعام الجماعة، وأصبح معاوية، رضي الله عنه، خليفة المسلمين.

ونزل معاوية النُّخيلة على مقربةٍ من الكوفة، وأتاه الحسن في عسكره غير مرّةٍ، ووفّى معاوية للحسن ببيت مال الكوفة، وكان فيه يومئذٍ سبعة آلاف درهم، فاحتملها الحسن، وتجهّز بها هو وأهل بيته إلى المدينة، وكفّ مُعاوية عن سبّ عليٍّ، ودسّ مُعاوية لأهل البصرة، فطردوا وكيل الحسن، وقالوا: لا تحمل فيئنا إلى غيرنا،

يعنون خراج (دار أبجرد) و (فسا)، وأجرى معاوية على الحسن كل سنةٍ ألف ألف درهمٍ. وارتحل الحسن، رضي الله عنه، إلى المدينة.

وكان الحسن، رضي الله عنه، غالباً ما يَفِدُ إلى مُعاوية في دمشق كل عامٍ، ويأخذ أعطياته، فيُكرمه معاوية، ويصله.

وعن أبي المنذر هشام بن محمّدٍ عن أبيه، قال: أضاق الحسن بن عليٍّ، وكان عطاؤه في كل سنةٍ مائة ألفٍ، فحبسها عنه مُعاوية في إحدى السنين فأضاق إضاقةً شديدةً، قال: فدعوت بدواةٍ، لأكتب إلى مُعاوية لأُذكّره نفسي، ثم أمسكت، فرأيت رسول الله ﷺ، في المنام، فقال: «كيف أنت يا حسن؟» فقلت: بخير يا أبت، وشكوت إليه تأخّر المال عني، فقال: «أدعوت بدواةٍ لتكتب إلى مخلوقٍ مثلك تُذكّره ذلك؟»، فقلت: نعم يا رسول لله، فكيف أصنع؟ فقال: «قل اللّهم اقذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي عمّن سواك، حتى لا أرجو أحداً غيرك. اللّهم وما ضعفت عنه قوّتي، وقصُر عنه عملي، ولم تنته إليه رغبتي، ولم تبلغه مسألتي، ولم يجر على لساني مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصّني به يا رب العالمين»، قال: فوالله ما

ألححت به أسبوعاً حتى بعث إليّ معاوية بألف ألفِ وخمسمائة ألفِ، فقلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يُخيِّب من دعاه، فرأيت النبي ﷺ، في المنام، فقال: «يا حسن كيف أنت؟» فقلت: بخيرٍ يا رسول الله، وحدّثته بحديثي، فقال: «يا بّني هكذا من رجا الخالق، ولم يرجُ المخلوق»[1].

وعاش الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، بعد تنازله عن الخلافة لمعاوية عشر سنوات، ثم توفي مسموماً، واتّهم يزيد بن معاوية أنه دسّ إلى إحدى زوجات الحسن، وهي جعدة بنت الأشعث بن قيسٍ أن تضع له السم ما دام سيُطلّقها، ووعدها أن يتزوجها بعده. وهناك من اتّهم معاوية نفسه بدسّ السم للحسن، بل اتُّهم معاوية بدس السم لعددٍ من الرجالات الذين ماتوا فجأةً، وهذا كله من افتراءات الأعداء والمغرضين الذين يتظاهرون بالإسلام، ويعملون باسمه.

(١) أخرجه الحاكم وابن عساكر.

الفصل الثالث

خلافة مُعاوية، رضي الله عنه

كانت مُدّة خلافة مُعاوية، رضي الله عنه، تسع عشرة سنةً وثلاثة أشهرٍ تقريباً. منذ أن تنازل له الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، في شهر ربيعٍ الأول سنة إحدى وأربعين إلى أن توفّي في رجب سنة ستّين.

كانت خلافة مُعاوية، رضي الله عنه، خيراً للمسلمين حيث انتهت مرحلة الفوضى والاقتتال، وزال تفكير الأعداء باستعادة المراكز التي تخلّوا عنها، إذ رجع المسلمون فوجّهوا قوتهم إلى مناطق الثغور، وانطلقوا للجهاد والدعوة والعمل، فعادت أيام الفتح، وقطع الروم بخاصةٍ أملهم بالرجوع إلى الأماكن التي فقدوها. لذا عُرف بدء خلافته بعام الجماعة إذ توحّدت كلمة المسلمين بعد اختلافٍ، واجتمعت جيوشهم بعد افتراقٍ فكان ذلك خيراً لهم، وسروراً لأنفسهم.

وأيام معاوية أوّل أيام الملك، فهو أوّل ملوك

الإسلام وخيارهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الأمر بدار رحمةٍ ونبوةٍ، ثم يكون رحمةً وخلافةً، ثم كائن مُلكاً عضوضاً، ثم كائن عتواً وجبريةً وفساداً في الأرض يستحلّون الحرير والفروج والخمور، ويُرزقون على ذلك، ويُنصرون حتى يلقوا الله عزّ وجل»[1].

وقال رسول الله ﷺ، لمعاوية: «إنك إن اتّبعت عورات الناس أفسدتهم». قال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، فنفعه الله بها[2].

سار معاوية بالناس سيرةً حسنةً فقرّب من كان بعيداً، وأحسن إلى من كان قريباً، واستمع إلى من كان نائياً، وحرص على جمع الكلمة، إذ أعطى الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، ما أراد، وأمّن عبد الله بن عبّاسٍ، رضي الله عنهما، ووصله، وكذلك فعل مع قيس بن سعدٍ، رضي الله عنهما، إذ كان قيس على رأس جيشٍ قوامه أربعون ألفاً، أرسله عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، لقتال أهل أذربيجان، فلما قُتل عليّ، وتولّى الحسن الخلافة عزل سعداً عن أذربيجان، وعيّن مكانه عبد الله بن عبّاسٍ، ولما سار الحسن لقتال أهل

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) البداية والنهاية.

الشام، على غير رأيه، جعل سعداً على مقدمته لشدّة رغبته بقتال أهل الشام، وعندما تنازل الحسن لمعاوية، كتب الحسن إلى سعد بن قيسٍ أن يسمع ويُطيع فأبى هو ومن معه، بل أمّره من معه من الجند عليهم، وتعاهدوا على قتال مُعاوية حتى يشترط لهم، وأرسل مُعاوية إلى قيسٍ يُذكِّره الله، ويقول له: على طاعة من تُقاتل، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟ فأبى قيس أن يلين له، حتى أرسل له مُعاوية بسجلٍ قد ختم في أسفله، وقال له: اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: لا تُعطه هذا وقاتله، فقال مُعاوية: على رسلك! فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك. فلما بعث مُعاوية بالسجل إلى قيسٍ، اشترط قيس فيه له ولمن معه الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل مُعاوية في ذلك السجل مالاً، فأعطاه مُعاوية ما سأل، فدخل قيس ومن معه في الجماعة وأعطوا الطاعة.

وقرّب مُعاوية إليه كذلك زياد بن أبيه، وقد كان زياد من قبل من أعوان عليٍّ، ووالياً على خراسان، فلما قُتل عليّ، رضي الله عنه، وتنازل الحسن، رضي الله عنه، اعتصم زياد بخراسان، فراسله مُعاوية، وما زال به حتى أرضاه، واستقدمه، ثم ولاّه.

وهكذا اجتمعت كلمة المسلمين، ولم يبق من مُعارضٍ بل دخل الجميع في الطاعة، وأعطوا البيعة، وتقدّموا للجهاد، فكان الصحابة أمثال عُبادة بن الصامت، وخالد بن زيد أبي أيوب الأنصاريّ، والحسن والحسين ابنا عليٍّ، وعبد الله بن عباسٍ، وشداد بن أوسٍ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو وغيرهم في طليعة المجاهدين، كما تولّى فضالة بن عبيد[1] قضاء دمشق، وكان ينوب عن مُعاوية في الإمرة إذا غاب. ومع ذلك يمكن أن نقول: إنه قد بقي بعض أهل الأهواء كالخوارج الذي كانوا يُخفون آراءهم في الأحوال العادية، وإذا سنحت لهم الفرصة أظهروها، وأحدثوا شغباً وفوضى، وربما خرجوا على الدولة، ولكن لم يكن أثرهم كبيراً أيام مُعاوية، كما بقي عدد من المشاغبين وأهل الفوضى

(١) فَضالة بن عُبيد بن نافذ بن قيس الأوسي الأنصاري، القاضي الفقيه، من أصحاب رسول الله ﷺ، من أصحاب بيعة الرضوان. خرج إلى الشام وسكنها، وشهد فتح مصر، وولي بها القضاء، أيضاً، وولي أمر البحر لمعاوية، كما كان أحد قادة البر في الحرب مع الروم. ويُعدّ فضالة في كبار القراء. وتوفي سنة ثلاثٍ وخمسين، وحمل معاوية نعشه، وقال معاوية لابنه عبد الله بن معاوية: تعال أعقبني، فإنك لن تحمل مثله أبداً.

والأهواء، وكان مركزهم الرئيسي في الكوفة والبصرة.

الولايات:

كانت الدولة الإسلامية عدة ولاياتٍ رئيسيةٍ، وربما يضمّ بعضها عدداً من الإمارات التي دون الولايات. وكان لبعض هذه الولايات أهمية خاصّة، وقد تزداد هذه الأهمية في مرحلةٍ من المراحل فيُضاف لها عدد من الإمارات، وقد تضعف باقتطاع أجزاء منها، وربما تأتي الأهمية لما في الولاية من ثغورٍ أو بما تتولاّه من أمر الجهاد. ومن أشهر الولايات الإسلامية أيام مُعاوية:

١ ـ الشام:

وتولّى مُعاوية إمرة دمشق بعد وفاة أخيه يزيد في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة، وجُمعت له الشام في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وبقي عليها حتى آلت إليه الخلافة، فهو في هذه المدة الطويلة قد عرف أهل الشام وعرفوه، وخبرهم وخبروه، وعلم من تجربته الطويلة معهم أن أهل الشام يخضعون إلى من يلين لهم مع حزمٍ، ويتبعون إلى من يستشير كبارهم، ويُقدّم أعيانهم، ويُطيعون من يُسايرهم ويُبدي تقديره لهم، ويُظهر محبته لهم، ومن قادهم وفق ذلك أحبوه، ومن أحبوه أطاعوه، وحملوه على رؤوسهم، وقد لان معاوية

لأهل الشام فخضعوا له، وأخذهم بالحزم فقبلوا منه، واستشار كبارهم وقدّمهم فتبعوه، وسايرهم فأطاعوه وأبدى لهم التقدير فأحبّوه، وحملوه على رؤوسهم في الوقائع كلها حتى في المعارك ضد عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، رجل السابقة، والبطولة، والجهاد، والقرابة، والعلم.

وقد فهموا الإسلام فهماً صحيحاً فلم يخطر ببال أحدٍ منهم أن مُعاوية غريباً عن هذه الدار، وأن بني أمية لم يكونوا من أهل هذا المصر، إذ عرفوا أن المسلم من أهل الإقليم الذي يسكنه بغضّ النظر عن الإقليم الذي انتقل منه، وأن جنسية المسلم هي عقيدته التي يحملها بين جوانحه بغضّ النظر عن التبعية لهذه الأقسام التي وُجدت عندما ضعُف أمر المسلمين. فكثيراً ما نقرأ في تاريخنا وسيرة أسلافنا، انتماء عَلَم إلى إقليم، ونسبته إليه، واشتهاره بهذه النسبة حتى تغدو دلالةً لا يُعرف إلا بها، ولكن تبدّلت هذه المفاهيم في بعض المناطق نتيجة البعد عن الإسلام.

وقد أحبّ مُعاوية الشاميين وأحبّوه حتى صاروا بطانته، وغدوا شيعته في الملمات، وقد حافظ مُعاوية على هذه الصلة بينه وبين شيعته فلم يترك لها مجالاً

للانقطاع، ولم يدع سبباً للارتخاء، فإذا أرخوا شدّ، وإذا شدّوا أرخى، حتى عرفت هذه السياسة بـ «شعرة مُعاوية» فالصلة قائمة رغم دقّتها وسهولة قطعها.

وتعود أهمية ولاية الشام إلى وجود ثغور المسلمين فيها على حدود الروم، ففيها رباطات الجهاد الأساسية، ومنها تنطلق الصوائف والشواتي، وعلى موانئها تُبنى السفن وتتحرّك الأساطيل لغزو البحر، وقتال الروم أيضاً بعد أن صار للمسلمين أسطول في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أيام إمرة معاوية على الشام، وأهمية الشام أيضاً أنها قاعدة مُعاوية، ومقرّ سلطانه، ومكان شيعته. وفي الشام عدة إمارات، وإن تغيّرت على مراحل العهد، ومنها: حمص، وقنّسرين، وإنطاكية والجزيرة.

لم يحدث في ولاية الشام ما يُعكّر على معاوية صفوه، بل كانت سنده في كل أمرٍ.

٢ ـ الكوفة:

وتعود أهميتها إلى أنها قاعدة الجهاد لمناطق شمالي العراق، وإقليم الجبال، وأذربيجان وبلاد اللان. وفي الوقت نفسه فقد كانت الكوفة مركز ثقل بالنسبة

للذين يُعادون الحكم الأموي. كان يُقيم فيها عدد من الخوارج، واعتاد أهلها الخروج على الحكم ونقده كلما لان لهم الولاة، فإذا اشتدوا عليهم خنعوا، لذا كان ولاة هذا المصر من أعنف الولاة وأقساهم، وقد اختيروا كي يُناسبوا ما اعتاد عليه السكان من خروج.

كان السكان في الكوفة يقبعون في بيوتهم، ويتركون من تعهّدوا نصرته، وذلك إذا لاحت لهم شدّة وخافوا بطش الوالي. وقد قتل حُجر بن عدي[1]،

---

(١) حُجر بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية الكندي: وهو حجر الخير، الكوفي، أبو عبد الرحمن، الشهيد، له صحبة ووفادة.
عُرف أبوه باسم «عدي الأدبر»، وكان قد طُعن مُولّياً فسُمّي الأدبر.
وفد حُجر بن عدي مع أخيه هانئ بن الأدبر. ولا رواية له عن النبي ﷺ، سمع من عليٍّ، وعمّارٍ. كان حجر شريفاً، أميراً مطاعاً، أمّاراً بالمعروف، مقدّماً على الإنكار، من أصحاب عليٍّ، شهد معه صفّين أميراً، وكان ذا صلاحٍ وعبادةٍ. وكان قد شهد القادسية.
كذّب زياد بن أبيه متولّي أمر العراق، وهو يخطب، وحصبه مرةً أخرى، فكتب فيه إلى معاوية، فعسكر حُجر بثلاثة آلافٍ بالسلاح. وخرج عن الكوفة، ثم بدا له غير ذلك، وقعد، فخاف زياد من ثورته ثانيةً، فبعث به في جماعةٍ إلى مُعاوية.
قال ابن سعد: كان حُجر جاهلياً، إسلامياً، شهد القادسية، =

. . . .

= وهو الذي افتتح مرج عذراء، وكان عطاؤه ألفين وخمسمائةٍ.
ولما قدم زياد والياً، دعا به، فقال: تعلم أني أعرفك، وقد كنت أنا وأنت على ما علمت من حبّ عليٍّ، وإنه قد جاء غير ذلك، فأنشُدُك الله أن يُقطر لي من دمك قطرة، فأستفرغه كله، أَمْلِك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريري فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدي، فاكفني نفسك، فإني أعرف عَجَلَتَك، فأنشدك الله يا أبا عبد الرحمن في نفسك، وإياك وهذه السَّفَلَة أن يستزلّوك عن رأيك، فإنك لو هُنت عليّ، أو استخففت بحقك، لم أُخصّك بهذا، فقال: قد فهمت. وانصرف.
فأتته الشيعة، فقالوا: ما قال لك؟ فأخبرهم. قالوا: ما نصح. فأقام وفيه بعض الاعتراض، والناس يختلفون إليه، ويقولون: أنت شيخنا، وأحقّ من أنكر، وإذا أتى المسجد، مشوا معه، فأرسل إليه خليفة زياد على الكوفة عمرو بن حريث ـ وزياد بالبصرة ـ: ما هذه الجماعة؟ فقال للرسول: تنكرون ما أنتم فيه؟ إليك وراءك أوسع لك. فكتب عمرو إلى زياد: إن كانت لك حاجة بالكوفة فعجّل. فبادر، وبعث إلى حُجرِ عديّ بن حاتم، وجرير بن عبد الله، وخالد بن عُرْفُطة، ليُعْذِروا إليه، وأن يكفّ لسانه، فلم يُجبهم، وجعل يقول: يا غلام اعلف البَكر. فقال عديّ: أمجنون أنت؟ أُكلمك بما أُكلمك، وأنت تقول هذا؟ وقال لأصحابه: ما كنت أظنّ بلغ به الضعف إلى كل ما أرى، ونهضوا فأخبروا زياداً (فأخبروه ببعض وخزنوا بعضاً) وحسّنوا أمره، وسألوا زياداً الرفق به، فقال: لست إذن لأبي سفيان، فأرسل إليه الشُّرَط والبخارية، فقاتلهم بمن معه، =

رضي الله عنه، أحد الذين سكنوا الكوفة، وهو في طريقه إلى الشام، وكان لمقتله أثر كبير على الحكم الأموي في الشام. واتّهم المرجفون مُعاوية، رضي الله عنه، بقتل حجر ـ كالعادة ـ.

خرج الحسن والحسين ابنا عليٍّ، رضي الله عنهم، من الكوفة، ومعهما ابن عمهما عبد الله بن جعفر، باتجاه المدينة، وذلك بعد تنازل الحسن، ودخل مُعاوية الكوفة في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، وولّى عليها عبد الله بن عمرو بن العاص، غير أنه عاد فعزله قبل أن يصل إليها، ذلك أن المغيرة بن شعبة قال لمعاوية: أتوليه الكوفة وأباه مصر، وتبقى أنت بين لَحْيي

= ثم انفضّ أصحابه عنه، وأُتي به إلى زيادٍ وبأصحابه، فقال: ويلك ما لك؟ قال: إني على بيعتي لمعاوية. فجمع زياد سبعين، فقال: اكتبوا شهادتكم على حُجرٍ وأصحابه، ثم أوفدهم على معاوية، وبعث بحُجرٍ وأصحابه إليه، فبلغ عائشة الخبر، فبعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى مُعاوية تسأله أن يُخلّي سبيلهم، فقال مُعاوية: لا أُحبُّ أن أراهم، هاتوا كتاب زيادٍ، فقُرئ عليه، وجاء الشهود. فقال معاوية: اقتلوهم عند عذراء. فقال حُجر: ما هذه القرية؟ فقالوا: عذراء. قال: أما والله إني لأول مسلم نبّح كلابها في سبيل الله. وخلّف حُجر ولدين: عبيد الله وعبد الرحمن، قتلهما مصعب بن الزبير.

الأسد؟ فثناه عن ذلك. فولى مُعاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة، وبقي عليها أميراً حتى تُوفي سنة خمسين، وقد سار بالناس سيرة لينٍ ودهاءٍ.

واجتمع عمرو بن العاص بمعاوية بعد أن ولّى المغيرة بن شعبة[1] على الكوفة، فقال عمرو لمعاوية: أتجعل المغيرة على الخراج؟ هلا ولّيت الخراج رجلاً

---

(١) المغيرة بن شُعبة بن أبي عامر بن مسعود بن مُعتّب الثقفيّ، الأمير أبو عيسى، ويقال: أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد: صحابي، من أولي الشجاعة والمكيدة، شهد بيعة الرضوان، وذهبت عينه يوم اليرموك. كان طويلاً مهيباً، ضخم الهامة، عَبْل الذراعين، بعيد ما بين المنكبين. وكان داهيةً، يقال له: مغيرة الرأي. سافر إلى مصر قبل إسلامه، وجلس مع المقوقس، وفي طريق العودة قتل صحبه، ورجع إلى المدينة مسلماً وسافر مع النبي ﷺ، إلى الحديبية.

ولاّه الفاروق على البحرين، ثم عزله، ثم ولاّه على البصرة بعد وفاة عتبة بن غزوان فبقي فيها ثلاث سنين. كان أمير وقعة أذربيجان، وفتح همدان عنوةً. وشهد القادسية، وكان قد قابل قائد الفرس مع وفد.

حجّ المغيرة بالناس سنة أربعين. واعتزل الفتنة، وأقام بالطائف. ثم راسل مُعاوية، وتولّى له أمر الكوفة. ومات سنة خمسين، وله سبعون سنةً.

له في الصحيحين اثنا عشر حديثاً، وانفرد له البخاري بحديثٍ، ومسلم بحديثين.

آخر، فعزله عن الخراج وولاّه على الصلاة، فقال المغيرة لعمرو في ذلك، فقال له: ألست المشير على أمير المؤمنين في عبد الله بن عمروٍ؟ قال: بلى، قال: فهذه بتلك.

لما دخل معاوية الكوفة، قالت فرقة من الخوارج ـ نحو من خمسمائةٍ ـ جاء ما لا يُشكّ فيه، فسيروا إلى مُعاوية فجاهدوه، فساروا حتى قربوا من الكوفة، وعليهم فروة بن نوفل، فبعث إليهم مُعاوية خيلًا من أهل الشام، فطردوا الشاميين، فقال لهم مُعاوية: لا أمان لكم عندي حتى تكفّوا بوائقكم، فخرجوا إلى الخوارج، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا؟ أليس مُعاوية عدوّكم وعدوّنا؟ فدعونا حتى نُقاتله، فإن أصبناه كنا قد كفيناكموه، وإن أُصبنا كنتم قد كُفيتمونا. فقالوا: لا، والله حتى نُقاتلكم، فقالت الخوارج: يرحم الله إخواننا من أهل النهروان، كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، فاقتتلوا، فهزمهم أهل الكوفة وطردوهم.

وغدت الكوفة بعد وفاة المغيرة تتبع زياد بن أبيه الذي كان يُقيم فيها ستة أشهرٍ، وفي البصرة مثلها، وحيث يكون يُولّي مكانه في المصر الآخر نائباً عنه.

تُوفّي زياد بن أبيه سنة ثلاثٍ وخمسين فتولّى أمر

الكوفة بعده عبد الله بن خالد بن أُسيد مدة سنتين، ثم خلفه الضحّاك بن قيسٍ الفهريّ[١]، واستمرّ في إمارته حتى عُزل سنة ثمان وخمسين، وتولّى أمرها بعده عبد الرحمن بن أم الحكم، ابن أخت مُعاوية، ثم تلاه النعمان بن بشيرٍ[٢]، وبقي فيها حتى وفاة مُعاوية.

---

(١) الضحاك بن قيس بن خالدٍ، الأمير أبو أمية، وقيل: أبو أُنيس، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو سعيد، الفهري القرشي: من صغار الصحابة، شهد فتح دمشق، وسكنها، وكان على عسكر دمشق يوم صفّين. كان الضحاك مع مُعاوية، وتولّى له أمر الكوفة، وهو الذي صلّى على مُعاوية، وقام بخلافته حتى قدم يزيد، وتولّى أمر دمشق سنتين في أواخر أيام مُعاوية واستمر عليها حتى هلك يزيد.

دعا إلى ابن الزبير، وبايع له بعد وفاة يزيد. ثم بدّل، ثم عاد، وجرى القتال بينه وبين مروان في مرج راهط (موقع حرستا اليوم) في منتصف ذي الحجة سنة أربعٍ وستين، وقتل الضحاك.

(٢) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة، الأمير العالم، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، أبو عبد الله، ويقال: أبو محمد، الأنصاري الخزرجي، ابن أخت عبد الله بن رواحة. شهد أبوه بدراً. ولد النعمان في السنة الثانية للهجرة، وسمع من النبيّ ﷺ، وعُدّ من الصحابة الصبيان باتفاق. مسنده مائة وأربعة عشر حديثاً، اتفقا له على خمسةٍ، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بأربعة.

كان من أمراء معاوية، فولاّه الكوفة مدةً، ثم ولي قضاء دمشق =

٣ ـ البصرة:

وتأتي أهميتها من أن جيوش الفتح في فارس، وخراسان، وسجستان ترتبط بها، لذا تعدّ من أوسع الولايات، وواليها هو الذي يُرسل الأمراء منها إلى الإمارات التي تتبعها، وإن كان الخليفة يُعيّنهم أحياناً، أو يأمر بإرسال أشخاصٍ بأعينهم، وربما كانوا في أحيانٍ قليلةٍ منفصلين عن البصرة.

بعد أن تنازل الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، وارتحل إلى المدينة، غلب على البصرة حُمران بن أبان، فبعث مُعاوية إليه جيشاً ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكرة الثقفي(١) إلى مُعاوية فسأله في الصفح والعفو، فعفا عنهم

= بعد فضالة بن عبيدٍ، ثم ولي إمرة حمص. دعا النعمان إلى بيعة ابن الزبير، فقتل بعد معركة مرج راهطٍ في آخر عام أربعة وستين، قتله خالد بنٍ خَلي.

(١) أبو بكرة الثقفي: مولى رسول الله ﷺ، اسمه نُفيع بن الحارث، وقيل: نُفيع بن مسروح. تدلّى في حصار الطائف ببكرةٍ، وفرّ إلى النبي ﷺ، وأسلَمَ على يده، وأعلمه أنه عبد فأعتقه. روى عدة أحاديث.

سكن البصرة، وكان من فقهاء الصحابة، ووفد على معاوية، وأمه سُميّة، فهو أخو زياد بن أبيه لأمه. كان عبداً للحارث بن كلدة، فاستلحقه، وسمية مولاة الحارث. توفي أبو بكرة في خلافة معاوية اثنتين وخمسين.

وأطلقهم، وولّى على البصرة بُسر بن أرطأة[1]، فتسلّط بُسر على أولاد زياد بن أبيه يُريد قتلهم، وذلك أن مُعاوية كتب إلى أبيهم ليحضر إليه فلبث، فكتب إليه بُسر: لئن لم تُسرع إلى أمير المؤمنين، قتلت بنيك. فبعث أبو بكرة إلى معاوية في ذلك. وقد قال معاوية لأبي بكرة: هل لك من عهدٍ تعهده إلينا؟ قال: نعم، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر إلى نفسك ورعيتك، وتعمل صالحاً فإنك تقلّدت عظيماً؛ خلافة الله في خلقه، فاتق الله فإنّ لك غايةً لن تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشك أن يبلغ المدى فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عما كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنما هي محاسبة وتوقيف، فلا تُؤثرنّ على رضا الله شيئاً.

---

(١) بُسر بن أرطاة، الأمير أبو عبد الرحمن القرشي العامري الصحابي نزيل دمشق. ولد سنة ثلاثٍ للهجرة، فكان عمره ثمان سنوات عند وفاة رسول الله ﷺ. له حديث: (لا تقطع الأيدي في الغزو) شهد فتح مصر. وولي لمعاوية الحجاز واليمن ففعل قبائح، ووُسْوِس في آخر عمره. كان فارساً شجاعاً، وله نكاية في الروم.

قتل قثم وعبد الرحمن ابني عبيد الله بن عباس صغيرين باليمن، وقتل جماعةً من أصحاب عليٍّ، وهدّم بيوتهم بالمدينة، وقال: لولا عهد معاوية ما تركت بها محتلماً إلا قتلته. وتوفي حوالي سنة سبعين.

عزل مُعاوية بُسر بن أرطأة عن البصرة في نهاية العام، وولّى عليها عبد لله بن عامرٍ[1] الذي بقي فيها حتى عام أربعةٍ وأربعين حيث عُزل عنها، وتولّى شؤونها زياد بن أبيه، وبعد وفاة المغيرة بن شعبة والي الكوفة سنة خمسين، ضُمَّت الكوفة إلى زيادٍ أيضاً، فكان يُقيم بالكوفة ستة أشهرٍ، وفي البصرة مثلها، كما ضُمَّت إليه البحرين، واليمامة، وعُمان، فلما انتقل زياد إلى البصرة أناب عنه بالكوفة سمُرة بن جندبٍ الفزاري.

توفي زياد عام ثلاثةٍ وخمسين فتولّى أمر البصرة سمُرة بن جندبٍ مدّة ستة أشهر، ثم خلفه عليها عبد الله بن عمرو بن غيلان، ثم عزله مُعاوية سنة خمسٍ وخمسين، وولّى على البصرة عبيد الله بن زياد، الذي كان والياً على خراسان، وبقي فيها حتى توفّي مُعاوية سنة ستين.

---

(١) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، الأمير أبو عبد الرحمن، افتتح إقليم خراسان، وهو ابن خال عثمان بن عفان، وأبوه عامر هو ابن عمة رسول الله ﷺ، البيضاء بنت عبد المطلب.
ولي عبد الله بن عامر البصرة لعثمان بن عفان، ووفد على معاوية فزوّجه ابنته هنداً. وولاّه البصرة، وافتتح كرمان وسجستان، كان من الشجعان الأجواد.
توفي سنة تسعٍ وخمسين فقال معاوية: بمن نُفاخر وبمن نُباهي بعده؟.

ومن إمارات البصرة:

أ ـ خراسان: وكانت تتبع البصرة في أغلب الأحيان، ويُعيّن أمراؤها من قبل ولاة البصرة، ولما تنازل الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، عن الخلافة لمعاوية كان زياد بن أبيه في خراسان عاملاً عليها من قبل عليٍّ، رضي الله عنه. فاعتصم بها في القلعة المعروفة باسم (قلعة زياد)، فلما استرضاه معاوية، وارتحل زياد إلى الشام كان عبد الله بن عامر والي البصرة فأرسل إلى خراسان قيس بن الهيثم، ثم عبد الله بن خازم. فلما أصبح زياد والياً على البصرة سنة أربع وأربعين أرسل إلى خراسان طفيل بن عمرو اليشكري، وأرسل بعده الحكم بن عمرو الغفاري(١)

---

(١) الحكم بن عمرو الغفاري: الأمير، أخو رافع بن عمرو، وهما من بني ثُعيلة، وثُعيلة أخو غِفار.
نزل الحكم البصرة، وله صحبة ورواية، وفضل وصلاح، ورأي وإقدام.
بعث زياد بن أبيه الحكم بن عمرو على خراسان فغنموا غنائم كثيرة، فكتب زياد إليه: إن أمير المؤمنين أمر أن تُصطفى له الصفراء والبيضاء. فكتب إليه: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وأمر منادياً، فنادى: أن اغدوا على فيئكم. فقسّمه بينهم. فوجّه معاوية إليه من سَجَنَهُ، فمات سنة إحدى وخمسين في السجن.

فبقي فيها حتى مات سنة إحدى وخمسين فأرسل زياد إليها الربيع بن زياد الحارثي، وكان الحكم قد ولّى مكانه أنس بن أبي ناس، وكتب إلى زياد بذلك، فخلع زياد أنساً، وعيّن مكانه خُليد بن عبد الله الحنفي فبقي شهراً حتى جاء الربيع بن زياد الحارثي. كما توجّه إلى خراسان بأمرٍ من زيادٍ غالب بن فضالة الليثي ليُساعد الحكم بن عمرو الغفاري. وتُوفيّ الربيع سنة ثلاثٍ وخمسين، وخلفه ابنه عبد الله بن الربيع، ولم يلبث شهراً حتى تُوفّي أيضاً فخلفه خُليد بن عبد الله الحنفي.

وتولّى أمر خراسان سنة أربعٍ وخمسين عبيد الله بن زياد[1]، ولما أخذ ولاية البصرة في العام التالي بعث إلى

---

(١) عبيد الله بن زياد بن أبيه: ولد في خلافة عثمان سنة ثلاثٍ وثلاثين، ولي أمر البصرة سنة خمسٍ وخمسين، وله ثنتان وعشرون سنةً، وتولّى أمر خراسان فكان أوّل عربي قطع نهر جيحون، وافتتح بيكند، وقيل: إن أمه مرجانة كانت من بنات ملوك الفرس.

كان عبيد الله بن زياد العامل الأول في مقتل الحسين بن عليّ، رضي الله عنهما، فلما جاء نعي يزيد هرب عبيد الله بعد أن كاد يُؤسر، ووصل إلى الشام، وانضمّ إلى مروان بل أقنعه للدعوة لنفسه، وترك ابن الزبير بعد أن فكر بمبايعته. وبعد هرب عبيد الله من البصرة أمّر أهلها عليهم عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي. =

خراسان أسلم بن زرعة. وفي سنة سبعٍ وخمسين تولّى أمر خراسان سعيد بن عثمان بن عفانٍ، ثم عُزل، وتولّى مكانه عبد الرحمن بن زيادٍ.

ب ـ **سجستان:** ومن أشهر أمرائها عبّاد بن زيادٍ.

ج ـ **كرمان:** ومن أشهر أمرائها شريك بن الأعور، وكان من قبل عبيد الله بن زيادٍ.

٤ ـ المدينة المنورة:

وهي أهم الولايات، ومركز الثقل بالنسبة إلى الخلافة، إذ يعيش فيها الصحابة وأبناؤهم من المهاجرين والأنصار، ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يُبايع أهل المدينة إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يُطيعه الناس ويسيرون برأيه.

لما تنازل الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما، ورجع إلى المدينة، بايعت المدينة لمعاوية، فولّى عليها

= وجهّز مروان إلى العراق عبيد الله بن زياد، فالتقى بالأشتر قائد المختار الثقفي، وجرت معركة قتل فيها عبيد الله وذلك يوم عاشوراء سنة سبعٍ وستين، وقتل معه الحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع. كان عبيد الله جميل الصورة قبيح السريرة.

مروان بن الحكم[1]، وبقي عليها حتى عُزل عنها سنة تسعٍ وأربعين، وتولّى مكانه سعيد بن العاص بن سعيدٍ بن العاص[2]، ثم أُعيد إليها مروان بن الحكم مرةً

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو عبد الملك القرشي الأموي: ولد في السنة الأولى للهجرة، كان كاتب ابن عمه عثمان بن عفان. وأجلب الناس على عثمان بسببه.
شهد معركة الجمل بجانب طلحة والزبير. وولي المدينة لمعاوية مرتين. ولما مات يزيد، وبويع عبد الله بن الزبير، وقف في وجهه بتحريضٍ من عبيد الله بن زياد، ثم ادّعى الخلافة، وقاتل الضحاك بن قيس الفهري، ودخل دمشق، واستولى على الشام، وأخذ مصر تسعة أشهرٍ، ومات في أول رمضان سنة خمسٍ وستين.

(٢) سعيدُ بن العاص بن أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: قُتل أبوه يوم بدرٍ مشركاً، وخلّف سعيداً طفلاً. كان سعيد أميراً، شريفاً، جواداً، حليماً، ذا حزمٍ وعزمٍ.
ولي إمرة الكوفة لعثمان بن عفان، اعتزل الفتنة، فلم يُقاتل بجانب مُعاوية، ولما صفا الأمر لمُعاوية وفد إليه، فاحترمه، وأجازه بمالٍ جزيلٍ.
ولما كان على الكوفة غزا طبرستان، وافتتحها. ولما كان يوم الدار كان مع المدافعين عن عثمان. وكان سعيد بن العاص أحد من ندبه عثمان لكتابة المصحف لفصاحته، وشبه لهجته بلهجة رسول الله ﷺ. ولد سعيد في السنة الثانية، وتوفي سنة ثمانٍ وخمسين. مات وعليه ثمانون ألف دينار.

ثانيةً سنة أربعٍ وخمسين، ولكنه عُزل ثانيةً عام ثمانيةٍ وخمسين، وتولّى أمر ولايتها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان[1]، وبقي فيها حتى تُوفّي مُعاوية.

أما بقية ولايات الجزيرة فكانت قليلة الأهمية إذ ليست على الثغور، كما أنها بعيدة عن مقر الخلافة. فكانت ولايات البحرين، وعُمان في شرقي الجزيرة، واليمامة في وسطها، فكانت هذه الولايات تتبع أحياناً البصرة، وتكون أحياناً ولاياتٍ خاصةً يتسلّمها ولاة لم يشتهر أمرهم لعدم شهرة ولاياتهم، وكذا الأمر بالنسبة إلى اليمن.

أما مكة المكرمة فقد أرسل إليها عليّ بن أبي طالبٍ خالد بن العاص بن هشام المخزومي، لكنه أُعيد، فأرسل قثم بن العباس، فلما تمّ الأمر لمعاوية أعاد خالد بن العاص بن هشام على مكة.

أما الطائف فقد تتبع والي مكة، وربما تكون مكة والطائف تبعاً للمدينة.

---

(١) الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن حرب: ولي المدينة لعمّه مُعاوية، وكان ذا جودٍ، وحلمٍ، وسؤددٍ، وديانة. وولي الموسم مراتٍ. ولما جاءه نعي عمه معاوية وبيعة يزيد لم يُشدّد على الحسين بن عليٍّ، وعبد الله بن الزبير، فخرجا، فلامه مروان بن الحكم. وقيل: أرادوه على الخلافة بعد معاوية بن يزيد فأبى، ومات بعده.

٥ ـ مصر:

دخل عمرو بن العاص مصر والياً عليها من قبل مُعاوية بن أبي سفيان، فتمكّن من هزيمة محمد بن أبي بكرٍ والي مصر من قبل علي بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه. وقُتل محمد بن أبي بكر يومذاك، وهكذا خرجت مصر عن طاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

بقي عمرو بن العاص والياً على مصر حتى توفي عام ٤٣هـ، فتولّى أمرها بعده ابنه عبد الله بن عمرو مدةً قصيرةً، ثم عتبة بن أبي سفيان حتى سنة أربعٍ وأربعين، وجاء بعده عقبة بن عامر الجهنيّ(١) حتى سنة سبعٍ وأربعين، ثم مُعاوية بن حُديجٍ(٢) الذي ولّى أمر المغربَ

---

(١) عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهنيّ: كان عالماً، قارئاً، فصيحاً، فقيهاً، فرضياً، شاعراً، كبير الشأن، صاحب النبي ﷺ. كان البريد إلى عمر بفتح دمشق. شهد فتح مصر. وشهد صفين مع معاوية، وولي الجند بمصر لمعاوية، ثم عزله بعد ثلاث سنين، وأغزاه البحر. ومات بمصر سنة ثمان وخمسين. وكان من أهل الصفة أيام رسول الله ﷺ.

(٢) مُعاوية بن حُديج بن جفنة بن قتيرة الكندي السكوني: له صحبة، ورواية قليلة، روى عن عمر، وأبي ذرّ، ومعاوية. شهد اليرموك. ولي إمرة مصر لمعاوية وغزو المغرب، مات بمصر سنة اثنتين وخمسين.

عقبة بن نافع الفهريّ[1] الذي كان أمير برقة، وذلك بناءً على أوامر الخليفة مُعاوية بن أبي سفيان، وفي سنة خمسين عُزل مُعاوية بن حُديج عن مصر وإفريقية، وتولّى أمرهما مَسلمة بن مُخلّدٍ[2]، فعزل عن إفريقية عقبة بن نافع وأعطاها إلى مولىً له يُقال له: أبو المهاجر. ولم يزل مَسلمة بن مخلّد عاملاً على مصر وإفريقية، وأبو المهاجر في إفريقية حتى توفيّ مُعاوية.

الفتوحات في عهد مُعاوية:

عادت للأمة وحدتها، واجتمعت كلمتها على مُعاوية، رضي الله عنه، فلا بدّ لها من أن تنطلق لتؤدّي المهمّة المكلّفة بها من ربّ العالمين، وهي دعوة العباد لعبادة الله وإفراده بالعبادة، وتخليصهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ومن جور الوثنيات التي يُسمّونها

(١) عقبة بن نافع القرشي الفهري: نائب إفريقية لمعاوية ويزيد، كان ذا شجاعةٍ، وحزمٍ، وديانةٍ، لم يصح له صحبة. شهد فتح مصر، واختطّ بها، وأنشأ مدينة القيروان. يُقال: إنه كان مجاب الدعوة. قدم عقبة على يزيد، فردّه والياً على المغرب سنة اثنتين وستين، فغزا السوس الأدنى، ثم رجع، وقد سبقه جلّ جيشه، فخرج عليه جمع من العدو، فقُتل عقبة وأصحابه.

(٢) مَسْلَمة بن مُخَلَّد بن الصامت الأنصاري الخزرجي: ولد في السنة الأولى للهجرة، من أمراء معاوية يوم صفين، وولي له ولابنه يزيد إمرة مصر. وتوفي سنة اثنتين وستين بالإسكندرية.

السنة	المدينة المنورة	الكوفة	البصرة	مصر
٤١	سهل بن حنيف مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	حمران بن أبان بسر بن أرطأة	عمرو بن العاص
٤٢	مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر	عمرو بن العاص
٤٣	مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر	عمرو بن العاص عبد الله بن عمرو
٤٤	مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر زياد بن أبيه	عتبة بن أبي سفيان
٤٥	مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	عقبة بن عامر
٤٦	مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	عقبة بن عامر
٤٧	مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	عقبة بن عامر
٤٨	مروان بن الحكم	المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	معاوية بن حديج
٤٩	سعيد بن العاص	المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	معاوية بن حديج
٥٠	سعيد بن العاص	زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	معاوية بن حديج
٥١	سعيد بن العاص	زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	مسلمة بن مخلد
٥٢	سعيد بن العاص	زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	مسلمة بن مخلد
٥٣	سعيد بن العاص	زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	مسلمة بن مخلد
٥٤	مروان بن الحكم	عبد الله بن خالد	سمرة بن جندب عبد الله بن عمرو بن غيلان	مسلمة بن مخلد
٥٥	مروان بن الحكم	عبد الله بن خالد	عبيد الله بن زياد	مسلمة بن مخلد
٥٦	مروان بن الحكم	الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	مسلمة بن مخلد
٥٧	مروان بن الحكم	الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	مسلمة بن مخلد
٥٨	الوليد بن عتبة	الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	مسلمة بن مخلد
٥٩	الوليد بن عتبة	عبد الرحمن بن أم الحكم	عبيد الله بن زياد	مسلمة بن مخلد
٦٠	الوليد بن عتبة	النعمان بن بشير	عبيد الله بن زياد	مسلمة بن مخلد

ديانات إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا الفانية إلى سعة الآخرة الباقية، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

انطلق المسلمون للجهاد في سبيل الله، وخرجوا من كافة الأمصار، وشاركوا في جيوش الفتح، لم يتخلّف أهل مصرٍ، ولم يتوان سكان إقليمٍ. وإذا كان بعض المرجفين قد أظهروا جفوة بين المدينة ودمشق من خلال كلامهم ومُدوّناتهم إلا أن هذا أمر عارٍ عن الصحة تماماً، فأعيان المدينة من الصحابة وأبنائهم قد أعطوا البيعة، ودخلوا فيما دخلت به الجماعة، وصدقوا بالسمع والطاعة، وما كان عليهم إلا أن يصدقوا، فما كانوا ليُعطوا رياءً، وما كانوا يعرفون النفاق أو التقية، بل كانوا لا يخشون في الله لومة لائم، وما كانوا إلا ليقولوا كلمة الحق التي يعتقدون أنها حقّ مهما كانت النتائج، ويُجاهرون بها، ويُدافعون عنها، لذا نرى في جبهات القتال أولئك الصحابة وأبناءهم الذين يُصوّرهم المرجفون أنهم من المعارضين، نرى أمثال: عبادة بن الصامت، وأبي أيوب الأنصاريّ، والحسن بن عليّ، والحسين بن عليّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن الزبير و. . . . رضي الله عنهم جميعاً.

وربما كان الجانب العلمي الذي عُرف به بعضهم، أو الجانب الاجتماعي، يجعلنا نتصوّر من منظورٍ مُعاصرٍ أن

هؤلاء الصحابة وأبناءهم، قد بقوا في المدينة يُؤدّون دورهم التعليمي، أو لا تسمح لهم مكانتهم بالخروج إلى الجهاد، أو لا يُجيدون القتال وفنونه؛ للتوجّه للعلم أو للبيئة التي وُجدوا فيها. لا، إن هذا التصوّر لخاطئ، وإن هذا المفهوم لبعيد عن الصواب، إن هؤلاء كانوا يعرفون مسؤوليتهم في الدعوة ونشر الإسلام تمام المعرفة، ويعلمون واجبهم في الجهاد حق العلم، لذا كانوا في الصفوف الأولى، وفي طليعة الذين ينفرون في سبيل الله، وإذا عُدّ الأبطال كانوا من الأوائل فيهم، وإذا ذُكر الشجعان كانوا في الطليعة، بل كانوا من الأمراء على الكتائب، وإذا دُعي إلى المبارزة كانوا من أول من يُلبّي الدعوة ويخرجون، وقد يدعون هم إلى ذلك، ويتصدّون للأعداء رجالاً وركباناً.

كان هؤلاء الصحابة وأبناء الصحابة كذلك قبل الفتنة في الجهاد أيام الراشدين، وكانوا كذلك بعد الفتنة في الفتوحات أيام معاوية، لذا نجدهم في ساحات الجهاد على أبواب القسطنطينية تحت راية يزيد بن معاوية، وفي ميادين فتح شمالي إفريقية تحت راية عقبة بن نافع، وأبي المهاجر، ومع الجيوش الإسلامية في المشرق تحت راية كل أميرٍ لا يُبالون من يحمل الراية، ولكن الذي يُهمّهم فقط أن يكون القتال جهاداً في سبيل الله.

والواقع أنه قد بقيت فئة قليلة قذىً في عين الخلافة وشجىً في حلقها، إذ تُنغِّص على الآمنين حياتهم، وعلى المسؤولين صفوفهم، تُضعف أمر الجهاد وتُؤخّره، إذ لا ينضوي أفرادها تحت راياته، ويخشى القادة هذه الفئة خلفهم عندما ينطلقون إلى ساحات الوغى، من أن تُحدث الفساد وسفك الدماء، تلك هي فئة الخوارج.

لقد وقعت نتيجة أحداث الفتنة أخطاء في المجتمع الإسلامي بعضها يسيرٌ معروف تمحوه الحسنات، ويُتجاوز عنه بالإقرار، والاستغفار، والندم على ما وقع، والنيّة بالابتعاد عما حدث، وبعضها كبير يترتّب عليه أمر خطير، ولكن مع ما فيه من خطورةٍ فلن يُخرج صاحبه من الملّة ولا يُبعده عن الإسلام، إلا أن الخلاف، وما حدث من صراعٍ، وما جرّ ذلك إلى أحداثٍ داميةٍ وفواجع مُؤلمةٍ فَقد رأى بعض الأعراب أن ذاك كفر وخروج عن الجادة، وكفّروا من وقع منه ذلك، ورأوا قتاله بل وقتال من يُؤيّده ومن يسكت عنه. وبذا فقد كفّروا الرؤوس، وعدّوهم المسؤولين عما جرى، لقد كفّروا عثمان، وعليّاً، ومُعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص و.... وكل من سار معهم، وبذا فقد كان التكفير للمسلمين عامةً. وما داموا كُفّارًا فيجب

قتالهم، ودماؤهم مُباحة. وعلى ذلك بنوا فكرهم، وذلك مبلغهم من العلم.

لقد تشبّث الخوارج بذلك الفكر، وتحجّر عقلهم عليه حتى غدا جزءاً منهم تصعب مناقشتهم، ويستحيل معهم التغيير، ومن الأساس فهم أعراب يتحجّر عقلهم على ما يقبله، ويثبُت على ما يرسخ فيه.

لقد انتفض الخوارج حسب ما ثبت في عقولهم من مفهومات على المنطلق والمنهج الذي تسير عليه الخلافة، وما داموا يكفّرون الخليفة حسب منطلقاتهم، لذا فهم يخرجون عليه، ويستبيحون دماء المسلمين جميعاً لأنهم لم يخرجوا عليه بل لأنهم يُؤيّدونه، ويُقاتلون تحت رايته، فهم يُكفّرون ويخرجون حسب معتقدهم ورأيهم الخاص، لا حسب ما تقتضيه الشريعة الإسلامية التي لا توجب الخروج إلا إذا أظهر ولي الأمر كفراً بواحاً، كالردّة أو إنكار بعض المبادئ الأساسية أو موالاة الكفار، والتعاون معهم ضد المسلمين، أو تسليمهم بعض الأراضي، أو التساهل معهم بدخول الديار، والتمكن والاستقرار فيها وأخذ خيراتها و.... وشتّان بين خروج وخروج، وخوارج وخوارج. ويقتضي وجوب الخروج عدم إحداث فتنةٍ، وتسليم الأمر لمن هو أفضل من سابقه.

ساحات الجهاد:

لاحظنا أن الدولتين الكبريين اللتين كانتا في صراعٍ دائم عند ظهور الإسلام، قد وقفتا في وجه الدعوة وانتشار الإسلام، غير أن دولة الفرس قد انتهت وزالت من الأرض أمام جهاد المسلمين وضرباتهم المتتالية، وهذا ما جعل المسلمين على احتكاكٍ مع الأمم الوثنية التي كانت قائمةً شرق وشمال دولة الفرس البائدة، وكانت هذه الجبهة الشرقية للمسلمين، أما دولة الروم فقد بقيت قائمةً لمناعة أرضها، واتساع الأجزاء التي كانت تحتلّها سواء أكان ذلك في منطقة الأناضول وشرقي أوروبا أم في شمالي إفريقية، كما أن قوة الروم البحرية كانت مُتفوّقةً في بداية الأمر، لذا بذل مُعاوية، رضي الله عنه، جهداً كبيراً لبناء القوة الإسلامية في البحر. ووجّه قوّة ضخمةً إلى قلب بلاد الروم وعاصمتهم ليُركّز الروم جيوشهم هناك فتضعُف قوتهم في المناطق الأخرى، فيستطيع المسلمون دخولها بسهولةٍ، فتزداد قوتهم بإضافة أجزاء إليهم مع ما فيها من موارد وإمكاناتٍ، وفي الوقت نفسه تضعف قوّة الروم بخسارتهم وفقدانهم مقاطعاتٍ كانت لهم، فتضيع عليهم مع مواردها وإمكاناتها. وتُشكّل ساحات القتال مع الروم الجبهة الغربية للمسلمين.

الجبهة الغربية:

وتشمل ثلاثة ميادين:

١ ـ بلاد الأناضول:

وصل المسلمون في فتوحاتهم في العهد الراشدي إلى بلاد الأناضول، وتوقّفوا عند جبال طوروس الممتدة من البحر المتوسط عند (مرسين) نحو الشمال الشرقي. وقد أُقيمت هناك ثغور وقلاع لكلا الطرفين، ومن أشهرها: مرسين، والمصيصة، ومرعش، وملاطية، والحدث، وخرشنة، وزبطرة، وعين زربة، وكانت الغارات على الروم لا تنقطع أبداً، وقد يحدث تقدّم في بلاد الروم من قبل المسلمين بعد كثيرٍ من الغزوات، لكن لا يلبث أن يرجع المجاهدون إلى ثغورهم وقلاعهم.

وكان معاوية قد دوّخ الروم أيام إمارته على الشام، فلما شُغل المسلمون بأنفسهم وتوقّف غزوهم لبلاد الروم طمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخافه، وأذلّه، وقهر جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب عليٍّ، تدانى إلى بعض البلاد في جنودٍ عظيمةٍ وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمي

عليك، ولأُخرجنّك من جميع بلادك، ولأُضيّقن عليك الأرض بما رحُبت. فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفّ، وبعث يطلب الهدنة.

وقد رتّب معاوية في هذه الجهات الصوائف التي تقوم بالجهاد في فصل الصيف، والشواتي التي تقوم بالجهاد في فصل الشتاء، حتى يكون القتال دائماً يستنزف قوة العدوّ، ويجعله بالنهاية يخضع لأمر المسلمين، وأثناء قتال المجموعة من المسلمين، تكون المجموعة الثانية قد عادت إلى أماكن مرابطتها تجد الراحة، وتتمتع بالنشاط مع أهليها إلى أن يحين موعد سيرها للجهاد. وقد اشتهر من بين القادة في هذه المنطقة: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وبُسر بن أرطأة، ومالك بن هبيرة، وأبو عبد الرحمن القيني، وعبد الله بن قيسٍ الفزاري، وفَضالة بن عبيد الأنصاري، وسفيان بن عوف الأزدي، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، ومحمد بن عبد الله الثقفي، وجنادة بن أمية الأزدي، ومعن بن يزيد السلمي، ومحمد بن مالك، ومالك بن عبد الله الخثعمي، وعبد الله بن كرز البجلي، وعمرو بن مرة الجهني.

وكان هدف الغزوات جميعها «القسطنطينية» عاصمة

الروم، وكانت بعض حملات الجهاد تقترب منها، ويصل بعضها إلى «عمورية» في جنوب «أنقرة» اليوم.

غزا بُسر بن أرطأة بلاد الروم سنة ثلاثٍ وأربعين، وتوغّل فيها حتى اقترب من القسطنطينية، وشتى في بلادهم.

وتوغّل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في بلاد الروم سنة أربعٍ وأربعين، وقضوا الشتاء هناك.

وعاد عبد الرحمن بن خالد إلى غزو الروم في شاتيةٍ سنة ستٍ وأربعين، وكذا في السنة التي تلتها.

وتقدّم أبو عبد الرحمن القيني في الأناضول في شتاء، عام ثمانيةٍ وأربعين.

وفي سنة خمسين جهّز معاوية حملةً كبيرةً من البر والبحر لغزو عاصمة الروم القسطنطينية، وأعطى قيادة جيش البر لسفيان بن عوف الأزدي، وجعل ابنه يزيد في قيادة الحملة إلا أن يزيد لم يخرج مع الحملة، أما الأسطول فقد قاده بُسر بن أرطأة، وحوصرت القسطنطينية، وجرت اشتباكات بين الطرفين خسر فيها المسلمون خسائر كبيرةً، فعمل معاوية على إرسال نجدةٍ بقيادة ابنه يزيد، ومعه أبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن

عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عبّاسٍ بن عبد المطلب، وعبد الله بن الزبير.

ومع وصول هذه النجدة ارتفعت معنويات المجاهدين، واشتدّ الحصار، وأصاب المسلمون من الروم، وإن لم يستطيعوا فتح القسطنطينية.

دخل يزيد على أبي أيوب عند الموت، فقال له: إذا أنا متّ فاقرؤوا على الناس مني السلام، وأخبروهم أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئاً، جعله الله في الجنة».

ولينطلقوا فيبعدوا بي في أرض الروم ما استطاعوا. فحدّث يزيد لما مات أبو أيوب فانطلقوا بجنازته. وفي روايةٍ أن أبا أيوب قال: إذا مت فأدخلوني في أرض العدو فادفنوني تحت أقدامكم حيث تلقون العدو. وأوصى أبو أيوب إلى يزيد، وهو الذي صلّى عليه.

وفي سنة اثنتين وخمسين غزا سفيان بن عوف الأزدي بلاد الروم، وشتّى فيها، ومات هناك، واستخلف على الجند بعده عبد الله بن مسعدة الفزاري، وقيل: بل كان أمير الشاتية بُسر بن أرطأة، وكان معه سفيان بن عوف.

وغزا سنة ثلاثٍ وخمسين عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، وهو ابن أخت معاوية، بلاد الروم،

وشتّى فيها. وفي هذا العام أُعيد حصار القسطنطينية بقيادة فضالة بن عبيد، وكان على رأس الأسطول الإسلامي عبد الله بن قيس الحارثي، وجنادة بن أبي أمية، أما أسطول الشام فكان بإمرة يزيد بن شجرة الرهاوي، واستمر الحصار حتى سنة سبعٍ وخمسين، ولم ينقذ القسطنطينية من الفتح إلا هبوبُ عاصفة هوجاء فرّقت الأسطول الإسلامي، وفي الوقت نفسه وصلت إمدادات إلى الروم من أوروبا وخاصةً من البلغار.

وبعث معاوية في هذه السنة عبد الله بن مسعدة الفزاري رسولاً إلى ملك الروم، فاجتمع بجبلة بن الأيهم، فرأى ما هو فيه من السعادة الدنيوية والأموال، من الخدم والحشم والذهب والخيول، فقال له جبلة: لو أعلم أن معاوية يقطعني أرض البثينة فإنها منازلنا، وعشرين قريةً من غوطة دمشق، ويفرض لجماعتنا، ويُحسن جوائزنا لرجعت إلى الشام. فأخبر عبد الله بن مسعدة معاوية بقوله، فقال معاوية: أنا أعطيه ذلك، وكتب إليه كتاباً مع البريد بذلك، فما أدركه البريد إلا وقد مات في هذه السنة ـ قبحه الله ـ [1].

---

(١) البداية والنهاية.

وفي سنة أربعٍ وخمسين كان على رأس الشاتية محمد بن مالك، أمّا الصائفة فقد قادها معن بن يزيد السلمي.

وفي عام ستةٍ وخمسين غزا أرض الروم عياض بن الحارث.

وبعد فك الحصار عن القسطنطينية شتّى عبد الله بن قيس الحارثي في بلاد الروم سنة سبعٍ وخمسين.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين غزا أرض الروم مالك بن عبد الله الخثعمي، على رأس شاتيةٍ.

وفي سنة تسعٍ وخمسين دخل عمرو بن مرة الجهني بلاد الروم وشتّى هناك.

وفي سنة ستين، وهي السنة التي توفي فيها معاوية، قاد الغزو في بلاد الروم مالك بن عبد الله. وهكذا كان غزو المسلمين لا ينقطع عن بلاد الأناضول مدة خلافة معاوية، بل وأيام إمارته قبل الخلافة.

ب ـ البحر:

منذ أن تسلّم معاوية إمرة الشام أيام الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو يطمح بمنازلة

الروم بحراً، وقد صعُب عليه رؤية سفن الروم تغدو ذاهبةً وآيبةً على سواحل الشام، ولا يستطيع المسلمون ردعها بل ليست لديهم الوسيلة للردع، وقد كان يرى أن سواحل الشام مُعرّضة للغارات البحرية عليها من قبل الروم، وقد رأينا طلبه من الخليفة بناء أسطولٍ للمسلمين وقتال الروم بحراً، ولكن لم يحصل على الموافقة، غير أن الفكرة بقيت في رأسه، لذا عاود الطلب لما آل أمر الخلافة إلى ذي النورين، عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وما أن سمح له حتى انطلق يعمل في بناء السفن والزوارق ليحمي المدن الساحلية الشامية، وليصد عنها غارات الروم وأساطيلهم، وقد تمكن من فتح قبرص بعد مدة بسيطةٍ من بنائه الأسطول الإسلامي الذي بدأ به عام أربعةٍ وعشرين، وكان فتح قبرص سنة ثمانٍ وعشرين، وأعاد دخولها سنة ثلاثٍ وثلاثين، وانتصر على الروم في معركة ذات الصواري.

ولم يكن الأسطول بالشام فقط بل تأسّس أسطول آخر في مصر لحماية سواحلها كذلك، وردّ غارات الروم عنها، وكان التعاون بين الأسطولين تامّاً.

وكذلك فقد نظم التعاون بين الجيوش البرية والأساطيل البحرية تنظيماً دقيقاً، واشتهر من قادة البحر:

بُسر بن أرطأة، ومالك بن هبيرة السكوني، والمنذر بن زهير، وخالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعقبة بن عامر، وفَضالة بن عبيد الأنصاري، ويزيد بن شجرة الرهاوي، وعقبة بن نافع، وجنادة بن أبي أمية الأزدي وغيرهم، ومن الملاحظ أن بعضهم كان يتسلّم إمرة الجيوش البرية تارةً وتارةً أخرى قيادة الأساطيل، فلم يكن هناك من اختصاص، وإنما الروح المعنوية العالية تدفع المؤمن لأن يجاهد بأي موطن كان، كما يجب أن نعرف أن غزو البحر لم يكن محصوراً بأهل الشام من أبناء السواحل ولا بأهل مصر فقط، بل أصبح المسلمون جميعاً مجاهدين في البر والبحر على حدٍّ سواء، سواء أكانوا من أهل البادية الذين لم يروا البحر مدة حياتهم، أم من أبناء السواحل الذين اعتادوا العمل فيه، وكلهم يجيد القتال ويُحسن التصرّف.

أسّس معاوية داراً للصناعة البحرية في «عكا» وجمع فيها مهرة الصنّاع الذين استقدمهم من اليمن، ومن سواحل الخليج العربي، وأفاد من خشب لبنان.

ورمّم ميناء «صور» و «طرابلس»، وكانت السفن تُصنع فيهما، كما تُصنع في «عكا».

وأقام معاوية داراً لصناعة السفن البحرية في جزيرة

الروضة بالنيل، في مصر سنة أربعٍ وخمسين. وتمتاز السفن الإسلامية بكبر حجمها، وتنوّعها، وإمكاناتها على الاستيعاب، وحملها كمياتٍ كبيرةً من المواد والعتاد، وأعداداً من الجند.

واتخذ معاوية خطةً في نقل أعدادٍ من العرب المسلمين إلى الجزر في البحرالمتوسط، لحماية تلك الجزر، ونشر الإسلام على ربوعها.

غزا بُسر بن أرطأة البحر سنة أربعٍ وأربعين.

غزا عقبة بن عامرٍ في البحر بأهل مصر سنة ثمانٍ وأربعين، ونزل المسلمون في تلك السنة في جزيرة صقلية. واستطاع فَضالة بن عبيد الأنصاري فتح جزيرة «جربا» سنة تسعٍ وأربعين، وقد سار إليها على رأس شاتيةٍ في ذلك العامَ.

وحاصر المسلمون مدينة القسطنطينية براً وبحراً سنة خمسين، وقد روى البخاري عن أم حرام بنت ملحان(١)

---

(١) أم حرام بنت مِلحان بن خالد بن زيد بن حِرام من بني عدي بن النجار الأنصارية: أخت أم سليم، خالة أنس بن مالك، وزوجة عبادة بن الصامت. عن أنس، قال: حدثتني أم حرام بنت ملحان: أن رسول الله ﷺ، قال في بيتها يوماً، =

أن رسول الله ﷺ قال: «أول جيشٍ من أمتي يركبون البحرِ قد أوجبوا» قالت أم حرام: قلت يا رسول أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم» ثم قال النبيّ ﷺ: «أول جيشٍ من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»[1].

وقد عاد المسلمون لحصار القسطنطينية سنة ثلاثٍ وخمسين، واستمرّ الحصار مدة أربع سنواتٍ.

وفي سنة ثلاثٍ وخمسين فتح جنادة بن أبي أمية الأزدي جزيرة «رودوس»، ونقل معاوية إليها جماعةً من العرب المسلمين لحمايتها، فكانوا أشدّ شيءٍ على الكفار، يعترضون لهم في البحر، ويقطعون سبيلهم، وكان معاوية يدرّ عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة، وكانوا على حذرٍ شديدٍ من الفرنج، يبيتون في حصن

= فاستيقظ وهو يضحك. فقلت: يا رسول الله: ما أضحكك؟ قال: «عُرض عليّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر كالملوك على الأسرّة» قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت من الأولين». فتزوجها عبادة بن الصامت، فغزا بها في البحر، فحملها معه. فلما رجعوا قُرّبت لها بغلة لتركبها فصرعتها، فدُقّت عنقها، فماتت رضي الله عنها.

(١) رواه البخاري. فتح الباري ٢٩٢٤.

عظيم، فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم، ولهم نواطيرهم على البحر ينذرونهم إن قدم عدوّ أو كادهم أحد. ثم عاد جنادة بن أبي أمية إلى رودوس في حملةٍ بحريةٍ دعماً لمن فيها من المسلمين، وذلك سنة تسعٍ وخمسين. ولكن لم يتغير الوضع، وما زالوا كذلك حتى كانت إمرة يزيد بن معاوية بعد أبيه، فحوّلهم من تلك الجزيرة، وقد كانت للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات كثيرة[1].

وفي سنة خمسٍ وخمسين تمّ فتح جزيرة «كريت»، وبعد عامين فتحت جزر «بحر إيجه» القريبة من «القسطنطينية» مقدمةً لحصارها من جديدٍ.

وفي سنة ستٍ وخمسين غزا يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر، ثم قام بغزوة مرةً أخرى بعد عامين، وقد نال الشهادة في هذه الغزوة، وهو في البحر مجاهداً.

ج: شمالي إفريقية:

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر سنة عشرين أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تقدّم نحو

---

(١) البداية والنهاية.

الغرب حتى وصل إلى طرابلس، إلاّ أن الخليفة لم يسمح بالتقدّم نحو الغرب أكثر من ذلك، وكان قد وجّه عبد الله بن الزبير لفتح «صبراتة»، أما عمرو فقد بقي في طرابلس للإشراف على أمورها. وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير، فصبّحوها من ليلتهم على غرّةٍ، فوجدوا أبواب السور مفتوحةً، وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى، فاقتحموها عليهم بالقوة، وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا، ولم يهرب منهم أحد إلا من ركب البحر هارباً إلى صقلية. وهدم المسلمون سورها خوفاً من تحصّن الروم بها مرةً ثانيةً، وغنموا كل ما فيها، وكان شيئاً كثيراً، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يُخبرونه بما فتح الله عليهم فحضر إلى صبراتة[١]. وسيّر عمرو بن العاص عقبة بن نافع ففتح «زويلة» في الجنوب، وأرسل بُسر بن أرطأة ففتح «ودّان» وعيّن عقبة بن نافعٍ أميراً على حاميةٍ مرابطةٍ في برقة، وعيّن عبد الله بن سعد بن سرح أميراً على الصعيد حسب تعليمات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ الطاهر أحمد الزاوي.

ولما تولّى الخلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أذن بفتح إفريقية (منطقة تونس اليوم)، فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرحٍ في جماعةٍ نحو إفريقية، فاجتاز طرابلس، واستولى على سفن للروم كانت راسيةً هناك على الشاطئ، ثم واصل سيره نحو إفريقية، والتقى بجيوشٍ للبيزنطيين عام سبعةٍ وعشرين في موقعٍ يقال له: «سبيطلة»، وهناك جاء إلى المسلمين مدد من المدينة فيه الحسن والحسين ابنا عليٍّ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباسٍ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فلما وصل المدد إلى المسلمين كثر الصياح والتكبير، فسأل ملك إفريقية، القائد البيزنطي (جرجير) عن الخبر، فقيل له: قد أتى المسلمين عسكر، ففتّ ذلك في عضده. رأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من الصباح إلى الظهر، فلما أذّن سمع منادي (جرجير) يقول: من قتل عبد الله بن سعدٍ فله مائة ألف دينارٍ، وأزوّجه ابنتي. فخاف عبد الله بن سعد على نفسه، فحضر ابن الزبير عند عبد الله بن سعدٍ، وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس (جرجير) نفلته مائة ألف وزوجته ابنته، واستعملته على بلاده، ففعل، فصار (جرجير) يخاف على نفسه أشد من خوف عبد الله بن سعدٍ.

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في إمدادٍ متصلةٍ وبلادٍ هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم. وقد رأيت أن نترك غداً جماعةً صالحةً من أبطال المسلمين في خيامهم مُتأهّبين، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون، ونقصدهم على غرّةٍ، فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر ابن سعدٍ جماعةً من أعيان الصحابة، واستشارهم فوافقوه على ذلك.

وفي صباح الغد، نفّذ ابن سعدٍ خطة ابن الزبير هذه، فأقام شجعان من المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما أذّن الظهر وهمّ الروم بالانصراف على العادة، لم يتركهم ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً. . . . عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجلٍ

واحدٍ، وكبّروا، فلم يتمكّن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون[1].

ونظر عبد الله بن الزبير فرأى (جرجير) وقد خرج من عسكره، فأخذ جماعةً من المسلمين وقصده، فقتله. فقد رأى ابن الزبير (جرجير) وراء عسكره على برذون أشهب ومعه جاريتان تُظلّانه بريش الطواويس، وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد، فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين، وأخذهم معه، ثم حمل في الوجه الذي فيه (جرجير)، وقال للفرسان الذين معه: احموا ظهري، فخرق الصف إلى (جرجير)، وخرج صامداً له، وما يظنّ هو وأصحابه إلا أن ابن الزبير وأصحابه رسول إليه حتى دنا منه، فعرف الشرّ، فثنى برذونه مولياً، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه ودافّه[2] بالسيف، وحزّ رأسه، ونصبه في رمحه وكبّر، فحمل المسلمون من الوجه الآخر، فانهزم العدوّ في كل وجه، ومنح الله المسلمين أكتافهم، وانهزم الروم بعد مقتل (جرجير)، وقتل المسلمون منهم مقتلةً عظيمةً، وأُخذت ابنة (جرجير) سبيّةً، فنفّلها ابن الزبير، وكان سهم الفارس

---

(١) الكامل في التاريخ.

(٢) دافّه: أجهز عليه.

ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينارٍ[1].

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان، عاد عمرو بن العاص والياً على مصر، وكان قد دخلها سنة ثمانٍ وثلاثين، وتولّى أمر إفريقية مُعاوية بن حُديجٍ ففتح «بنزرت» سنة إحدى وأربعين، كما دخل «قمونية» موضع «القيروان» سنة خمسٍ وأربعين، وأرسل عبد الله بن الزبير ففتح «سوسة» في السنة نفسها، ورجع مُعاوية بن حُديج إلى مصر، وتسلّم أمر الولاية سنة سبعٍ وأربعين بعد عقبة بن عامرٍ، وتولّى أمر إفريقية رويفع بنَ ثابت الأنصاري، ثم عقبة بن نافع الذي كان أمير برقة ففتح «سرت» و «مغداس» وأعاد فتح «ودّان»، ودخل«فزّان» ووصل إلى جنوبها إلى «كاوار»، ودخل «غدامس» و «قفصة». ووصل إلى «قمونية» الذي كان مُعاوية بن حُديج قد بناه فلم يُعجب به عقبة بن نافع فاختار مكان القيروان ليكون مكاناً لعسكره، ومدينةً إسلاميةً، وهذا الموقع في الشرقي لإفريقية (تونس) ليس قريباً من الشمال ليكون جبلياً، ولا ضارباً إلى الجنوب ليكون رملياً، غير أنه كانت بجانبه سبخة، وهذا ما أبعد

---

(١) الكامل في التاريخ.

عنه مُعاوية بن حُديج، وكان العرب يؤثرون مكان «قمونية» لأنه منبسط من الأرض، جيد الهواء، كثير المراعي، خصب التربة، وفير المياه، غير أن عقبة بن نافع وجد هذا المكان غير صالحٍ من الناحية العسكرية ليكون قاعدةً أمينةً لقوات المسلمين، لأن بعض النصارى يسكنون بالقرب منه، لذا يمكن أن يكونوا عيوناً لكل من يقيم بهذا الموقع، أو هذه المدينة التي ستنشأ، وهذا خطر عظيم على المسلمين وهم في جهادٍ دائمٍ للفتح ونشر الإسلام.

قال عقبة لرجاله: إن إفريقية إذا دخلها فاتح أجابه أهلها للإسلام، فإذا تركها رجع إلى الكفر من كان أجب منهم لدين الله، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر. فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتمّ لهم الجهاد والرباط. وقال لعقبة بعض أصحابه: قرّبها من البحر ليكون أهلها مرابطين، فقال لهم: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل فيخرج، فيقيم في غارته إلى نصف النهار فلا تدركها منه غارة

أبداً. فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير، فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهو حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر، وميّتهم في الجنة. فاتفق رأيهم على ذلك، فقال: قرّبوها من السبخة، فقالوا: نخاف أن تُهلكنا الذئاب، ويُهلكنا بردها في الشتاء وحرّها في الصيف. فقال: لا بد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم الإبل، وهي التي تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصّروا، وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنةً من غارة البربر والنصارى، فركب إلى موضع «القيروان» اليوم، وكان غيضةً كثير الأشجار، مأوى الوحوش والحيّات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه[1].

وجاء أيضاً: أن رجاله قالوا له: إنك أمرتنا بالبناء في شعارٍ وغياضٍ لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيّات وغير ذلك من دواب الأرض. وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائر

(١) رياض النفوس ١/٦ ـ ٧. أبو عبد الله بن أبي عبد الله المالكي. والبيان المغرب في أخبار المغرب: أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي.

ذلك تابعون، فدعا الله عزّ وجلّ وجعل أصحابه يُؤمّنون بدعائه. ومضى إلى السبخة وواديها، ونادى: أيتها الحيّات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه. ونظر الناس بعد ذلك إلى أمرٍ معجبٍ، من أن السباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها، والذئب يحمل جروه، والحيّات تحمل أولادها. ونادى في الناس: كفّوا عنهم حتى يرتحلوا عنا. فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي، وأمرهم أن يقطعوا الشجر[1].

ثم ولّى معاوية بن أبي سفيان أمر مصر مَسلمة بن مخلد سنة خمسين، فعزل مسلمة عن إفريقية عقبة بن نافع، وأعطاها إلى مولًى له يقال له: أبو المهاجر دينار. فأساء أبو المهاجر معاملة عقبة بن نافع وسجنه، ثم أطلق سراحه بعد مدةٍ، فسار عقبة إلى الشام، وقابل معاوية وعاتبه، فوعد بإعادته أميراً على إفريقية، ولكن لم يلبث معاوية أن تُوفّي. وتولّى ابنه يزيد الخلافة فأعاد عقبة إلى إفريقية سنة اثنتين وستين.

---

(١) رياض النفوس، والبيان المغرب في أخبار المغرب

الجبهة الشرقية:

ولم تكن ساحةً واحدةً، شأنها في ذلك شأن الجبهة الغربية، فكانت عدّة ميادين، لأنها تقع على بلاد عدّة أُمم، ومعظمها وثنية بعكس الجبهة الغربية التي يدين غالبية سكانها بالنصرانية. فنرى في الشمال شعوب القفقاس المختلفة التي كانت لا تزال وثنيةً. وفي الشمال الشرقي نجد الأتراك في بلاد ما وراء النهر، وكانوا على الوثنية أيضاً، وفي الشرق نجد بلاد طخارستان، وسجستان، وسكانهما من الوثنيين، وفي الجنوب الشرقي بلاد السند. ونتيجة هذه الميادين المتباينة والشعوب الصغيرة المتفرّقة، لذا لم تكن هناك معارك شهيرة، وحروب واسعة ذات أثرٍ.

غزا المسلمون في عهد معاوية بلاد اللان في القفقاس سنة إحدى وأربعين.

وفتح المسلمون «الرُّخَّج» وغيرها من بلاد سجستان سنة ثلاثٍ وأربعين.

وفي سنة خمسٍ وأربعين دخل الحكم بن عمرو الغفاري منطقة القيقان من بلاد طخارستان، وحصل على غنائم كثيرة.

وفتح المسلمون منطقة قوهستان.

وفي سنة خمسٍ وخمسين قطع عبيد الله بن زياد نهر جيحون، ووصل إلى تلال بخارى.

وغزا المسلمون بإمرة المهلب بن أبي صفرة بلاد السند سنة أربع وأربعين، كما غزوا جبال الغور جنوب غزنة من بلاد الأفغان سنة سبعٍ وأربعين، وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بن عمرو الغفاري في هذه الغزوة.

وكان سكان الجبهة الشرقية ينكثون بالعهد مرّة بعد أخرى، ويعود المسلمون لقتالهم، ودخول أراضيهم، لذلك نلاحظ أن مناطق تلك الجهات قد فتحت عدّة مرّاتٍ، واستمرّت مدّةً من الزمن على هذه الحال حتى دانت نهائياً للإسلام أيام الوليد بن عبد الملك.

وهكذا توسّعت رقعة الدولة الإسلامية أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان بأمر الله أولاً وآخراً، وبما هيّأه الله لها من وحدة الكلمة، واجتماع الشمل، والتقاء الرايات، وبما سخّره لها من رجالٍ من معاوية وأمثاله.

الخوارج:

سبق أن ذكرنا أن معاوية قدم إلى النخيلة قرب الكوفة، قبل أن يغادر الحسن الكوفة بعد تنازله عن

الخلافة لمعاوية، فهبّ الخوارج، وعددهم خمسمائة، وكانوا قد اعتزلوا في «شهرزور» أواخر أيام عليٍّ، رضي الله عنه. وعليهم فروة بن نوفل الأشجعي، فقالوا: قد جاء الآن ما لا شكّ فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فأقبلوا، وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفّوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا! أليس معاوية عدونا وعدوكم! دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، ، وإن أُصبنا كنتم قد كُفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهروان، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة. وأخذت (أشجع) صاحبهم فروة بن نوفل ـ وكان سيّد القوم ـ واستعملوا عليهم عبد الله بن أبي الحرّ ـ رجلاً من طيء ـ فقاتلوهم فقُتلوا[١].

وفي عام اثنين وأربعين خرج حيّان بن ظبيان السلمي، وكان أحد قادة الخوارج الذين نجوا في النهروان، وبرئت جراحهم، فخرج بعد شهرٍ من معركة

---

(١) تاريخ الطبري ٥/١٦٥ ـ ١٦٦.

النهروان، واتجه إلى الري، مع من يرى رأيه، وكان علي، رضي الله عنه، قد عفا عنهم، وعددهم أربعمائة رجلٍ، ولم يزالوا هناك حتى بلغهم مقتل عليٍّ، رضي الله عنه، فلما كان ذلك دعا حيّان بن ظبيان أصحابه أولئك ـ وكانوا بضعة عشر رجلاً ـ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الإخوان من المسلمين، إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجم أخا مرادٍ قد قعد لقتل عليّ بن أبي طالبٍ عند أغباش الصبح مقابل السدّة التي في المسجد، مسجد الجماعة، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة، صلاة الصبح، فشدّ عليه، فضرب رأسه بالسيف، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات. فقال سالم بن ربيعة العبسي: لا يقطع الله يميناً علت قذاله بالسيف، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله، رضي الله عنه، ولا رضي عنهم ولا رحمهم! ثم قال حيّان لأصحابه: إنه والله ما يبقى على الدهر باق، وما تلبث الليالي والأيام والسنون والشهور على ابن آدم حتى تذيقه الموت، فيُفارق الإخوان الصالحين، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة، ولم تزل ضارّة لمن كانت له همّاً وشجناً، فانصرفوا بنا ـ رحمكم الله ـ إلى مصرنا فلنأت إخواننا، فلندعهم إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإلى

جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا في القعود، وولاتنا ظلمة، وسنة الهدى متروكة، وثأرنا من الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يُظفرنا الله بهم، نعمد بعد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم. ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نُقتل فإن في مفارقة الظالمين راحةً لنا، ولنا بأسلافنا أسوة، فقالوا: كلنا قائل ما ذكرت، وحامد رأيك الذي رأيت، فَرِدْ بنا المصر فإنا معك راضون بهداك وأمرك، فخرج وخرجوا معه مُقبلين إلى الكوفة.

وأقبلوا حتى نزلوا الكوفة، فلم يزالوا بها حتى قدم معاوية، وبعث المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، فأحبّ العافية، وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يُؤتى فيقال له: إن فلاناً يرى رأي شيعة عليٍّ، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج. وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون. فأمنه الناس، وكان الخوارج يلقى بعضهم بعضاً، ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف، وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر.

وفزع الخوارج إلى ثلاثة نفرٍ منهم: المستورد بن عُلّفة التيمي، من تيم الرباب، وحيّان بن ظبيان السلمي،

ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي السنبسي، وهو ابن عم زيد بن حصين، وكان زيد ممن قتله عليّ، رضي الله عنه، يوم النهروان، وكان معاذ بن جوين هذا في الأربعمائة الذين ارتُثّوا من قتل الخوارج، فعفا عنهم عليّ، رضي الله عنه، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان السلمي، فتشاوروا فيمن يولون عليهم، فقال لهم المستورد: يا أيها المسلمون والمؤمنون، أراكم الله ما تُحبّون، وعزل عنكم ما تكرهون، ولّوا عليكم من أحببتم، فوالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ما أُبالي من كان الوالي عليّ منكم، وما شرف الدنيا يزيد، وما إلى البقاء فيها من سبيل، وما نريد إلا الخلود في دار الخلود. فقال حيّان بن ظبيان: أما أنا فلا حاجة لي فيها، وأنا بك وبكل امرئٍ من إخواني راضٍ، فانظروا من شئتم فسمّوه، فأنا أول من يبايعه. فقال معاذ بن جوين بن حصين: إذا قلتما أنتما هذا، وأنتما سيّدا المسلمين، وذوا أنسابهم في صلاحكما، ودينكما، وقدركما، فمن يرئس المسلمين، وليس كلكم يصلح لهذا الأمر، وإنما ينبغي أن يلي على المسلمين إذا كانوا سواء في الفضل أبصرهم بالحرب، وأفقههم في الدين، وأشدّهم اضطلاعاً بما حُمّل، وأنتما بحمد الله ممن يرضى بهذا الأمر، فليتولّه أحدكما. قالا: فتولّه أنت،

فقد رضيناك، فأنت والحمد لله الكامل في دينك ورأيك، فقال لهما: أنتما أسنّ مني، فليتولّه أحدكما، فقال حينئذٍ جماعة من حضرهما من الخوارج: قد رضينا بكم أيها الثلاثة، فولّوا أيكم أحببتم، فليس في الثلاثة رجل إلا قال لصاحبه: تولّها أنت، فإني بك راضٍ، وإني فيها غير ذي رغبةٍ، فلما كثر ذلك بينهم، قال حيان بن ظبيان: فإن معاذ بن جوين قال: إني لا ألي عليكما، وأنتما أسنّ مني، وأنا أقول لك مثل ما قال لي ولك، لا ألي عليك، وأنت أسنّ مني، ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه، ثم بايعه معاذ بن جوين، ثم بايعه القوم جميعاً، وذلك في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين. فاتّعد القوم أن يتجهّزوا، ويتيسروا، ويستعدّوا، ثم يخرجوا في غرّة الهلال، هلال شعبان سنة ثلاثٍ وأربعين، فكانوا في جهازهم وعدّتهم.

وصل أمر الخوارج إلى المغيرة بن شعبة، وأنهم قد اجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان استعداداً للخروج، فأرسل إليهم شرطته فأتوا بهم إليه، فقال لهم المغيرة: ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين؟ فقالوا: ما أردنا من ذلك شيئاً، قال: بلى، قد بلغني ذلك عنكم، ثم قد صدق ذلك عند جماعتكم، قالوا له: أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيّان بن ظبيان أقرؤنا

القرآن، فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه. فقال: اذهبوا بهم إلى السجن، فلم يزالوا فيه نحواً من سنةٍ، وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا. وخرج صاحبهم المستورد بن عُلّفة، فنزل داراً بالحيرة، وكان أصحابه يتخلّفون عليه ويتهجرون، فلما كثُر اختلاف أصحابه عليه قال لهم صاحبهم المستورد بن عُلّفة التيمي: تحوّلوا بنا عن هذا المكان، فإني لا آمن أن يُطّلع عليكم.

ووصل الخبر إلى المغيرة بن شعبة فتكلّم فيهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية، وأكفّ عنكم الأذى، وإني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم، فأما الحلماء الأتقياء فلا، وأيم الله لقد خشيت ألا أجد بُدّاً من أن يُعصَب الحليم التقيّ بذنب السفيه الجاهل، فكفّوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامّكم، وقد ذُكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف، وأيم الله لا يخرجون في حيٍ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار.

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرياحي فقال: أيها

الأمير، هل سُمّي لك أحد من هؤلاء القوم؟ فإن كانوا سُمّوا لك فأعلمنا من هم؟ فإن كانوا منا كفيناكهم، وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من مصرنا فأتتك كل قبيلةٍ بسفهائها، فقال: ما سُمِّي لي أحد منهم، ولكن قد قيل لي: إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر، فقال له مَعْقِل: أصلحك الله! فإني أسير في قومي، وأكفيك ما هم فيه، فليكفك كل امرئٍ من الرؤساء قومه. فنزل المغيرة بن شعبة، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم، ثم قال لهم: إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم، وقد قلت ما قد سمعتم، فليكفني كل امرئٍ من الرؤساء قومه، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحوّلن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون، وعما تحبّون إلى ما تكرهون، فلا يَلُمْ لائم إلا نفسه، وقد أعذر من أنذر. فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم، فناشدوهم الله والإسلام إلا دلّوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة، أو يفارق جماعة.

ووصل الخبر إلى رأس الخوارج المستورد بن عُلّفة، وكان قد نزل في منزل أحد رجال بني عبد القيس فارتحل عنه، وعلم المغيرة بما تمّ فأرسل إليهم مَعْقِل بن قيس الرياحي في ثلاثة آلاف رجل، فانطلقوا خلفهم حتى تعبوا، وعرف معقل هدف الخوارج في إتعابه وجماعته قبل المعركة حتى إذا خاضوها كانوا منهكين،

لذا أرسل طليعةً له تضمّ ثلاثمائة فارسٍ فلحقت بهم فاقتتلوا فلم تثبت هذه الطليعة أمام الخوارج، مع العلم أن كلا الفئتين يبلغ عددها ثلاثمائة فارسٍ، وذلك في أرض «المذار» إلى الشمال من البصرة، على نهر دجلة قبل التقائه مع نهر الفرات بخمسين كيلومتراً تقريباً، وذلك في منطقة البصرة، وهذا ما دعا واليها عبد الله بن عامرٍ أن يرسل في أثرهم ثلاثة آلاف آخرين. فلما رأى الخوارج كثرة الطلب عليهم ولّوا وجههم شطر الكوفة ليقاتلوا مَعْقِل بن قيسٍ ومن معه وحدهم، بعيدين عن جند البصرة، فلحقهم أهل الكوفة حتى أدركوهم، وقاتلوهم فلم ينج منهم إلا خمسة أو ستة، وقُتل زعيمهم المستورد بن عُلّفة، كما قُتل مَعْقِل بن قيسٍ الرياحيّ، قتل كل صاحبه بالمبارزة، وخفّ بعد ذلك أثر الخوارج.

ولما ولي زياد بن أبيه أمر البصرة خافه الخوارج، فخرج أحدهم وهو سهم بن غالب الهجيمي، وثار في الأهواز فأحدث فتنةً، ثم رجع، واختفى، وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد، وإنما قتله وصلبه وذلك سنة ستٍ وأربعين. وفي الوقت نفسه خرج أيضاً الخطيم، وهو يزيد بن مالك الباهلي، فسيّره زياد إلى البحرين، ثم أذن له فقدم، وقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو: اضمنه فأبى، وقال: إن بات بعيداً عن بيته

أخبرتك. ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة في بيته، فأمر به فقُتل، وأُلقي في باهلة.

وفي سنة خمسين خرج اثنان أيضاً من الخوارج في البصرة، وهما: زحّاف الطائي، وقريب الأيادي، ومعهما سبعون رجلاً، ولكنهما قُتلا وأصحابهما. وكان زياد شديداً على الخوارج، وكان يولي على البصرة سمرة بن جندب عندما يقيم هو في الكوفة، ويأمره بالشدّة عليهم أيضاً، حتى قتل منهم عدداً كبيراً.

واشتدّ عبيد الله بن زياد والي البصرة على الخوارج، فسجن منهم الكثير، وقتل أكثر، وكان ممن قتلهم عروة بن أُديّة، وأخوه مرداس بن أُديّة، فالأول كان قد زجره، وحاول وعظه، أما الثاني وهو مرداس، أبو بلال، فقد خرج بالأهواز بعد أن كان سجيناً في سجن ابن زياد بالبصرة، ونجا هو على حين هلك أصحابه، واجتمع بالأهواز حول مرداس أربعون رجلاً، فأرسل لهم ابن زياد جيشاً قوامه ألفا رجلٍ، عليهم ابن حصن التميمي، فانتصر الخوارج في معركةٍ دارت بـ(آسك)، وذلك سنة ثمانٍ وخمسين.

وفي السنة نفسها سنة ثمانٍ وخمسين خرج حيّان بن ظبيان، ومعاذ بن جوين ومن كان معهما في

السجن أيام المغيرة بن شعبة، وقد اختلفوا على المكان الذي سيخرجون فيه، ثم تواعدوا فخرجوا في أوّل يومٍ من أيّام ربيع الثاني سنة تسعٍ وخمسين فأرسل لهم الواليَ جيشاً، فقُتلوا جميعاً.

كان الخوارج بدواً أجلافاً، يظهرون تشدّداً بإيمانهم، لا يقتنعون إلا بما في رؤوسهم، ولا يمكن تغيير ذلك بسهولةٍ، ويرون أن المسلمين قد أحدثوا الكثير، وأن الناس قسمان: مؤمن وكافر، وليس هناك غير ذلك، لذا عدّوا كل من لا يرى رأيهم من المسلمين كافراً عليه التوبة والتبرؤ مما أحدثه عثمان، وعليّ، رضي الله عنهما. وقد لقي المسلمون منهم الويلات الكثيرة إذ كانوا يستبيحون دماء المسلمين، ويُقاتلون بضراوةٍ وتضحية، ويعدّون ذلك استشهاداً - حسب قناعتهم الخاطئة بل الضالة -.

بيعة يزيد:

كان معاوية قد عهد للحسن بن عليٍّ من بعده عندما صالحه، وتنازل الحسن له. فلما مات الحسن في ربيعٍ الأول سنة تسع وأربعين قوي أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه أهلاً لذلك، وذاك من شدّة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسّم فيه من النجابة الدنيوية، والقوة البدنية،

والحسّ المرهف، ومعرفته بالحرب، وترتيب الملك، والقيام بأبهته، فأخذه يعدّه لذلك من غير أن يفاتحه، ويهيئه دون أن يبحث معه، فأرسله على رأس نجدةٍ لحصار القسطنطينية سنة خمسين، ومعه عدد من الصحابة - كما مرّ - ليرى كفاءته، ويعرف مقدرته. ويبدو أنه قد نجح الولد في اختبار أبيه إذ ما اشتكى منه أحد من مرؤوسيه بل أثنى عليه كل من كان معه، أثنى على شجاعته وإقدامه، وحنكته ورعايته لشؤون جنده، وكأنه خاض غمار الحروب من قبل، وهو لم يعرفها، وكأنه مارس القيادة فيما سبق، وهو لم يُجرِّبها، فسُرّ الأب بما سمع عن ابنه، وأسرّ ذلك في نفسه، ولم يُبده.

وقيل: إن أوّل ما فكّر معاوية في العهد لابنه يزيد من بعده، كان في حياة المغيرة بن شعبة، وذلك أن المغيرة كان قد قدم على معاوية، وأعفاه من إمرة الكوفة فأعفاه لكبره وضعفه، وعزم على توليتها سعيد بن العاص، فلما بلغ ذلك المغيرة كأنه ندم، فجاء إلى يزيد بن معاوية فأشار عليه أن يسأل من أبيه أن يكون ولي العهد، فسأل ذلك من أبيه، فقال: من أمرك بهذا؟ قال: المغيرة، فأعجب ذلك معاوية من المغيرة، وردّه إلى عمل الكوفة، وأمره أن يسعى في ذلك.

وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه يستشيره في ذلك، فكره زياد ذلك، فبعث زياد إلى معاوية عبيد بن كعب النميري، وكان صاحباً لزياد، فسار عبيد إلى دمشق فاجتمع بيزيد أولاً، فكلّمه عن زيادٍ، وأشار عليه بأن لا يطلب ذلك، فإن تركه خير له من السعي فيه، فارعوى يزيد عما يريد من ذلك، واجتمع بأبيه، واتفقا على ترك ذلك في هذا الوقت.

وفي سنة ستٍّ وخمسين عاد معاوية يدعو الناس إلى البيعة لولده يزيد ليكون ولي عهده من بعده، وكان زياد بن أبيه قد مات. وشعر معاوية بالضعف، وأحسّ بالتعب بعدما عانى في الإمارة والخلافة الشيء الكثير، ورأى الموت يقترب منه، وهو غاية كل حيٍّ، وقد بلغ في هذه السنة من العمر السادسة والسبعين، ونظر إلى الدولة، وقد توحّدت أركانها، واتفق أهلها بعد الذي بذله، وخشي أن تعود أشتاتاً بسبب الحكم والعمل على تسلّم السلطة.

رأى معاوية أن العهد بالخلافة ـ في تلك المرحلة ـ أفضل من ترك الأمر على غاربه يختار المسلمون الذي يرونه، وهم على خلافٍ في الرأي. والشورى أفضل لا شك عندما لا يكون هناك تباين بالرأي، وعندما لا

تكون الرياح قد عصفت بآراء الناس، وعندما لا تكون الأيام بعد خلافاتٍ وتصدّع، فأنّى لهم الآن وقد اختلف فيه أكثرهم، وتصادموا وتقاتلوا، وتفرّقوا وانقسموا.

عاد معاوية بالذاكرة إلى الوراء قليلاً فرأى أن أبا بكرٍ قد عهد لعمر فسارت الأمور بشكلٍ سليم، وعندما لم يكن عهد حدثت فتن أو كادت أيام بيعة عثمان وعليٍّ، لذا قرر معاوية أن يعهد بالخلافة. ونظر إلى مقرّ الخلافة فوجد أن الشام أكثر الأماكن صلاحاً فيجب أن يبقى مركز الحكم فيها، إذ أن أهلها كلهم على رأيٍ واحدٍ، وهي أقرب البقاع إلى مناطق الثغور، وفيها بطانته، ومنها قوته فيستطيع أن ينفّذ الخليفة الجديد أوامره بكل يُسرٍ وسُهولةٍ، أما العراق فهي مركز الفوضى، ولا يحكم أهلها إلا بالقوة، وأما مصر فيمكن أن يسيطر عليها سيطرةً تامةً أي إنسانٍ يحمل لقب والٍ أو أميرٍ، على حين أن أهل الشام لا يحكمهم إلا الدهاء، وإظهار الكياسة والتقرّب إليهم، أما المدينة فهي مركز الثقل، وفيها بقية الصحابة، وأبناؤهم، ومنها تُؤخذ البيعة، ومنها يكتسب الخليفة الصفة الشرعية، فمن أيّدته لقي الدعم، ومن رفضته وجد العناء والتعب والمقاومة، إلا أن اختلاف الصحابة وأبنائهم فيما بينهم يُؤثّر على

وحدة الأمة، واجتماع كلمتها، لذا فالأولى أن تُؤخذ البيعة من المدينة، ولا يترك لأهلها الأمر، فلربما وقع الخلاف وحدث ما قد سبق أن حدث، وهو أمر صعب بين الصحابة أو بين أبنائهم، والأمر أخفّ على المجتمع فيما لو وقع بين غيرهم، لذا قرّر أن يكون الخليفة من الشام وبها.

ونظر إلى الشام فغلبت عليه عاطفة الأبوة وبخاصةٍ أن يزيد وحيد إذ أن أخاه عبد الرحمن قد مات صغيراً، وأن أخاه عبد الله كان أحمق، وربما زيّن له بعض الناس ذلك، ولكن لا بد للحصول على البيعة من موافقة أهل المدينة، وما عداهم فالأمر ميسور يكتفى بموافقة ولاة العراق ومصر، وأما الشام فأمرها مضمون.

وفي سنة ستٍّ وخمسين دعا معاوية لبيعة ابنه يزيد فبايعه أهل الشام، وكتب إلى الآفاق بذلك، فبايع له الناس في سائر الأقاليم، وكتب إلى مروان بن الحكم واليه على المدينة ليأخذ له البيعة من أهلها، فوجد معارضةً من خمسة، وهم: الحسين بن عليٍّ، عبد الرحمن بن أبي بكرٍ، عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عباس وذلك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس بالبيعة لولده

يزيد. فركب معاوية إلى مكة معتمراً، وفي طريق عودته من مكة، مرّ على المدينة، والتقى بهؤلاء الخمسة واحداً واحداً، فأوعدهم وهددهم، فكان من أشدّهم عليه ردّاً، وأجلدهم في الكلام عبد الرحمن بن أبي بكرٍ الصديق، وكان ألينهم كلاماً عبد الله بن عمر بن الخطاب. ثم خطب معاوية وهؤلاء حضور تحت منبره، وبايع الناس ليزيد، وهم قعود، ولكن لم يُوافقوا، ولما يُظهروا خلافاً لما تهددهم وتوعدهم، فاتسقت البيعة ليزيد في سائر البلاد، ووفدت الوفود من سائر الأقاليم ليزيد.

ولما مرض معاوية المرض الذي مات فيه، وذلك سنة ستّين، دعا ابنه يزيد فقال له: يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطّأت لك الأشياء، وذلّلت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمعٍ واحدٍ، وإني لا أتخوّف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتبّ لك إلا ثلاثة نفرٍ من قريشٍ: الحسين بن عليٍّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير[1]. فأما ابن عمر فهو رجل ثقة قد غلبته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره

(١) جاء في بعض المصادر إضافة عبد الرحمن بن أبي بكر، وهذا خطأ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر قد توفي سنة ثمان وخمسين أي قبل ذلك الوقت بسنتين.

بايعك. وأما الحسين فإن أهل العراق خلفه لن يدعوه حتى يخرجوه عليك، فإن خرج فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، وإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً.

وحضرت معاوية الوفاة، وكان يزيد في الصيد، فاستدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهري - وكان على شرطة دمشق - ومسلم بن عقبة المري، فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد السلام، ويقولا له: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعهد من غاب. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن عزل عامل أحب إليّ من أن يُشهرَ عليك مائة ألف سيف. وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوّك فانتصر بهم، فإذا أصبته فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم. ولست أخاف عليه من قريشٍ سوى ثلاثة نفرٍ: الحسين، وابن عمر، وابن الزبير. فأما ابن عمر فقد وَقَذته العبادة، وأما الحسين فرجل ضعيف، وأرجو أن يكفيكه الله تعالى بمن قتل

أباه، وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسةً، وحقاً عظيماً، وقرابةً من رسول الله ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه. وأما ابن الزبير فإنه خبّ صبّ، فإن شخص لك فانبذ إليه إلا أن يلتمس منا صلحاً، فإن فعل فاقبل منه، واصفح عن دماء قومك ما استطعت.

وكان موت معاوية، رضي الله عنه، لاستهلال رجب من سنة ستين، وقيل: للنصف منه، وقيل: يوم الخميس لثمان بقين منه. وكان قد بلغ الثمانين. وقد تسلّم الخلافة مدة تسع عشرة سنة وثلاثة أشهرٍ، وكان أميراً في الشام عشرين سنة تقريباً.

ولما مات معاوية خرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر، وأكفان معاوية بين يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان عود العرب، وحدّ العرب، قطع الله عزّ وجلّ به الفتنة، وملكه على العباد، وفتح به البلاد، إلا أنه قد مات، فهذه أكفانه، فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومخلّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى.

وكان يزيد بن معاوية في حوّارين «القريتين»،

فصلّى على معاوية الضحاك بن قيس. وقيل: بل يزيد هو الذي صلّى على أبيه، إذ بلغه خبر الوفاة فأقبل مسرعاً، وأدرك معاوية قبل أن يُصلّى عليه، فصلّى عليه - والله أعلم -.

الفصل الرابع
صفات معاوية، رضي الله عنه

● كان معاوية، رضي الله عنه، طويلاً، أبيض، جميلاً، إذا ضحك انقلبت شفته العليا، وكان يخضب. كان يخضب بالصفرة كأن لحيته الذهب.

● كان أبيض، طويلاً، أجلح[1]، أبيض الرأس واللحية، يخضبها بالحناء والكَتْم.

● وقال أسلم مولى عمر: قدم علينا معاوية، وهو أبضّ الناس وأجملهم.

● وروى ابن إسحاق عن أبيه، قال: رأيت معاوية بالأبطح أبيض الرأس واللحية كأنه فالج[2]. أصابت معاوية لَقوة[3] في آخر عمره، فكان يستر وجهه ويقول:

---

(١) أجلح: الجَلَح: انحسار الشعر عن جانبي الرأس.

(٢) الفالج: البعير ذو السنامين.

(٣) اللقوة: داء يعرض للوجه فيعوج منه الشدق.

رحم الله عبداً دعا لي بالعافية، فقد رميت في أحسني وما يبدو مني.

● كان حليماً وقوراً، رئيساً سيّداً في الناس، كريماً عادلاً شهماً.

● كان محبباً إلى رعيته. عمل نيابة الشام عشرين سنة، والخلافة عشرين سنة، ولم يَهِجْهُ أحد في دولته، بل دانت له الأمم، وحكم العرب والعجم، وكان ملكه على الحرمين، ومصر، والشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والجزيرة، واليمن، والمغرب، وغير ذلك[١].

● عن أبي الدرداء، قال: ما رأيت أشبه صلاةً برسول الله ﷺ، من أميركم هذا، يعني معاوية[٢].

● عن محمد بن سيرين، قال: كان معاوية إذا حدّث عن رسول الله ﷺ، لم يتهم.

● كان معاوية متواضعاً، ليس له مجالد إلا كمجالد الصبيان التي يُسمّونها المخاريق فيضرب بها الناس.

● عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس، قال: رأيت

---

(١) سير أعلام النبلاء.

(٢) المصدر السابق نفسه.

معاوية في سوق دمشق على بغلة، خلفه وصيف قد أردفه، عليه قميص مرقوع الجيب.

● قال الأعمش عن مجاهد، إنه قال: لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي.

● عن جَبَلَة بن سُحَيم، عن ابن عمر: قال: ما رأيت أحداً أسود من معاوية، قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه، وكان معاوية أسود منه.

● وروى ابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: ما رأيت أحداً قطّ بعد رسول الله ﷺ، كان أسود من معاوية، فقلت: كان أسود من أبي بكرٍ؟ فقال: كان أبو بكرٍ خيراً منه، وهو كان أسود، قلت: كان أسود من عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه، وكان معاوية أسود منه.

● مَعْمَر: عن همّام بن منبّه، سمعت ابن عبّاسٍ يقول: ما رأيت رجلاً كان أخلق للملك من معاوية، كان الناس يردون منه على أرجاء وادٍ رحبٍ، لم يكن بالضيّقِ الحَصِرِ العُصْعُص، المُتغضّب ـ يعني ابن الزبير ـ.

● قال كعب بن مالك، رضي الله عنه: لن يملك أحد هذه الأمة ما ملك معاوية.

● مجالد: عن الشعبي، عن قبيصة بن جابر،

قال: صحبت معاوية، فما رأيت رجلاً أثقل حِلْماً، ولا أبطأ جهلاً، ولا أبعد أناةً منه.

● ويروى عن معاوية قال: إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أوزنَ من حلمي.

● مجالد: عن الشعبي، قال: أغلظ رجل لمعاوية، فقال: أنهاك عن السلطان، فإن غضبه غضب الصبي، وأخذه أخذ الأسد.

● عن ابن عبّاسٍ، قال: علمت بما كان معاوية يغلب الناس، كان إذا طاروا وقع، وإذا وقعوا طار.

● مجالد: عن الشعبي، عن زياد بن أبيه، قال: ما غلبني معاوية في شيءٍ إلا باباً واحداً، استعملت فلاناً، فكسر الخراج. فخشي أن أُعاقبه، ففرّ مني إلى معاوية. فكتبت إليه: إن هذا أدب سوءٍ لمن قبلي. فكتب إليّ: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسةً واحدةً، أن نلين جميعاً فيمرح الناس في المعصية، ولا نشتدّ جميعاً، فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون للشدّة والفظاظة، وأكون أنا للّين والألفة.

● وكان معاوية، رضي الله عنه، يقبل النقد، ويستمع من الناس إلى عيوبه وأخطائه.

● الأصمعي: حدّثنا ابن عون، قال: كان الرجل يقول لمعاوية: والله لتستقيمنّ بنا يا معاوية، أو لنقوّمنّك، فيقول: بماذا؟ فيقولون: بالخشب، فيقول: إذن أستقيم.

● عقيل، ومَعْمَر، عن الزهريّ، حدّثني عروة أن المِسْوَرَ بن مَخْرَمة[(١)] أخبره أنه وفد على معاوية فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مِسْوَر، ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسن. قال: لا والله، لتكلّمني بذات نفسك بالذي تعيب عليّ. قال مِسْوَر: فلم

---

(١) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، أبو عبد الرحمن، وأبو عثمان، الإمام الجليل، أمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف. له صحبة ورواية. وعداده في صغار الصحابة.
حدّث عن خاله، وأبي بكر، وعمر، وعثمان. وحدّث عنه: علي بن الحسين، وعروة، وسليمان بن يسار، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، وولداه عبد الرحمن، وأم بكر.
كان ممن يلزم عمر، ويحفظ عنه. وقدم دمشق بريداً من عثمان يستصرخ بمعاوية.
انحاز إلى مكة مع ابن الزبير، وسخط إمرة يزيد، وأصابه حجر منجنيق في الحصار. وكانت الخوارج تغشاه، وينتحلونه. ولد بعد الهجرة بعامين، وتوفي في اليوم الذي جاء فيه نعي يزيد إلى أهل مكة.

أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بيّنت له. فقال: لا أبرأ من الذنب. فهل تعدّ لنا يا مِسْوَر ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعدّ الذنوب، وتترك الإحسان؟ قال: ما تذكر إلا الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنبٍ أذنبناه، فهل لك يا مِسْوَر ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم تُغفر؟ قال: نعم. قال: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أُخيّر بين أمرين، بين الله وغيره إلا اخترت الله على ما سواه، وإني لعلى دينٍ يُقبل فيه العمل ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها. قال: فخصمني. قال عروة: فلم أسمع المِسْوَرَ ذُكر مُعاوية إلا صلّى عليه.

الكرم:

وكان معاوية، رضي الله عنه، كريماً وخاصةً على آل البيت، والسابقين من المهاجرين والأنصار، وأبنائهم إذ يعطي عطاءً كبيراً.

● أبو مسهر: عن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشر ألف دينار.

● وقال عروة: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألفٍ، فوالله ما أمست حتى فرّقتها.

● حسين بن واقد: عن ابنِ بريدة، دخل الحسين بن عليّ على معاوية، فقال: لأُجيزنّك بجائزةٍ لم يجزها أحد كان قبلي، فأعطاه أربعمائة ألف[1].

● جرير: عن مغيرة، قال: بعث الحسن، وابن جعفر إلى معاوية يسألانه. فأعطى كلاًّ منهما مائة ألفٍ، فبلغ ذلك عليّاً، فقال لهما: ألا تستحيان؟ رجل نطعن في عيبه غدوةً وعشيةً تسألانه المال؟ قالا: لأنك حرمتنا وجاد هو لنا[2].

الخوف من الحساب:

إن معاوية قال ليزيد: إن أخوف ما أخافه شيء عملته في أمرك. شهدت رسول الله ﷺ، يوماً قلّم أظفاره، وأخذ من شعره، فجمعت ذلك، فإذا متّ، فاحشُ به فمي وأنفي.

● عبد الأعلى بن ميمون بن مهران: عن أبيه، أن

(١) تاريخ ابن عساكر.

(٢) المصدر السابق نفسه.

معاوية أوصى فقال: كنت أُوضّئ رسول الله ﷺ، فنزع قميصه وكسانيه، فرفعته، وخبّأت قلامة أظفاره، فإذا متّ فألبسوني القميص على جلدي، واجعلوا القلامة مسحوقة في عيني، فعسى [الله أن يرحمني ببركتها].

● قال أبو عمرو بن العلاء: لما احتُضر معاوية، قيل له: ألا توصي؟ فقال: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلّة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرجُ غيرك، فما وراءك مذهب، وقال:

هو الموت لا مَنجى من الموت والذي
نُحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

● قال أبو مريم الأزدي: دخلت على معاوية فقال: ما أنعمنا بك أبا فلان - وهي كلمة تقولها العرب - فقلت: حديث سمعته أخبرك به، سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من ولاّه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخَلّته وفقره» قال: فجعل معاوية - حين سمع هذا الحديث - رجلاً على حوائج الناس[1].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

التواضع:

رغم كل ما يروى عن معاوية وخاصةً في شبابه فإنه كان متواضعاً، ويكره التعالي والكبر.

● روى الإمام أحمد عن أبي مجلز، قال: خرج معاوية على الناس فقاموا له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من أحبّ أن يتمثّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار». وفي روايةٍ قال: خرج معاوية على ابن عامر وابن الزبير، فقام له ابن عامر، ولم يقم له ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من أحبّ أن يتمثّل له العباد قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

الحلم:

كان معاوية يرى أن الرجل لا يسود إلا بحلمه ولا يبلغ ما يريد إلا بالحلم، وقد عمل بذلك فكان أكثر الناس حلماً، واشتهر بذلك.

● قال عبد الملك بن مروان يوماً وذكر معاوية فقال: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه.

● قال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحداً أعظم حلماً ولا أكثر سؤدداً، ولا أبعد أناةً، ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية.

• قال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً، فقيل له: لو سطوت عليه، فقال: إني لأستحيي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحدٍ من رعيتي. وفي روايةٍ، قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك! فقال: إني لأستحيي أن يكون جرم أحدٍ أعظم من حلمي.

• قال الأصمعي عن الثوري، قال معاوية: إني لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون زلّة لا أواريها بستري.

• قال ابن أخت معاوية عبد الرحمن بن أم الحكم لمعاوية: إن فلاناً يشتمني، فقال له: طأطئ لها فتمرّ فتجاوزك.

• قال أبو عمرو بن العلاء: قال معاوية: ما يسرّني بذل الكرم حمر النعم. وقال: ما يسرني بذل الحلم عزّ النصر.

• قال معاوية: يا بني أمية فارقوا قريشاً بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً، وأوسعه حلماً، فأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريفٍ شرفه، ولا زاده إلا كرماً.

● قال معاوية: آفة الحلم الذلّ.

● وقال معاوية: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم.

● وقال عبد الله بن الزبير: لله درّ ابن هند! إن كنا لنفرقه وما الليث على براثنه بأجرأ منه، فيتفارق لنا. وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتّعنا به ما دام في هذا الجبل حجر - وأشار إلى أبي قبيس -.

● وقال رجل لمعاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفساً حين يُسأل، وأحسنهم في المجالس خلقاً، وأحلمهم حين يستجهل.

● قال أبو عبيدة - مَعمر بن المثنى -: كان معاوية يتمثّل بهذه الأبيات كثيراً.

فما قتل السفاهة مثل حلمٍ
يعود بهٍ على الجهل الحليم
فلا تَسفه وإن ملئت غيظاً
على أحدٍ فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخاً لك عند ذنبٍ
فإن الذنب يغفره الكريم

وبهذا ساد معاوية. ومعروف قول الشاعر:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب

ولا ينال العلا من طبعه الغضب

العمل اليومي:

كان معاوية يقضي الأيام العادية التي ليس فيها غزو، وليس من عملٍ رسميٍ على النحو الآتي:

كان إذا صلّى الفجر استمع إلى بعض القصص ذات الحكمة والعبرة. ثم يدخل بيته فيأمر وينهى، حتى إذا كان الغداة صلى أربع ركعاتٍ.

ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن للخاصة فيتحدّث إليهم، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون عمله ذلك اليوم كله.

يتناول بعد ذلك طعام الضحى، وهو عادةً فضلة عشاء الليل الماضي، ثم يدخل إلى منزله لقضاء بعض حاجاته.

وقبيل الظهر يدخل إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة، فيتقدّم إليه الضعيف، والأعرابي، والصبي، والمرأة، ومن ليس له معيل، وكل يشكو ما يهمه فيعمل معاوية على إنصافه إن كان قد ظلم، أو مساعدته إن كان

يحتاج إلى ذلك. حتى إذ لم يبق أحد إلا تكلم عن شكاته، أذن للناس على قدر منازلهم، وطلب من الجميع أن يرفعوا إليه حاجة من لا يصل إليه، فيرفعونها، فيقضي حوائج أولئك الذين لا يصلون إليه.

ويُنادى لصلاة الظهر، فيخرج فيصلي، ثم يدخل فيصلي أربع ركعات، ثم يجلس فيأذن للخاصّة، ويُقدّم الغداء، وبعده الفواكه في الصيف، والأقراص المعجونة باللبن والسكر في الشتاء. ويجلس إلى العصر، فإذا نُودي للصلاة خرج فصلى، ورجع إلى بيته فاستراح حتى قبيل الغروب، وأذِن للناس، ثم أتي بالعشاء فيفرغ منه، ويكون قد حان وقت النداء للمغرب، فيخرج ويصلي. ويرجع إلى بيته، ولا يدخل عليه أحد في هذا الوقت.

وينادى لصلاة العشاء، فيخرج ويُصلّي، ويرجع إلى بيته فيأذن للخاصة والوزراء، ويتداولون شؤون الحكم. ويسمر ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها، وسير ملوك الأمم وحروبها، ومكايدها، وسياساتها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة.

وينفرد بعد ذلك مع أهله فيسمع الطُّرَف من نسائه، ويتناول الحلوى معهن. ثم ينام، وعند الفجر يخرج

للصلاة. ويعود فيفعل كما سبق له أن عمل في اليوم الذي انقضى[1].

أحكم معاوية السياسة، وأتقنها حتى جذب إليه قلوب الخاصة والعامة فأطاعوه، وساروا معه في كل ما يرغب.

ولّى معاوية قضاء الشام فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي، ثم أبا إدريس الخولاني. وكان على شرطته قيس بن حمزة.

بنى معاوية القبة الخضراء بدمشق، وسكنها أربعين سنةً.

معاوية أول من خطب قاعداً.

معاوية أول من أحدث الأذان بالعيد.

معاوية أول من وضع البريد في الإسلام.

معاوية أول من اتّخذ ديوان الخاتم، وولاّه عبيد الله بن أوس الغساني، وسلّم إليه الخاتم، ومكتوب على فصّه «لكل عملٍ ثواب».

---

(١) مروج الذهب. بتصرّف.

معاوية أول من حزم الكتب وختمها.

معاوية أول من اتّخذ الحرس.

معاوية أول من اتّخذ المقصورة في الجامع.

معاوية أول من أذن بتجريد الكعبة من الكسوة السابقة، وكانت كسوتها قبل ذلك تُطرح عليها شيئاً فوق شيء.

معاوية أول من استحلف في البيعة.

الفصل الخامس
مكانة معاوية، رضي الله عنه

معاوية، رضي الله عنه، صحابي جليل، وإن لم يكن من الدرجة الأولى إذا صنّفنا الصحابة على درجاتٍ، فعددنا الأوائل من المهاجرين والأنصار ممن شهد بدراً درجةً، وعددنا من شهد أُحُداً، أو هاجر إلى الحبشة، ومن كان في هذه المنزلة درجةً ثانيةً، ثم الذين أسلموا قبل فتح مكة، ثم الطلقاء وهم أولئك الذين دخلوا بالإسلام بعد الفتح، وذلك تصنيف أهل السير والطبقات، وهكذا يكون معاوية، رضي الله عنه، من الصحابة من الدرجة الثالثة حيث أسلم قبل الفتح، وإن كان يحلو لبعضهم أن يعدّه من الطلقاء يُلحقه بأبيه، وربما حرص بعضهم وأصرّ على أن إسلامه كان يوم الفتح ظاهرياً و. . . والله أعلم بالسرائر، ويزيد أعداء الإسلام على ذلك، من باب الكيد.

غير أن كتابته للوحي، وروايته لحديث

رسول الله ﷺ، وجهاده، ومواقفه النبيلة في الإمارة والخلافة قد رفع ذلك من مكانته، إضافةً إلى دعاء النبي ﷺ، له:

عن ابن عباسٍ قال: كنت ألعب مع الغلمان، فدعاني النبي ﷺ، وقال: «ادع لي معاوية»، وكان يكتب الوحي.

وعن ابن عباسٍ: أنه كان كاتب النبي ﷺ، منذ أسلم(١).

وعن العرباض بن سارية السلمي، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يدعونا إلى السحور في شهر رمضان: «هلم إلى الغداء المبارك»، ثم سمعته يقول: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»(٢).

وعن ابن أبي عميرة أن رسول الله ﷺ، دعا لمعاوية فقال: «اللهم علّمه العلم، واجعله هادياً مهدياً، واهده واهد به»(٣).

وقد قال البخاري في كتاب المناقب: [ذكر معاوية بن أبي سفيان] حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه أحمد والطبري.

(٣) رواه الطبراني.

المعافى عن عثمان بن الأسود عن ابن أبي مليكة، قال: أوتر معاوية بعد العشاء بركعةٍ وعنده مولى لابن عبّاسٍ، فأتى ابن عبّاسٍ، فقال: أوتر معاوية بركعةٍ بعد العشاء، فقال: دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ.

حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن عمر، حدثني ابن أبي مليكة، قال: قيل لابن عبّاسٍ: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؟ ما أوتر إلا بواحدةٍ، قال: أصاب إنه فقيه.

حدثنا عمرو بن عبّاسٍ حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي التّيّاح قال: سمعت حُمران بن أبان عن معاوية، رضي الله عنه، قال: إنكم لتصلون صلاةً، لقد صحبنا النبي ﷺ، فما رأيناه يُصلّيها، ولقد نهى عنهما، يعني الركعتين بعد العصر(١).

له في مسند «بقيّ بن مَخْلد»(٢) مائة وثلاثة وستون

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٣٠.

(٢) بقيّ بن مَخْلَد بن يزيد: أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي، الإمام، القدوة، الحافظ، صاحب التفسير، والمسند: ولد حوالي سنة مائتين. سمع من أبي بكر بن أبي شيبة. وكان إماماً مجتهداً، صالحاً، صادقاً، مخلصاً. تفقّه بإفريقية على سحنون بن سعيد. كان بقيّ بن مخلد يفتي بالأثر، وكان علماء الأندلس يعملون بمذهب مالك فاختلفوا معه. وكان من المجاهدين، شهد سبعين غزوةً، وتوفي لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، سنة ستّ وسبعين ومائتين.

حديثاً، واتفق له البخاري ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخاري بأربعةٍ، ومسلم بخمسةٍ.

حدّث معاوية عن النبي ﷺ، وكتب له مرّاتٍ يسيرة، وحدّث أيضاً عن أخته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وعن أبي بكرٍ، وعمر.

وروى عنه: ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وأبو صالح السمان، وأبو إدريس الخولاني، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، وسعيد المقبري، وخالد بن معدان، وهمّام بن مُنبّه، وعبد الله بن عامر المقرئ، والقاسم أبو عبد الرحمن، وعمير بن هانئ، وعبادة بن نُسَيّ، وسالم بن عبد الله، ومحمد بن سيرين، ووالد عمرو بن شعيب.

وحدّث عنه من الصحابة أيضاً: جرير بن عبد الله البجلي، وأبو سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، وعبد الله بن الزبير.

وكان معاوية يعرف للسابقين له قدرهم، ويُجلّهم، ويضعهم في مكانتهم اللائقة بهم، ويضع نفسه دونهم، ويُعطيهم حقهم، ويقرّ بفضلهم عليه، وإن حدث بينهم خلاف بل وإن وقع صراع وقتال.

● قال أبو سفيان لابنه معاوية عندما تسلّم الإمرة: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخّرنا، فرفعهم سَبْقهم وقدّمهم عند الله وعند رسوله، وقصّر بنا تأخيرنا، فصاروا قادةً وسادةً، وصرنا أتباعاً، وقد ولّوك جسيماً من أمورهم فلا تُخالفهم، فإنك تجري إلى أمد، فنافس، فإن بلغته أورثته عقبك[1].

● قال ابن جرير: سأل سعيد بن عثمان بن عفان معاوية أن يُولّيه خراسان، فقال: إن بها عبيد الله بن زياد، فقال: أما لقد اصطنعك أبي ورقّاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يُجارى إليه، ولا يُسامى، فما شكرت بلاءه، ولا جازيته بآلائه، وقدّمت عليّ هذا ـ يعني يزيد بن معاوية ـ وبايعت له، ووالله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً. فقال له معاوية: أما بلاء أبيك عندي فلا يحق على الجزاء به، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى تكشّفت الأمور، ولست بلائم نفسي في التشمير. وأما فضل أبيك على أبيه، فأبوكَ والله خير مني، وأقرب برسول الله ﷺ. وأما فضل أمك على أمه فما لا يُنكر، فإن امرأةً من قريشٍ خير من امرأةٍ من كلب. وأما فضلك عليه فوالله ما أحبّ أن الغوطة

---

(١) البداية والنهاية.

دُحِسَت ليزيد رجالاً مثلك ـ يعني أن الغوطة لو ملئت رجالاً مثل سعيد بن عثمان كان يزيد خيراً وأحبّ إليّ منهم. فقال له يزيد: يا أمير المؤمنين، ابن عمك، وأنت أحقّ من نظر في أمره، وقد عتب عليك فيّ فأعتبه. فولاّه حرب خراسان.

● وروي أن معاوية قال لضرار الصّدّائيّ: صف لي عليّاً، قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنّه. قال: أما إذا كان لا بدّ من وصفه، كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس إلى الليل ووحشته، وكان غزير العَبْرة طويل الفِكْرة، يعجبه من اللباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُن. كان فينا كأحدنا، يُجيبنا إذا سألناه، ويُنبئنا إذا استنبأناه. ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبةً له، يُعظّم أهل الدين، ويُقرّب المساكين. لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ـ قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرّي غيري، إليّ تعرّضت أم إليّ تشوّقت؟ هيهات

هيهات! قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك قليل ـ آهٍ آهٍ من قلّة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا حسن، كان والله كذلك، فكيف حُزنك عليه يا ضرار؟ قال: حُزن من ذُبح واحدها في حِجرها[١].

● وحسبُك بمن يُؤمّره عمر، ثم عثمان على إقليم ـ وهو ثغر ـ فيضبطه، ويقوم به أتم قيام، ويُرضي الناس بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألّم مرةً منه، وكذلك فليكن الملك. وإن كان غيره من أصحاب رسول الله ﷺ، خيراً منه بكثيرٍ، وأفضلَ وأصلحَ، فهذا الرجل ساد، وساس العالم بكمال عقله، وفرط حلمه، وسعة نفسه، وقوة دهائه، ورأيه. وله هنات وأمور، والله الموعد[٢].

● جاء أبو مسلم الخولاني، وأناس إلى معاوية، وقالوا: أنت تُنازع عليّاً أم أنت مثله؟ فقال: لا والله، إني لأعلم أنه أفضل مني، وأحق بالأمر مني، ولكن

---

(١) صفوة الصفوة: ابن الجوزي.

(٢) سير أعلام النبلاء.

ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، والطالب بدمه؟ فائتوه، فقولوا له: فليدفع إليّ قتلة عثمان، وأسلم له. فأتوا عليّاً، فكلّموه، فلم يدفعهم إليه[1].

● عن الشعبي، قال: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة، تلقّته قريش، فقالوا: الحمد لله الذي نصرك، وأعلى أمرك، فسكت حتى دخل المدينة، وعلا المنبر، فحمد الله وقال: أما بعد، فإني والله وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تُسرّون بولايتي ولا تُحبّونها، وإني لعالم بما في نفوسكم، ولكن خالستكم بسيفي هذا مخالسةً، ولقد أردت نفسي على عمل أبي بكرٍ وعمر، فلم أجدها تقوم بذلك، ووجدتها عن عمل عمر أشدّ نفوراً، وحاولتها على مثل سُنَيّات عثمان، فأبت عليّ، وأين مثل هؤلاء؟ هيهات أن يُدرك فضلُهم، غير أني سلكت طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكلٍ فيه مواكلة حسنة، ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة. فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم. والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدّم مما قد

(١) سير أعلام النبلاء.

علمتموه، فقد جعلته دُبُر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فارضوا ببعضه، فإنها ليست بقائبةٍ قوبها[1]، وإن السيل إن جاء تترى - وإن قلّ - أغنى، وإياكم والفتنة، فلا تهمّوا بها فإنها تُفسد المعيشة، وتُكدّر النعمة، وتورث الاستئصال، واستغفر الله لي ولكم، ثم نزل[2].

● وقال ابن دريد، عن أبي حاتم عن العتبي، قال: قال معاوية: يا أيها الناس، ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير مني، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولايةً، وأنكاكم في عدوّكم، وأدركم حَلبا[3].

● ابن عيينة: حدّثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي، سمعت معاوية يقول: لو أن عليّاً لم يفعل ما فعل، ثم كان في غار، لذهب الناس إليه حتى يستخرجوه منه[4].

● المدائني: عن أبي عبيد الله، عن عبادة بن نُسَيّ،

---

(١) القائبة: البيضة. والقوب. الفرخ.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٣١٦/١٦. والبداية والنهاية.

(٣) البداية والنهاية.

(٤) سير أعلام النبلاء.

قال: خطب معاوية، فقال: إني من زرعٍ قد استَحصد، وقد طالت إمرتي عليكم حتى مَلِلْتُكم ومللتموني، ولا يأتيكم بعدي خير مني، كما أن من كان قبلي خير مني، اللهم قد أحببت لقاءك فأحب لقائي.

● كان يغزو الروم كل سنةٍ مرتين، مرةً في الصيف ومرة في الشتاء، ويأمر رجلاً من قومه فيحج في الناس.

● أغزى ابنه يزيد بلاد الروم، فسار معه خلق كثير من كبراء الصحابة حتى حاصر «القسطنطينية»، وقد ثبت في الصحيح: «أول جيشٍ يغزو القسطنطينية مغفور له».

● سئل الإمام أحمد عما جرى بين عليٍّ ومعاوية فقرأ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ وكذا قال غير واحدٍ من السلف.

● وقال الأوزاعي: سئل الحسن عما جرى بين عليٍّ وعثمان فقال: كانت لهذا سابقة ولهذا سابقة، ولهذا قرابة ولهذا قرابة، فابتلي هذا وعوفي هذا، وسئل عما جرى بين عليٍّ ومعاوية، فقال: كانت لهذا قرابة ولهذا قرابة، ولهذا سابقة ولم يكن لهذا سابقة، فابتليا جميعاً. وقال كلثوم بن جوشن: سأل النضر أبو عمر الحسن البصري فقال: أبو بكر أفضل أم عليّ؟ فقال: سبحان الله ولا سواه، سبقت لعلي سوابق يشركه فيها أبو بكر،

وأحدث عليّ حوادث لم يشركه فيها أبو بكر، أبو بكر أفضل. قال: فعمر أفضل أم عليّ؟ فقال: مثل قوله في أبي بكرٍ، ثم قال: عمر أفضل. ثم قال: عثمان أفضل أم عليّ؟ فقال مثل قوله الأول، ثم قال: عثمان أفضل. قال: فعلّي أفضل أم معاوية؟ فقال: سبحان الله ولا سواه: سبقت لعليّ سوابق لم يشركه فيها معاوية، وأحدث عليّ أحداثاً شركه فيها معاوية، عليّ أفضل من معاوية. وقد روي عن الحسن البصري أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء، قتاله عليّاً، وقتله حجر بن عديٍّ، واستلحاقه زياد بن أبيه، ومبايعته ليزيد ابنه[1].

وقال جرير بن عبد الحميد عن مغيرة قال: لما جاء خبر قتل عليٍّ إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم، وفي روايةٍ أنها قالت له: بالأمس تقاتلنه واليوم تبكينه؟[2].

ومعاوية من خير الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببريء من الهنات، والله يعفو عنه[3].

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سير أعلام النبلاء.

البَابُ الثَّانِي

أُسْرَةُ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الفصل الأول
والدا معاوية، رضي الله عنه

ينتمي معاوية، رضي الله عنه، إلى أبوين (عبشميين) من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. وبنو عبد مناف أحد بطون قبيلة قريشٍ المعروفة، ويضمّ بنو عبد منافٍ فرعين مشهورين في قريشٍ هما: بنو هاشمٍ بن عبد مناف الذين ينتمي إليهم رسول الله ﷺ، وبنو أُميّة بن عبد شمس بن عبد منافٍ الذين ينتمي إليهم مُعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، فرسول الله ﷺ، ومعاوية، رضي الله عنه، من بطنٍ واحدٍ من قريشٍ، هو بنو عبد مناف.

والد مُعاوية:

أبو سفيان صخر بن حرب بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف: وُلد قبل الهجرة بثلاثٍ وستين سنةً، فمولده قبل مولد رسول الله ﷺ، بعشر سنواتٍ.

كان سيّد بني أُميّة، وأحد سادات قريشٍ، وكانت راية قريشٍ بيده فهو سيّد الوادي دون منازعٍ إذ يقف سادة قريشٍ جميعاً دون استثناءٍ تحت الراية التي يحملها.

وجاء الإسلام ووقف أبو سفيان في وجه الدعوة حيث كان أحد الزعماء القرشيين الذين حالت زعامتهم دون رؤية الحق، إذ من الصعب على أصحاب المصالح والهوى من الزعماء أن ينفرد واحد منهم عن بقية الأعيان، لذا فقد وقف أكثرهم صفّاً واحداً في سبيل مصالحهم التي تصوّروا أنها تضيع فيما لو انتصر الحق، وفي سبيل أهوائهم التي عرفوا أنهم يفقدونها فيما لو نجحت الدعوة الجديدة، وهذا شأنهم جميعاً، وإن كان أبو سفيان رغم معاداته القوية للإسلام لم يتصرّف تصرّف بعضهم أمثال أبي جهلٍ عمرو بن هشامٍ، وعقبة بن أبي مُعيطٍ، وأميّة بن خلف وغيرهم من أولئك الذين أجرموا فقتلوا الإماء، وعذّبوا الأرقّاء، وأهانوا من استطاعوا إهانته من الذين اعتنقوا الإسلام. وسبحان الله فقد تكون المعاداة دون جرائم هي صفة الذين كتب الله لهم الهداية فيما بعد.

كان أبو سفيان أمير القافلة التي خرجت إلى الشام وفيها أموال قريش، والتي أراد رسول الله ﷺ، أن

يتعرّض لها مع أصحابه، فلمّا وصلوا إلى «العشيرة» وجدوا أن القافلة قد فاتتهم، فترك رسول الله ﷺ، طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيدٍ لرصدها حين العودة، وإخبار المسلمين عن ذلك، ورجع هو مع أصحابه إلى المدينة، فلما رجعت، ووصل خبر عودتها إلى رسول الله ﷺ، هبّ مع أصحابه للقائها، غير أن أبا سفيان قد بلغه النبأ فغيّر خطّ سيره، واستأجر من يُعلم قريشاً ويستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها، فهبّت قريش مُتّجهةً نحو المدينة، ولكن أبا سفيان قد أبلغ سادة قريش أنه قد نجا، فليعودوا إلى مكة غير أنهم قد ركبوا رؤوسهم، وأخذتهم الحمية حمية الجاهلية فأصّروا إلاّ المضيّ يدفعهم الأمل بالنصر، وتحدوهم الرغبة بالغُنم، يحلمون بالدعاية بين قبائل العرب فتهابهم، ويتصوّرون سوق الأسارى والسبايا أمامهم، فمضوا، والتقوا بالمسلمين في بدرٍ فكانت تلك المعركة الشهيرة التي قُتل فيها عدد من قادة قريشٍ وجُندل عدد من سادتهم، منهم: والد زوجته هند، عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، ثم ابن أبي سفيان حنظلة، كما أُسر ابنه الآخر عمرو، وهذا ما زاد من مُعاداة أبي سفيان، وزوجه هند للإسلام، وحقدهما عليه، ولا نستطيع أن نُبعد عن ذلك بقية أفراد الأسرة، وفي الوقت

نفسه فقد فُسح المجال لزيادة زعامة أبي سفيان بعد ذهاب عددٍ من سادة قريشٍ عن الساحة بقتلهم.

وخرج أبو سفيان في مائتي راكبٍ من قريشٍ ليُغير على المدينة ثأراً لمعركة بدرٍ، ولما أصبح على مقربةٍ منها، تسلّل إلى اليهود فزار بعض كبرائهم، ثم رجع إلى أصحابه، فبعث رجالاً منهم إلى المدينة، فأتوا ناحيةً منها يُقال لها «العُرَيْض» فحرقوا بعض نخلها، وقتلوا رجلاً من الأنصار، وحليفاً له في أرضٍ لهما، ثم انصرفوا خائفين، ووصل الخبر إلى المدينة، فهبّ رسول الله ﷺ، مع بعض أصحابه إليهم، فلم يُدركوهم حيث كان أبو سفيان ورجاله قد فرّوا مذعورين، وقد تركوا أزوادهم، وما معهم ليتخفّفوا في سبيل السرعة للهرب، وعُرفت هذه الغارة بـ «غزوة السويق» لأن أكثر ما تركه المغيرون من أزواد كان من السويق.

وقاد أبو سفيان قريشاً في معركة أُحُدٍ فنالوا بعض الثأر بما أصابوه من قتل الحمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحشٍ، ومُصعب بن عميرٍ، وسعد بن الربيع، وآخرين من صحابة رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم جميعاً، ولكن بعد أن خسرت قريش في الجولة الأولى من هذه المعركة خسارةً كبيرةً وولّى رجالها ومن

معهم من النساء الأدبار، غير أن مُخالفة تعليمات رسول الله ﷺ، بترك الرماة مواقعهم حيث ظنوا أن المعركة قد انتهت بهزيمة المشركين، وهذا ما فسح المجال لخيالة قريشٍ بالالتفاف على المسلمين، وحصرهم من الطرفين فنالت قريش بذلك بعض ما كانت تهدف إليه. وشهدت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، أم مُعاوية هذه المعركة مع نساء بعض رجالات قريشٍ الذين كانوا مع أبي سفيان. وعندما انسحب أبو سفيان من أرض المعركة كان مما قاله مخاطباً المسلمين «إن موعدكم بدر للعام المقبل»، فقال رسول الله ﷺ، لأحدٍ من أصحابه: «قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد».

ولم يجرؤ أبو سفيان ملاقاة رسول الله ﷺ، إذ خرج رسول الله في أثره بعد الانحساب من ميدان معركة أُحُدٍ. وقد وصل رسول الله ﷺ، مع المسلمين إلى «حمراء الأسد». كما جبُن أبو سفيان من الرجوع إلى المدينة من «الروحاء» عندما فكّر بذلك ليستأصل المسلمين ـ حسب زعمه ـ.

وخرج أبو سفيان في العام المقبل باتجاه بدرٍ، حسب الموعد مع المسلمين غير أنه عاد من الطريق من «عُسْفَان»، ولم يحدث قتال في ذلك العام.

وقاد أبو سفيان قريشاً، وسار مع الأحزاب، وبالاتفاق مع اليهود لضرب المدينة غير أنهم فشلوا جميعاً، وعادوا خائبين إذ أرسل الله عليهم ريحاً عاصفةً، فلا تستقر لهم خيمة، ولا تقوم لهم نار، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾[1].

وكان صلح الحديبية بين المسلمين وقريشٍ، وبعدها خرج أبو سفيان مع ركبٍ في تجارةٍ إلى الشام. وفي هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ، قد كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى كل جبارٍ يدعوهم إلى الله تعالى. عن ابن عباسٍ، قال: حدّثني أبو سفيان من فيه إلى فيّ قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام، إذ جيء بكتابٍ من النبي ﷺ، إلى هرقل، قال: وكان دِحْيَةُ الكلبي جاء فدفعه إلى عظيم بُصرى، فدفعه عظيم بُصرى إلى هرقل، قال: فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعُم أنه نبيّ؟ فقالوا: نعم.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٩.

قال: فدُعيت في نفرٍ من قريشٍ، فدخلنا على هرقل، فأُجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الذي يزعُم أنه نبيّ؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعُم أنه نبيّ، فإن كَذَبني فكذّبوه، قال أبو سفيان: وأيم الله، لولا أن يُؤثروا عليّ الكذب لكذبت، ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسبٍ، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قال: قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: أيتبّعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم، قال: يزيدون أو ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون، قال: هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قال: قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قال: قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحزب بيننا وبينه سجالاً، يُصيب منا ونُصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها ـ قال: والله ما أمكنني من كلمةٍ أُدخل فيها شيئاً غير هذه ـ قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا.

ثم قال لترجُمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم، فزعمت أنه فيكم ذو حسبٍ، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها. وسألتك هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلتُ: لو كان من آبائه ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم، فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب ويكذب على الله، وسألتك: هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطةً له، فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمّ. وسألتك: هل قاتلتموه، فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تُبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك هل يغدر، فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال أحد هذا القول قبله، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله، قلت رجل ائتم بقولٍ قيل قبله.

قال: ثم قال: بِمَ يأمركم؟ قال: قلت: يأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصلة، والعفاف.

قال: إن يك ما تقول فيه حقاً فإنه نبيّ، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلُغنّ ملكه ما تحت قدميَّ، قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمدٍ رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يُؤتك أجرك مرتين، فإن تولّيت فإن عليك إثم الأريسيّين و: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾)(1). فلما فرغ من قراءة الكتاب، ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط وأمر بنا فأُخرجنا، قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام[1].

وفي رواية: قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

اعتدَت بنو بكرٍ حليفة قريشٍ وبدعم منها على قبيلة خزاعة حليفة رسول الله ﷺ، وخافت قريش أن يُنجد المسلمون خزاعة، لذا سار أبو سفيان إلى المدينة ليُؤكّد صلح الحديبية، ويزيد في مدته، فدخل على ابنته أُمّ حبيبة زوج النبي ﷺ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله، طوته عنه، فقال: ما أدري أرغبت به عني أم رغبت بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، فلم أُحبّ أن تجلس عليه، فقال: لقد أصابك يا بنية بعدي شرّ، فقالت: بل هداني الله للإسلام. ثم خرج حتى أتى النبيّ ﷺ، فكلّمه لم يردّ عليه شيئاً، ثم أتى أبا بكرٍ فكلّمه ليُكلّم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعلٍ، ثم أتى عمر فكلّمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ، والله

---

(١) رواه البخاري.

لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به، ثم خرج حتى أتى عليّاً، وعنده فاطمة والحسن يدبّ بين يديها، فكلّمه في ذلك، فقال له: والله لقد عزم رسول الله ﷺ، على أمرٍ لا نستطيع أن نكلّمه فيه، والتفت إلى فاطمة، فقال: يا بنت محمّدٍ هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير بين الناس فيكون سيّد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد، فالتفت إلى عليٍّ فقال له: أرى الأمور قد اشتدّت عليّ فانصحني، قال: أنت سيّد كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وقدم مكة، وأخبر قريشاً ما جرى له، وما أشار به عليّ عليه، فقالوا له: والله ما زاد على أن يسخر بك.

ثم إن رسول الله ﷺ، تجهّز، وأمر الناس بالتجهُّز إلى مكة، وخرجوا لعشر مضين من رمضان، ولقيه العباس بن عبد المطلب بالجُحفة مُهاجراً فأمره رسول الله ﷺ، أن يُرسل رحله إلى المدينة، ويعود معه، وقال له: «أنت آخر المهاجرين». فلما نزل رسول الله ﷺ، مرّ الظهران، قال العباس بن عبد المطلب: يا هلاك قريشٍ، والله لئن بغتها رسول الله ﷺ، في بلادها فدخل عنوةً فإنه لهلاك قريشٍ إلى آخر الدهر،

فجلس على بغلة النبيّ ﷺ، وقال: أخرج إلى الأراك لعلّي أرى حطّاباً أو رجلاً يدخل مكة فيُخبرهم بمكان رسول الله ﷺ، فيأتونه ويستأمنونه، قال: فخرجت أطوف في الأراك إذ سمعت صوت أبي سفيان، وحكيم بن حزامٍ، وبُديل بن ورقاء الخزاعيّ قد خرجوا يتجسّسون الخبرَ، فقال أبو سفيان: ما رأيت نيراناً قط أكثر من هذه، فقال بُديل: هذه نيران خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلّ من ذلك، فقلت: يا أبا حنظلة ـ يعني أبا سفيان كان يُكنى بذلك ـ فقال: أبو الفضل، قلت: نعم، قال: لبيك فداك أبي وأمي ما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ، في المسلمين أتاكم في عشرة آلافٍ، قال: ما تأمرني؟ قلت: تركب معي فأستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فردفني فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ، فكلما مررت بنارٍ من نيران المسلمين ونظروا إليّ يقولون: عمّ رسول الله، على بغلة رسول الله حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال: أبو سفيان، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهدٍ، ثم اشتدّ نحو النبي ﷺ، وركضت البغلة فسبقت عمر، ودخل عمر على رسول الله ﷺ، فأخبره، وقال: دعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم أخذت برأس رسول الله ﷺ، وقلت: لا يُناجيه اليوم أحد دوني، فلما

أكثر فيه عمر، قلت: مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد منافٍ، ولو كان من بني عديٍّ، ما قلت هذه المقالة، فقال: مهلاً يا عبّاس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم. فقال رسول الله ﷺ: اذهب به فقد أمّناه حتى تغدو عليّ به بالغداة، فرجعت به إلى منزلي، فلما أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلٰه إلا الله؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً، فقال: ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي أما هذه ففي النفس منها شيء، قال العباس: فقلت له: ويحك أسلم واشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك، قال: فتشهّد وأسلم معه حكيم بن حزامٍ، وبُديل بن ورقاء. فقال رسول الله ﷺ، للعباس: اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله، فقلت: يا رسول الله، إنه يحبّ الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه، فقال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن». قال: فخرجت به فحبسته عند خطم الجبل، فمرّت عليه القبائل،

فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: أسلم، فيقول: مالي ولأسلم، ويقول: من هؤلاء؟ فأقول: جهينة، فيقول: مالي ولجهينة، حتى مرّ رسول الله ﷺ، في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، فقال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ، في المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبل ولا طاقة، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقلت: ويحك إنها النبوة، فقال: نعم إذن، فقلت: إلْحق بقومك سريعاً فحذِّرهم، فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم بن حزام، فصرخ في المسجد: يا معشر قريشٍ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فقالوا: فما قال؟ قال: من دخل داري فهو آمن، قالوا: ويحك وما تُغني عنا دارك، فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ثم قال: يا معشر قريشٍ، أسلموا تسلموا، فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته، وقالت: يا آل غالب، اقتلوا هذا الشيخ الأحمق، فقال: أرسلي لحيتي، وأُقسم لئن لم تُسلمي أنت لتُضربنَّ عنقك، ادخلي بيتك، فتركته[(١)].

ودخل المسلمون مكة فاتحين لعشرٍ بقين من رمضان

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير.

سنة ثمانٍ، وقد أسلم أبو سفيان صخر بن حربٍ، كما أسلم أهل مكة، وكانوا من الطلقاء حيث أطلقهم رسول الله ﷺ، وعفا عنهم، بعد أن انتصر عليهم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ولكن يبدو أن بعضهم ومنهم أبو سفيان كان إسلامه ظاهراً خوفاً من السيف، وربما كان أبو سفيان على يقينٍ بنبوة محمدٍ ﷺ، غير أن نفسه لم تكن تُطاوعه على الإيمان بذلك، وزعامته لم تكن لتقبل الانقياد والخضوع لرسول الله ﷺ. فيروى أن رسول الله ﷺ، دخل الكعبة عام الفتح، ومعه بلال، فأمره أن يُؤذّن، وأبو سفيان بن حربٍ، وعتّاب بن أُسيدٍ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتّاب: لقد أكرم الله أُسيداً أنَ لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحقّ لاتّبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلّمت لأخبرت عني هذه الحصا. فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «لقد علمت الذي قلتم»، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتّاب: نشهد إنك رسول الله، ما اطّلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك[1]. ومن كلام أبي سفيان يبدو

---

(١) البداية والنهاية.

أنه مقتنع بنبوة رسول الله ﷺ، ولكن في نفسه تعنت ومكابرة ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[1].

ويروى أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً، فقال في نفسه: لو جمعت لمحمّدٍ جمعاً، فإنه ليحدّث نفسه بذلك، إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه، وقال: «إذن يُخزيك الله» فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ، قائم على رأسه، فقال: ما أيقنت أنك نبيّ حتى الساعة[2].

وعن ابن عبّاسٍ، رضي الله عنهما، أنه قال: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ، يمشي والناس يطئون عقبه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال، فجاء رسول الله ﷺ، حتى ضرب بيده في صدره، وقال: «إذن يُخزيك الله». فقال: أتوب إلى الله، واستغفر الله مما تفوهت به[3].

لما كان ليلة ودخل الناس مكة ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليلٍ وطوافٍ بالبيت حتى أصبحوا، فقال أبو سفيان لهندٍ: أترى هذا من الله؟ قالت: نعم هذا من الله، ثم أصبح أبو سفيان، فغدا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «قلت لهندٍ: أترى هذا من الله؟

---

(١) سورة غافر: الآية ٥٦.

(٢)(٣) البداية والنهاية.

قالت: نعم هذا من الله» فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يُحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس إلا هند.

وهكذا أسلم أبو سفيان بقلبه، وأيقن بنبوة محمّدٍ ﷺ، غير أن نفسه لم تُطاوعه على التسليم بذلك فبقي فيها شيء ـ والله أعلم ـ.

وخرج أبو سفيان مع رسول الله ﷺ، إلى حنينٍ، ولما انهزم المسلمون في بداية المعركة وتراجعوا، قال أبو سفيان صخر بن حربٍ: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ـ وكانت الأزلام لا تزال معه في جعبته ـ. ثم انتصر المسلمون نصراً مُؤزّراً، وفرّت فرقة من المشركين نحو الطائف وتحصنّت فيها، فسار وراءها رسول الله ﷺ، وأصحابه، وانطلق معهم أبو سفيان بن حربٍ، وحاصروا الطائف ما يقرب من شهرٍ، وفقد أبو سفيان صخر بن حربٍ إحدى عينيه أثناء الحصار.

وعندما قسم رسول الله ﷺ، الغنائم في «الجعرانة» أعطى أبا سفيان صخر بن حربٍ مائةً من الإبل، وأربعين أوقية من الفضة، وكذلك أعطى ولديه يزيد ومعاوية العطاء نفسه يتألّفه كي يُسلموا، ويبدو أن إسلام أبي سفيان قد حسُن بعدها ـ والله أعلم ـ.

وبعد أن اطمأن قلب أبي سفيان بالإيمان أراد أن يُجاهد في سبيل الله ويتقرّب من رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ثلاثاً أَعطينهن، قال: «نعم». قال: تُؤمّرني حتى أُقاتل الكفّار كما كنت أُقاتل المسلمين، قال: «نعم». قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم». وذكر الثالثة، وهي أنه أراد أن يُزوّج رسول الله ﷺ، ابنته الأخرى (عزّة)، واستعان على ذلك بأختها أم المؤمنين أم حبيبة رملة، رضي الله عنها. روى البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أم حبيبة، رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله، انكح أختي عزّة بنت أبي سفيان، قال: «أو تُحبين ذلك؟»، فقالت: نعم، ولست لك بمخليه، وأحبّ من شاركني في خيرٍ أختي، فقال النبي ﷺ: «إن هذا لا يحلّ لي». قلت: فإنا نُحدّث أنك تريذ أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟»، قلت: نعم، قال: «لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلّت لي، لأنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثُويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»[1].

---

(١) جامع الأصول: رقم الحديث: ٩٠٣٦.

بقي أبو سفيان في مكة بعد أن رجع رسول الله ﷺ، إلى المدينة مع أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة لفتح مكة. ثم إن رسول الله ﷺ، ولّى أبا سفيان على نجران فسار إليها. وتوفّي رسول الله ﷺ، وهو راضٍ عن أبي سفيان، وأبو سفيان عامله على نجران.

وارتدت بعض الأعراب عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبدء خلافة الصديق، رضي الله عنه، كما ارتدّ بعض الناس في بعض الجهات، وثبت أبو سفيان على الإيمان، وأرسل الصديق الجيوش لفتح الشام، وكان يزيد بن أبي سفيان قائد أحد هذه الجيوش الأربعة، وكانت وجهته دمشق. وكان أبو سفيان صخر بن حربٍ قد خرج مع المجاهدين في سبيل الله، وقد سار تحت راية ابنه يزيد، وقد بلغ أبو سفيان يومذاك الخامسة والسبعين من العمر.

وشهد أبو سفيان اليرموك، ويُقال: إن الصحابة لما اجتمعوا للمشورة في كيفية المسير إلى الروم، جلس الأمراء لذلك فجاء أبو سفيان فقال: ما كنت أظنّ أن أُعمّر حتى أُدرك قوماً يجتمعون لحربٍ ولا أحضرهم، ثم أشار أن يتجزّأ الجيش ثلاثة أجزاءٍ فيسير ثلثه فينزلون

تجاه الروم، ثم تسير الأثقال والذراري في الثلث الآخر، ويتأخّر خالد بالثلث الأخير حتى إذا وصلت الأثقال إلى أولئك سار بعدهم، ونزلوا في مكانٍ تكون البرية من وراء ظهورهم لتصل إليهم البُرد والمدد، فامتثلوا ما أشار به، ونعم الرأي هو.

ووعظ أبو عبيدة بن الجراح الناس، ثم تكلّم عمرو بن العاص، ثم تكلم أبو سفيان فقال: يا معشر المسلمين، أنتم العرب، وقد أصبحتم في دار العجم مُنقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثيرٍ عدده، شديدٍ عليكم حَنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا يُنجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة. ألا وإنها سنّة لازمة، وإن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري، ليس لأحدٍ فيها مَعْقِل ولا معدل إلا الصبر، ورجاء ما وعد الله، فهو خير معوّل فامتنعوا بسيوفكم، وتعاونوا ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن، ثم عاد فنادى: يا معاشر أهل الإسلام حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم،

والشيطان والنار خلفكم. ثم سار إلى موقفه رحمه الله. كما وعظ الناس أبو هريرة.

وقال أبو سفيان يومذاك لابنه يزيد: يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمور المسلمين، أولئك أحقّ الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني، ولا يكونَنّ أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدوّ الإسلام منك فقال: أفعل - إن شاء الله -.

وجعل أبو سفيان يقف على كل كردوسٍ ويقول: الله. . . الله إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

قال سعيد بن المسيّب عن أبيه هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب. الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد.

وانتصر المسلمون في اليرموك انتصاراً مُؤزّراً، وفقد أبو سفيان يومها عينه الثانية، فعاش بعدها كفيفاً،

منقطعاً للعبادة يخشى ما سبق منه أن صدّ عن سبيل الله، فيجتهد ما استطاع في العبادة. ورغم انقطاعه وفقدان بصره فقد رويت قصص عنه لا أصل لها.

روى عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه».

عن ثابت أن أبا سفيان ابتنى داراً بمكة، فأتى أهل مكة عمر، فقالوا: إنه قد ضيّق علينا الوادي، وسيّل علينا الماء. قال فأتاه عمر فقال: خذ هذا الحجر فضعه ثمت، وهذا الحجر فضعه ثمت. ثم قال عمر: الحمد لله الذي أذلّ أبا سفيان بأبطح مكة.

عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أبيه قال: قدمنا مكة مع عمر، رضوان الله عليه، فأقبل أهل مكة، يسعون: يا أمير المؤمنين، أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا، فأقبل عمر ومعه الدِّرّة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً، فقال: ارفع هذا، فرفعه، ثم قال: وهذا وهذا، حتى رفع أحجاراً كثيرةً خمسةً أو ستةً، ثم استقبل عمر الكعبة فقال: الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه.

إن أبا سفيان قد خرج مع الجيوش لفتح الشام قبل

أن يتولّى عمر الخلافة، ورجع إلى المدينة وقد كُفّ بصره. فكيف يرفع أحجاراً من مكانٍ معلومٍ ويضعها في مكان معينٍ.

وروى عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه الآنف ذكره نفسه: عن الحسن، رضي الله عنه، قال: حضر باب عمر، رضوان الله عنه، سهيل بن عمرٍو، والحارث بن هشامٍ، وأبو سفيان بن حربٍ، في نفرٍ من قريشٍ من تلك الرؤوس، وصهيب، وبلال وتلك الموالي الذين شهدوا بدراً، فخرج ابن عمر فأذن لهم، وترك أولئك، فقال أبو سفيان: لم أر مثل اليوم قطّ يأذن لهؤلاء العبيد، ويتركنا على بابه، لا يلتفت إلينا. فقال سهيل بن عمرٍو، وكان رجلاً عاقلاً: أيها القوم إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم.

عن نوفل بن عمارة قال: جاء الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرٍو إلى عمر بن الخطاب، رضوان الله عنه، فجلسنا عنده، وهو بينهما، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر فيقول: هاهنا يا سهيل هاهنا يا حار[1]

---

(١) حار: ترخيم حارث. والترخيم حذف الحرف الأخير من الاسم.

فينحّيهما عنه، فجعل الأنصار يأتون عمر، فيُنحّيهما عنه، حتى صارا في آخر الناس، فلما خرجا من عند عمر قال الحارث بن هشام لسهيل بن عمرٍو: ألم تر ما صنع بنا؟ فقال له سهيل: أَيها الرجل لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا، دُعي القوم فأسرعوا، ودُعينا فأبطأنا، فلما قاما من عند عمر، أتياه فقالا له: يا أمير المؤمنين قد رأينا ما فعلت اليوم، وعلمنا أنا أُتينا من قبل أنفسنا، فهل من شيءٍ نستدرك به؟ فقال لهما: لا أعلمه إلا هذا الوجه، وأشار لهما إلى غزو الروم فخرجا إلى الشام فماتا بها، رحمهما الله.

لقد خرج سهيل بن عمرٍو، والحارث بن هشامٍ، وأبو سفيان صخر بن حربٍ إلى الجهاد مع الجيوش التي سارت لفتح الشام قبل أن يتولّى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الخلافة، حيث انطلقت الجيوش بأمر الخليفة الصديق، رضي الله عنه. واستشهد سهيل والحارث، رضي الله عنهما، في اليرموك فلم يرجعا، وكُفّ بصر أبي سفيان، رضي الله عنه، فرجع كفيفاً، فكيف تمّت تلك اللقاءات المذكورة؟.

ومع ما كان عليه أبو سفيان من الزعامة في الجاهلية فقد كان بخيلاً شحيحاً، يُقلّل على أهله،

ويُمسك عن عياله حتى تضطر زوجه هند بنت عتبة إلى أن تأخذ من وراء ظهره، وتُخفي عنه ما تفعل، ويبدو ذلك في بيعة النساء لرسول الله ﷺ، وفيهن هند بنت عتبة، فلما قال رسول الله ﷺ: «لا يُشركن بالله شيئاً ولا يسرقن»، قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل مَسِّيك فهل عليّ حرج أن أُصيب من طعامه من غير إذنه؟ فرخّص لها رسول الله ﷺ، في الرطب ولم يُرخّص لها في اليابس. وهذا البخل هو الذي جعله يتمسّك بالجاهلية، ويُدافع عنها، ويقف ضد الإسلام فالجاهلية تُسخّر له المستضعفين والأرقاء فيعملون له، ويأخذ أجرهم، ويتعبون ويستفيد هو من تعبهم، ويكدّون ويأكل مما يحصلون عليه.

والدة معاوية:

هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمها صفية بنت أمية بن حارثة من بني سُليم.

تزوّج هنداً حفص بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فولدت له أباناً[1]. فقُتل عنها، فخلف

---

(١) طبقات ابن سعد.

عليها أخوه الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريشٍ، وكان له بيت الضيافة، خارجاً من البيوت، يغشاه الناس من غير إذنٍ، فخلا البيت ذات يوم، واضطجع هو وهند فيه، ثم نهض لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه، فلما رآها ولّى هارباً، وأبصره الفاكه فأقبل إليها فضربها برجله، وقال لها: من هذا الذي خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً، ولا انتبهت حتى أنبهتني، فقال لها: ارجعي إلى أبيك، وتكلّم الناس فيها، فقال لها أبوها: يا بُنيّة إن الناس قد أكثروا فيك، فأنبئيني نبأك، فإن يكن الرجل عليك صادقاً دسست عليه من يقتله، فتنقطع عنك المقالة، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض الكُهّان[1]، فقالت: لا والله، ما هو عليّ بصادقٍ، فقال له: يا فاكه، إنك قد رميت ابنتي بأمرٍ عظيمٍ، فحاكمني إلى بعض كُهّان اليمن، فخرج الفاكه في جماعةٍ من بني مخزوم، وخرج عتبة في جماعةٍ من بني عبد منافٍ، ومعهم هند ونسوة، فلما شارفوا البلاد، وقالوا: غداً نرد على الرجل، تنكّرت حال هند، فقال لها عتبة: إني أرى ما بك من تنكّر الحال، وما ذاك إلا لمكروهٍ عندك، فهلاّ كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس

(١) حسب العادات الجاهلية.

مسيرنا؟ فقالت: لا والله، ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يُخطئ ويُصيب، ولا آمنه أن يسمني ميسماً يكون عليّ سُبّةً، فقال: إني سوف أختبره لك، فصفّر لفرسه حتى أدلى، ثم أدخل في إحليله حبة حنطةٍ، وأوكأ عليها بسير، فلما أصبحوا قدموا على الرجل، فأكرمهم، ونحر لهم، فلما تغدّوا قال له عتبة: قد جئناك في أمرٍ، وقد خبّأنا لك خبيئاً أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال: ثمرة في كَمَرَة. قال: إني أريد أبين من هذا، قال: حبة برٍّ، في إحليل مُهْرٍ، قال: انظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهنّ فيضرب بيده على كتفها، ويقول لها: انهضي، حتى دنا من هندٍ فقال لها: انهضي غير رسحاء ولا زانية، ولتلدن ملكاً اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت: إليك عني فوالله لأحرصنّ أن يكون من غيرك، فتزوجها أبو سفيان[١].

وبعد ذلك قالت هند لأبيها: إني امرأة قد ملكت أمري فلا تُزوّجني رجلاً حتى تعرضه عليّ. فقال لها: ذلك لك. ثم قال لها يوماً: إنه قد خطبك رجلان من قومك، ولست مُسمّياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك، أما الأول

---

(١) نهاية الأرب ـ النويري. والكاهن كاذب وإن صدق.

ففي الشرف الصميم والحسب الكريم تخالين به هوجاً من غفلته وذلك إسجاح من شيمته، حسن الصحابة حسن الإجابة، إن تابعته تابعك، وإن ملت كان معك، تقضين عليه في ماله، وتكتفين برأيك في ضعفه، وأما الآخر ففي الحسب الحسيب والرأي الأريب، بدر أرومته وعِزّ عشيرته، يُؤدّب أهله ولا يُؤدّبونه، إن اتّبعوه أسهل بهم، وإن جانبوه توعّر بهم، شديد الغيرة، سريع الطيرة، شديد حجاب القبّة، إن جاع فغير منزورٍ، وإن نوزع فغير مقهورٍ. قد بيّنت لك حالهما. قالت: أما الأول فسيّد مضياع لكريمته، مُؤاتٍ لها فيما عسى إن لم تعصم أن تلين بعد إبائها، وتضيع تحت جنائها، إن جاءت له بولدٍ أحمقت، وإن أنجبت فعن خطإٍ ما أنجب، اطوِ ذكر هذا عني، فلا تُسمّه لي، وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة، إني لأخلاق هذا لوامقة، وإني له لموافقة، وإني لآخذة بأدب البعل مع لزومي قبّتي وقلّة تلفّتي، وإن السليل بيني وبينه لحريّ أن يكون المدافع عن حريم عشيرته، الذائد عن كتيبتها، المحامي عن حقيقتها، الزائن لأرومتها، غير مُواكلٍ ولا زُميّل عند ضعضعة الحوادث، فمن هو؟ قال: ذاكَ أبو سفيان بن حربٍ. قالت: فزوّجه، ولا تُلقني إليه إلقاء المتسلّس السلس، ولا تَسُمْهُ سوم المواطس الضرس، استخر الله في السماء، يخر لك بعلمه في القضاء.

لما بنى أبو سفيان بن حرب بهند بنت عتبة بن ربيعة، بعث عتبة بن ربيعة بابنه الوليد إلى بني أبي الحقيق فاستعار حليّهم، ورهنهم الوليد نفسه في نفرٍ من بني عبد شمسٍ، وذهب بالحليّ فغاب شهراً، ثم ردّوه وافراً، وفكّوا الرهن[1].

وبُعث رسول الله ﷺ، ووقف سادة قريشٍ في وجه الدعوة، ومنهم أبو سفيان، ووقفت زوجه هند بنت عتبة إلى جانبه تُحرّضه على المسلمين حرصاً على مصالح السادة، وزوجها وأبوها من سادات قريشٍ.

والتقى المسلمون في بدرٍ مع المشركين فقُتل عدد من سادة قريشٍ، كان منهم عتبة بن ربيعة، والد هندٍ، وشيبة بن ربيعة، عمّها، والوليد بن عتبة، أخوها، وحنظلة بن أبي سفيان ابنها البكر، وأُسر عمرو بن أبي سفيان، ولدها الآخر و. . . . فزاد حقدها على الإسلام، واشتدّ غيظها على أهله، وخاصةً على الحمزة الذي قتل عمّها، وأجهز مع عليٍّ، على أبيها، وحقدت على عليٍّ الذي قتل أخاها، وأجهز مع الحمزة على أبيها، كما قتل ابنها حنظلة.

---

(١) طبقات ابن سعد.

قاد أبو سفيان غارةً على المدينة فباءت بالفشل، ورجع بالخزي، وتلك غزوة السويق.

وقاد أبو سفيان قريشاً في أُحُدٍ، وخرجت النساء مع رجالهن، ليُشجعنّهم، ولتدبّ الغيرة في نفس الرجل فيخشى على زوجه، ويُحبّ أن يظهر أمامها بمظهر الرجولة وموقف البطولة، فخرجت هند مع زوجها أبي سفيان. وكان جبير بن مطعم قد منّى غلامه وحشيّاً بالعتق إن هو قتل الحمزة بن عبد المطلب بعمّه طعيمة بن عديٍّ الذي قتله الحمزة يوم بدرٍ. فكانت هند بنت عتبة كلما مرّت بوحشيٍّ أو مرّ بها، قالت: ويها أبا دسمة، اشف واستشف. وكانت هند بنت عتبة أمام النسوة اللاتي معها، يضربن بالدفوف خلف الرجال، ويُحرّضنهم، وتُردّد النساء ما تقوله أمامهنّ هند، ومما كانت تقوله:

ويــهــا بــنــي عــبــد الــدار
ويــهــا حــمــاة الأدبــار
ضــربــاً بــكــل بــتّــار

وتقول:

نــحــن بــنــات طــارق
نــمــشــي عــلــى الــنــمــارق

مــشــي الــقــطــا الــبــوارق

والــمــســك فــي الــمــفــارق

والــدرّ فــي الــمــخــانــق

إن تُــقــبــلــوا نُــعــانــق

ونــفــرش الــنــمــارق

أو تُــدبــروا نُــفــارق

فــراق غــيــر وامــق

وحميت الحرب، وقاتل أبو دُجانة بسيف رسول الله ﷺ، حتى أمعن في الناس. قال أبو دجانة سِماك بن خَرَشة: رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً، فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ، أن أضرب به امرأةً. وكانت هي هند بنت عتبة.

وانتصر المسلمون في بداية المعركة، وولّى المشركون الأدبار، وفرّت هند بنت عتبة ومن معها من النساء مُشمّراتٍ هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير. فلما كُشِف ظهر المسلمين بتخلّي رماتهم عن مواقعهم مخالفين تعاليم رسول الله ﷺ، فأُتي المسلمون من خلفهم، وأصاب العدوّ منهم، وانتهت المعركة بالنيل من المسلمين. ووقفت هند بنت عتبة ومن معها من النساء

يُمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يُجدّعن الآذان، والأنوف، حتى اتّخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم قلائد، وأعطت خدمها، وقلائدها، وقرطها وحشياً غلام جبير بن مطعم. وبقرت عن كبد حمزة بن عبد المطلب، فلاكتها فلم تَستطع أن تُسيغها فلفظتها، ثم علت على صخرةٍ مُشرفةٍ، فصرخت بأعلى صوتها، فقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
ولا أخي وعمّه وبِكري
شفيت نفسي وقضيت نذري
شفيتَ وحشي غليل صدري
فشكر وحشيٍّ على عمري
حتى ترمّ أعظمي في قبري

ثم قالت:

شفيت من حمزة نفسي بأُحُدْ
حتى بقرت بطنه عن الكَبِدْ
أَذهبَ عني ذاك ما كنت أجدْ
من لذعة الحزن الشديد المعتمد

والحرب تعلوكم بشؤبوبِ بَرِدْ

تَـقْـدُمُ إقـدامـاً عـلـيـكـم كـالأسـد

وربما خفّ غليان ما في نفس هندٍ من أحقادٍ بقتل الحمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، ومع مرور الزمن على مقتل أصحاب القليب يوم بدرٍ، فقد قلّ حديثها عن ذلك، وتركت ذكريات الأمس تمضي، وهذا ما شجّع ابنها معاوية في مفاتحتها عما يختلج في صدره من ميلٍ للإسلام، فغضبت، وهددته بأبيه، إذ قالت له: إياك أن تُخالف أباك، واكتفت بذلك، ولاحظ معاوية أن نفسها لم تخلص بعدُ من الأحقاد نهائياً، فأظهر طاعتها بسكوته، ولم يردّ عليها بل ترك الزمن يُنظّف قلبها. فعاد بعد مدةٍ فتحدث مع أمه بالهجرة إلى رسول الله ﷺ، فغضبت أيضاً، وهددته بقطع المال عنه إن خرج، فسكت.

في فتح مكة:

مرّت الأيام، وجاء رسول الله ﷺ، والمسلمون معه من المدينة لفتح مكة، والتقى به العباس بن عبد المطلب مُهاجراً فرجع معه، على حين سيّر رحله إلى المدينة، وخرج أبو سفيان بن حربٍ، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء الخزاعيّ يتحسّسون الأخبار، فالتقوا

بالعباس، فأسلموا، وحمل العباس إلى رسول الله ﷺ، أبا سفيان بن حربٍ فأظهر الإسلام، ورجع إلى مكة يُنذر قومه، ويدعوهم إلى الاستسلام، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريشٍ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخلَ دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، وقد تداعت إليها الذكريات، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميت، الدسم، الأحمس، قُبّح من طليعة قومٍ، فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرّنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تُغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ويبدو أن الإيمان قد دخل قلبها، وثابت إلى رشدها بعد دخول رسول الله ﷺ، والمسلمين مكة بما رأت وما سمعت، إذ ما زال المسلمون ليلة الفتح في تكبيرٍ، وتهليلٍ، وطوافٍ بالبيت حتى أصبحوا، فقال أبو سفيان لهندٍ: أتري هذا من الله؟ قالت: نعم هذا من الله. ثم أصبح أبو سفيان فغدا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «قلتَ لهندٍ: أتري هذا من الله؟

قالت: نعم هذا من الله» فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يُحلف به، ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هندٍ. وهكذا دخل الإيمان إلى قلب هندٍ وأسلمت فحسُن إسلامها، وإن بقي شيء في نفس زوجها أبي سفيان ـ والله أعلم ـ.

كان رسول الله ﷺ، قد أمر بقتل ثمانية رجالٍ وأربع نساءٍ، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة. أما الرجال فهم:

١ ـ عكرمة بن أبي جهل: لعداوته وإيذائه، فهرب إلى اليمن، وأسلمت زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشامٍ، فاستأمنت له، وخرجت في طلبه، ومعها غلام روميٌ، فراودها عن نفسها، فأطمعته، ولم تُمكّنه حتى أتت حياً من العرب، فأوثقوه، وأدركت عكرمة وهو يريد ركوب البحر، فأخبرته، فجاء معها، وأسلم، وحسن إسلامه.

٢ ـ صفوان بن أمية بن خلف: لعداوته، وهرب صفوان إلى جده، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي، فأدركه وأتى به، وأسلم بعد حنين والطائف، وقد شهدهما غير مسلمٍ.

٣ ـ عبد الله بن سعد بن أبي سرح: طلب له الأمان عثمان بن عفان، وهو أخوه من الرضاعة.

٤ ـ عبد الله بن خطل: أسلم، ثم قتل غلامه، وارتدّ، قُتل بعد فتح مكة.

٥ ـ الحويرث بن نقيذ: هرب يوم الفتح من بيته، فلقيه علي بن أبي طالب فقتله.

٦ ـ عبد الله بن الزبعرى السهمي: هرب يوم الفتح هو وهبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب، هربا إلى نجران، هلك هبيرة مشركاً، ورجع عبد الله بن الزبعرى إلى رسول الله ﷺ وأسلم.

٧ ـ مقيس بن صبابة: أسلم، وقتل أنصارياً لأنه قتل أخاه خطأً، وهرب مُرتدّاً، واختفى يوم الفتح، وقُتل.

٨ ـ وحشي بن حرب: قاتل حمزة بن عبد المطلب، هرب يوم الفتح إلى الطائف، ووفد على رسول الله مع وفد الطائف، وأسلم، وقتل مسيلمة الكذاب. وكان يشرب الخمر بعد إسلامه، وجُلد في ذلك.

كما يقال أن كعب بن زهير بن أبي سُلمى كان من

بين هؤلاء الذين أمر رسول الله ﷺ، بقتلهم لهجائه، ثم أسلم، واعتذر، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما النساء فهنّ:

١ ـ سارة مولاة عمرو بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منافٍ، وهي التي حملت رسالة حاطب بن أبي بلتعة، وقد قدمت إلى رسول الله ﷺ، مسلمةً، فوصلها، فعادت إلى مكة مُرتدّةً، فأمر بقتلها فقتلها عليّ بن أبي طالبٍ.

٢ ـ قريبة قينة عبد الله بن خطل: كانت تُغنّي بهجاء رسول الله، فأمر رسول الله ﷺ، بقتلها فقُتلت.

٣ ـ فَرْتَنَى قينة عبد الله بن خطل: كانت تُغنّي بهجاء رسول الله، فرّت وتنكّرت، وجاءت إلى رسول الله ﷺ، فأسلمت، وبقيت إلى خلافة عمر بن الخطاب، فأوطاها رجل فرسه خطأً فماتت، وقيل: بقيت إلى خلافة عثمان، فكسر رجل ضلعاً من أضلاعها فماتت، فأغرمه عثمان ديتها.

٤ ـ هند بنت عتبة: لما فعلته بالحمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، مع النساء متخفيةً، وكسرت كل صنمٍ في بيتها، وقالت:

لقد كنا منكم في غرورٍ. وأهدت إلى رسول الله ﷺ، جديين، واعتذرت من قلة ولادة غنمها، فدعا لها بالبركة في غنمها، فكثرت، فكانت تهب، وتقول: هذا من بركة رسول الله ﷺ، الحمد لله الذي هدانا للإسلام[1].

ولما فرغ رسول الله، من بيعة الرجال، بايع النساء، فأتاه منهنّ نساء من نساء قريشٍ، منهنّ:

أم هانئ فاختة بنت أبي طالب.

أم حبيبة بنت العاص بن أمية: وكانت عند عمرو بن عبد وَدّ العامريّ.

أروى بنت أبي العيص: عمّة عتاب بن أُسيد.

عاتكة بنت أبي العيص: وكانت عند المطلب بن أبي وداعة السهمي.

آمنة بنت عفّان بن أبي العاص: أخت عثمان بن عفان، وكانت عند الحكم بن كيسان حليف بني مخزوم.

يسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى.

---

(١) الكامل في التاريخ.

أم حكيم بنت الحارث بن هشامٍ: وكانت عند عكرمة بن عمرو بن هشام.

فاختة بنت الوليد بن المغيرة: أخت خالد بن الوليد، وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف.

ريطة بنت الحجاج: وكانت عند عمرو بن العاص.

هند بنت عتبة: وكانت عند أبي سفيان. وكانت هند مُتنكّرةً لصنيعها بحمزة، فهي تخاف أن تُؤخذ به، وقال لهنّ: «تُبايعنني على أن لا تُشركن بالله شيئاً». قالت هند: إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال، فسنُؤتكيه. قال: «ولا تسرقن». قالت: والله إن كنت لأصبتُ من مال أبي سفيان، الهنة والهنة، فقال أبو سفيان، وكان حاضراً: أما ما مضى فأنت منه في حلٍّ. فقال رسول الله ﷺ: «أهند؟»، قالت: أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال: «ولا تزنين» قالت: وهل تزني الحرّة؟. قال: «ولا تقتلن أولادكنّ». قالت: قد ربّيناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدرٍ كباراً، فأنت وهم أعلم. فضحك عمر. قال: «ولا تأتين ببهتانٍ تفترينه بين أيديكن وأرجلكن». قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. قال: «ولا

تعصينني فيَ معروفٍ» قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروفٍ. فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهنّ، واستغفر لهنّ رسول الله، فبايعهنّ عمر. وكان رسول الله ﷺ، لا يمسّ النساء، ولا يُصافح امرأةً، ولا تمسّه امرأة إلا امرأة أحلّها الله له أو ذات محرم[1].

وروى ابن سعد أنه لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها، وأتين رسول الله، وهو بالأبطح فبايعنه، فتكلّمت هند فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتنفعني رحمك، يا محمد إني امرأة مُؤمنة بالله مُصدّقة برسوله. ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة. فقال رسول الله: «مرحباً بك»، فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباءٍ أحبّ إليّ من أن يذلّوا من خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباءٍ أحبّ إليّ من أن يعزّوا من خبائك. فقال رسول الله: وزيادة. وقرأ عليهن القرآن وبايعهنّ. فقالت هند من بينهنّ: يا رسول الله نماسحك؟ فقال: إني لا أُصافح النساء، إن

(١) الكامل في التاريخ.

قولي لمائة امرأةٍ مثل قولي لامرأةٍ واحدةٍ[1].

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: جاءت هند إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يُعطيني وولدي ما يكفيني إلا ما أخذت من ماله، وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[2].

وعاشت بعدها منصرفةً إلى العبادة، عسى أن تكفّر عنها ما قد سبق منها، فالحسنات يُذهبن السيئات. والإسلام يجبّ ما كان قبله.

وعندما خرج زوجها إلى الجهاد مع الجيوش التي انطلقت لفتح الشام خرجت معه، وشاركت في معركة اليرموك، وكانت تُحرّض المجاهدين. وفَقَدَ زوجها أبو سفيان عينه الثانية في اليرموك، فأصبح كفيفاً، فاتّجه إلى العبادة، وكانت معه. وكانت لها تجارة في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

قيل: إنها ماتت في خلافة عمر بعد أبي بكرٍ بقليلٍ، في اليوم الذي مات فيه أبو قحافة. وقيل: إنها

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بقيت إلى خلافة عثمان بل بعد ذلك لأن أبا سفيان مات في خلافة عثمان بلا خلافٍ. وقال رجل لمعاوية: زوّجني هنداً، قال: إنها قعدت عن الولد ولا حاجة إلى الزواج. قال: فولّني ناحية كذا، فأنشد معاوية:

طلب الأبيض العقوق فلما
أعجزته أراد بيض الأنوق

يعني أنه طلب ما لا يصل إليه فلما عجز عنه طلب أبعد منه[1]. وربما طلب هذا الرجل الزواج من هند لتكون له حظوة عند ابنها فيطلب بعدها الولاية. أي أراد أن يتّخذ هنداً وسيلة لتحقيق هدفه.

ومن كلام هند: المرأة غلّ لا بدّ للعنق منه، فانظر من تضعه في عنقك[2].

(١) الإصابة.

(٢) الأعلام: الزركلي.

الفصل الثاني
إخوة معاوية، رضي الله عنه

تزوّج أبو سفيان ستّ نساءٍ، وأنجبن له سبعةً من الذكور، وعشرة من البنات، اثنتان منهن لم تُسمّ أُمّهنّ، وهما: الفارعة، ورملة الصغرى. وأما نساؤه فهُنّ:

١ ـ صفية بنت أبي العاص بن أمية: ابنة عمّه، وأنجبت له: أم حبيبة رملة، أُمّ المؤمنين، رضي الله عنها، وأمينة، وعزّة.

٢ ـ صفية بنت أبي عمرو بن أمية: ابنة عمّه، وأنجبت له: صخرة، وهنداً.

٣ ـ لبابة بنت أبي العاص بن أمية: ابنة عمّه، وأنجبت له: ميمونة.

٤ ـ هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس: وأنجبت له: جويرية، وأُمّ حكم، وحنظلة، ومعاوية، وعتبة، وعمرو.

٥ ـ زينب بنت نوفل الكنانية: وأنجبت له: يزيد.

٦ ـ أمة بنت أبي أُزيهر الدوسيّ: وأنجبت له: عنبسة، ومحمداً.

إخوة معاوية الذكور:

كان لمعاوية، رضي الله عنه، ستّة إخوةٍ من الذكور، وهم:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان، ويُقال له يزيد الخير، وأُمّه زينب بنت نوفل الكنانية. أسنّ من معاوية. كان من العقلاء الألَبَّاء، والشجعان المذكورين، أسلم يوم الفتح، وحسُن إسلامه، وشهد حنيناً، وأعطاه رسول الله ﷺ، من غنائم حنينٍ مائةً من الإبل، وأربعين أوقية فضة. وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لفتح الشام، عقد له أبو بكرٍ، ومشى معه تحت ركابه يُسايره، ويُودّعه، ويُوصيه، وما ذاك إلا لشرفه وكمال دينه.

ولما فُتحت دمشق جعله عمر أميراً عليها. وقاتل أبوه تحت رايته يوم اليرموك. وتُوفّي يزيد في طاعون عمواس سنة ثماني عشر. ولما احتضر استعمل أخاه معاوية على عمله، فأقرّه عمر على ذلك احتراماً ليزيد وتنفيذاً لتوليته.

له حديث في الوضوء رواه ابن ماجه، وله عن أبي بكرٍ. أخرج ابن ماجه في الطهارة (٤٥٥): باب غسل العراقيب، من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا شيبة بن الأحنف، عن أبي سلام الأسود، عن أبي صالح الأشعري، حدثني أبو عبد الله الأشعري، عن خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، كل هؤلاء سمعوا من رسول الله ﷺ، قال: «أتمّوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار». ويكنى يزيد أبا خالد، وليس له عقب.

٢ ـ حنظلة بن أبي سفيان: وأُمّه هند بنت عتبة، وهو بكرها، وقتل يوم بدر كافراً، قتله عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه. وتقول هند في مقتله مع أبيها وعمّها وأخيها:

ما كان عن عتبة لي من صبر
ولا أخي وعمّه وبِكري

وليس لحنظلة عقب.

٣ ـ عمرو بن أبي سفيان: وأُمّه هند بنت عتبة، وأُسر يوم بدرٍ، ولم يفده أبو سفيان، وأسر رجلًا من المسلمين، فأطلق النبي ﷺ، عمراً، وأطلق أبو سفيان

الرجل المسلم، ولا عقب لعمرو بن أبي سفيان.

٤ ـ عتبة بن أبي سفيان: وأمه هند بنت عتبة، شهد الجمل مع عائشة، رضي الله عنها، ثم كان سند أخيه معاوية، وتولّى أمر مصر عام ٤٤هـ.

وكان له أولاد، منهم: الوليد بن عتبة، وقد ولاّه معاوية المدينة، ومنهم معاوية بن عتبة، ومنهم عمرو بن عتبة، وكان قد خرج مع عبد الرحمن الأشعث فقُتل. وعقب عتبة كثير.

٥ ـ محمد بن أبي سفيان: وأمه ابنة أبي أُزيهر الدوسي: وكان لمحمد بن أبي سفيان أولاد منهم: عثمان، وكان عاملاً على المدينة ليزيد بن معاوية، وهو الذي ثار عليه أهل المدينة وولّوا عليهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة حتى جاءهم مسلم بن عقبة المريّ بجيشٍ من الشام.

٦ ـ عنبسة بن أبي سفيان: وأُمّه ابنة أبي أُزيهر الدوسيّ، فهو شقيق محمدٍ، كان يحجّ بالناس في أول خلافة أخيه معاوية، ثم ابتلي بالشراب، فجلده خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد الحدّ بالشراب بالطائف. وكان له أولاد، لم يعقب منهم إلا عثمان بن عنبسة.

أما زياد بن أبيه فهو ليس ابن أبي سفيان، وإن ادّعى أحدهم ذلك، أو استُلحق بذلك، أو أراد هو ذلك. فهو زياد بن عبيد الثقفي، وهو زياد ابن سُميّة، وسُميّة أُمّه، كانت مولاةً للحارث بن كلدة الثقفيّ، طبيب العرب، وكانت متزوجةً بعبيد الثقفيّ، وقد ولدت زياداً على فراشه، ورسول الله ﷺ، يقول: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[1]. ويُقال: إن أبا سفيان أتى الطائف فَسَكِرَ، فطلب بغيّاً، فواقع سُميّة، وكانت مزوّجةً بعبيدٍ، فولدت من جماعةٍ زياداً، وادّعت فيما بعد أنها حملت بزياد من أبي سفيان، فلما شبّ زياد كره أن يُقال له: ابن أبيه، دلالةً على أنه غير معروف الأب مع مكانته ومركزه، فوافق كلام أُمّه سُميّة. وكذلك فإن مُعاوية قد رآه من أفراد الدهر فاستعطفه، وادّعاه، وقال: نزل من ظهر أبي، مُؤيّداً قول سُميّة أُمّ زيادٍ. وزياد أخو أبي بكرة الثقفيّ الصحابيّ لأمّه. يُكنى زياد أبا المغيرة، وُلد عام الهجرة، وبذا فقد أدرك رسول الله ﷺ، وأسلم زمن الصديق وهو مراهق. وكان كاتباً لأبي موسى الأشعريّ زمن إمرته على البصرة، وسمع من عمر. وكان كاتباً

(١) متفق عليه.

بليغاً، كتب أيضاً للمغيرة، ولابن عبّاسٍ، وناب عنه بالبصرة. وروى عنه ابن سيرين، وعبد الملك بن عميرٍ.

كان من نبلاء الرجال، رأياً، وعقلاً، وحزماً، ودهاءً، وفطنة. كان يضرب به المثل في النبل والسؤدد.

ولما قُتل عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، كان زياد نائباً له على إقليم فارس.

قال ابن سيرين: قال زياد لأبي بكرة: ألم تر أمير المؤمنين يُريدني على كذا وكذا، وقد وُلدت على فراش عبيدٍ، وأشبهته، وقد علمت أن رسول الله ﷺ، قال: «من ادّعى إلى غير أبيه، فليتبوّأ مقعده من النار»[1]، ثم أتى في العام المقبل، وقد ادّعاه.

قال الشعبي: ما رأيت أحداً أخطب من زياد.

قال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحداً أخصب نادياً، ولا أكرم جليساً، ولا أشبه سريرةً بعلانيةٍ من زياد.

تولى أمر الكوفة والبصرة، فكان يشتو بالبصرة، ويصيف بالكوفة.

عن الشعبي: أُتي زياد في ميتٍ ترك عمةً وخالةً،

---

(١) متفق عليه.

فقال: قضى فيها عمر أن جعل الخالة بمنزلة الأخت، والعمّة بمنزلة الأخ، فأعطاهما المال[1].

توفي زياد عام ثلاثة وخمسين بالطاعون.

أخوات مُعاوية، رضي الله عنه:

١ ـ أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وأمّها صفيّة بنت أبي العاص بن أميّة بن عبد شمسٍ، عمّة عثمان بن عفّان. تزوّج رملة بنت أبي سفيان عُبيد الله بن جحشٍ، فولدت له حبيبة فكُنيت بها، فتزوّج حبيبة داود بن عروة بن مسعود الثقفيّ. وكان عُبيد الله بن جحشٍ قد هاجر بأمّ حبيبة إلى أرض الحبشة في المجموعة الثانية التي هاجرت إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالبٍ، فتنصّر عُبيد الله هناك، وارتّد عن الإسلام، وتوفّي بأرض الحبشة. وثبتت أمّ حبيبة على دينها الإسلام وهِجرتها. وكانت قد خرجت بابنتها حبيبة بنت عُبيد الله بن جحشٍ معها في الهجرة إلى أرض الحبشة، ورجعت بها حيث عادت.

قالت أمّ حبيبة: رأيت في النوم عُبيد الله بن جحشٍ زوجي بأسوإ صورةٍ وأشوهها ففزعت، فقلت

---

(١) طبقات ابن سعد، وسير أعلام النبلاء.

تغيّرتْ والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أمّ حبيبة إني نظرت في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانية، وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمّدٍ، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ما خير لك. وأخبرته بالرؤيا التي قد رأيت له فلم يحفل بها، وأكبّ على الخمر حتى مات. فأرى في النوم كأن آتياً يقول يا أمّ المؤمنين، ففزعت فأوّلتها أن رسول الله يتزوّجني. قالت: فما هو إلا أن انقضت عدّتي فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن، فإذا جارية له يُقال لها «أبرهة» كانت تقوم على ثيابه ودهنه فدخلت عليّ فقالت: إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ، كتب إليّ أن أزوّجكه. فقالت: بشّرك الله بخيرٍ. قالت: يقول لك الملك: وكّلي من يُزوّجك. فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكّلته. وأعطت «أبرهة» بعض حُليّها سروراً بما بشّرتْها. فلمّا كان العشيّ أمر النجاشيّ جعفر بن أبي طالبٍ ومن هناك من المسلمين، فحضروا، فخطب النجاشيّ، فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمّداً عبده ورسوله، وأنه الذي بشّر به عيسى بن مريم ﷺ، أما بعد: فإن رسول الله كتب إليّ أن أزوّجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه

رسول الله، وقد أصدقتها أربعمائة دينارٍ، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. فتكلّم خالد بن سعيدٍ، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه واستنصره، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أمّا بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله، وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله رسول الله. ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا، فقال: اجلسوا فإن سنّة الأنبياء إذا تزوّجوا أن يُؤكل طعام على التزويج. فدعا بطعامٍ فأكلوا ثم تفرّقوا.

قالت أم حبيبة: فلما وصل إليّ المال أرسلت إلى «أبرهة» التي بشّرتني، فقلت لها: إني كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذٍ ولا مال بيدي فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فاستعيني بها. فأبت، فأخرجت حُقّاً فيه كل ما كنت أعطيتها فردّته عليّ، وقالت: عزم عليّ الملك أن لا أرزأك شيئاً، وأنا التي أقوم على ثيابه ودُهنه، وقد اتّبعت دين محمّدٍ رسول الله ﷺ، وأسلمت لله. وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر. قالت: فلما كان الغد جاءتني بعودٍ، ووَرْسٍ، وعنبرٍ، وزبادٍ كثيرٍ، فقدِمْتُ بذلك كله على النبيّ ﷺ، فكان يراه

عليّ وعندي فلا يُنكره، ثم قالت «أبرهة»: فحاجتي إليك أن تقرئي رسول الله مني السلام، وتُعلميه أني قد اتّبعت دينه، ثم لطفت بي، وكانت هي التي جهّزتني، فكانت كلما دخلت عليّ تقول: لا تنسيْ حاجتي إليك. قالت: فلما قدمت على رسول الله أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت بي «أبرهة» فتبسّم رسول الله، وأقرأته منها السلام، فقال: وعليها السلام ورحمة الله وبركاته.

بعث رسول الله ﷺ، عمرو بن أُميّة الضمريّ إلى النجاشي فخطب عليه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت تحت عبيد الله بن جحشٍ، فزوّجها إياه، وأصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله ﷺ، أربعمائة دينارٍ. وذلك سنة سبعٍ من الهجرة، وكان لها يوم قَدِم بها المدينة بضع وثلاثون سنةً. وذُكِر أن النجاشيّ بعث بها مع شرحبيل بن حسنة.

ولما بلغ أبا سفيان بن حربٍ نكاح النبيّ ﷺ، ابنته قال: ذلك الفحل لا يُقرع أنفه. وعن ابن عبّاسٍ، في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾[1] قال: حين تزوّج النبيّ ﷺ، أم حبيبة بنت أبي سفيان.

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٧.

ولما قدم أبو سفيان بن حربٍ المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو يريد غزو مكة فكلّمه أن يزيد في هدنة الحديبية، فلم يقبل عليه رسول الله، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ، طوته دونه، فقال: يا بُنيّة أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فقال: يا بُنيّة لقد أصابك بعدي شرّ.

عن صفيّة أن أم حبيبة زوج النبيّ ﷺ، لما مات أبوها أبو سفيان دعت بطيبٍ فطلت به ذراعيها وعارضيها، ثم قالت: إني كنت عن هذا لغنيّة لولا أني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: لا يحلّ لامرأةٍ تُؤمن بالله واليوم الآخر أن تَحُدّ على ميتٍ فوق ثلاثٍ إلى على زوجٍ فإنها تَحُدّ عليه أربعة أشهرٍ وعشراً.

أطعم رسول الله ﷺ، أم حبيبة بنت أبي سفيان. بخيبر ثمانين وسقاً تمراً وعشرين وسقاً شعيراً.

عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: دعتني أُمُّ حبيبة زوج النبيّ ﷺ، عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا وبين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك، فقلت: غفر الله لك ذلك كله، وتجاوز، وحلّلك من

ذلك. فقالت: سررتني سرّك الله. وأرسلت إلى أُمّ سلمة فقالت لها مثل ذلك.

وتُوفّيت أم حبيبة سنة أربع وأربعين في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان[١].

مسندها خمسة وستون حديثاً، واتّفق لها البخاريّ ومسلم على حديثين، وتفرّد مسلم بحديثين[٢].

وهي من بنات عمّ الرسول ﷺ، ليس في أزواجه من هي أقرب نسباً إليه منها[٣].

٢ ـ أمينة بنت أبي سفيان: وأمها صفية بنت أبي العاص بن أُميّة شقيقة أم حبيبة، تزوّج أمينة حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس العامريّ، ثم خلف عليها صفوان بن أُميّة بن خلف الجمحيّ.

٣ ـ ميمونة بنت أبي سفيان: وأمها لبابة بنت أبي العاص بن أُميّة، تزوّجها عروة بن مسعود الثقفيّ، فولدت له، ثم خلف عليها المغيرة بن شعبة الثقفي.

---

(١) طبقات ابن سعد.
(٢) سير أعلام النبلاء.
(٣) هي من بني عبد مناف.

٤ ـ صخرة بنت أبي سفيان: وأمها صفية بنت أبي عمرو بن أُميّة تزوجها سعيد بن الأخنس بن شريق الثقفيّ، فولدت له.

٥ ـ هند بنت أبي سفيان: وأُمها صفية بنت أبي عمرو بن أُميّة، شقيقة صخرة، تزوجها الحارث بن نوفل فولدت له، وهي أم المغيرة، وظُريبة.

٦ ـ جويرية بنت أبي سفيان: وأمها هند بنت عتبة، فهي شقيقة معاوية، تزوّجها السائب بن أبي حبيش بن المطلب بن أسدٍ، ثم خلف عليها عبد الرحمن بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمسٍ.

٧ ـ أمّ حكم بنت أبي سفيان: وأمها هند بنت عتبة، فهي شقيقة معاوية، تزوّجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن ربيعة الثقفيّ، فولدت له عبد الرحمن، فكان يقال له: ابن أم حكم.

٨ ـ عزّة بنت أبي سفيان: وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، وهي التي أراد والدها أبو سفيان أن يُزوّجها إلى رسول الله ﷺ، وذلك بعد أن أسلم أبو سفيان، وحسن إسلامه، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ثلاثاً أَعْطِنِيهُنّ، قال: «نعم»، قال: تُؤمّرني

حتى أُقاتل الكفّار كما كنت أُقاتل المسلمين، قال: «نعم»، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم»، وذكر الثالثة، وهي أنه أراد أن يُزوّج رسول الله ﷺ، ابنته الأخرى عزّة، واستعان أبو سفيان على ذلك بأُختها أُمّ المؤمنين أُمّ حبيبة رملة.

روى البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أم حبيبة، رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله، انكح أُختي عزّة بنت أبي سفيان، قال: «أوتُحبّين ذلك؟» فقلت: نعم، لست لك بمخليه، وأحبّ من شاركني في خيرٍ، أُختي، فقال النبيّ ﷺ: «إن هذا لا يحلّ لي»، قلت: فإنا نحدّث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟» قلت: نعم، قال: «لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلّت لي، لأنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»[1].

٩ ـ الفارعة بنت أبي سفيان: وتزوّجها طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

١٠ ـ رملة الصغرى: ذكرها ابن قتيبة.

---

(١) جامع الأصول: رقم الحديث ٩٠٣٦.

الفصل الثالث
نساء مُعاوية وأبناؤه

تزوّج مُعاوية، رضي الله عنه، عدّة نساءٍ وهنّ:

١ ـ ميسون بنت حميد بن بحدل بن أنيف، من بني حارثة بن جناب الكلبي، كانت بدويةً، نقلها معاوية من البادية إلى ريف الشام، وأسكنها قصراً، فكانت تُكثر الحنين إلى البادية بعد أن ثقلت عليها الغُربة. فأنصت لها مُعاوية فسمعها تقول:

لـبـيـت تـخـفـق الأرواح فـيـه
أحـبُّ إلـيّ مـن قـصـرٍ مـنـيـف
وبَـكـر يـتـبـع الأظـعـان سَـقْـبـاً
أحـبُّ إلـيّ مـن بـغـلٍ زفـوف[1]

(١) البَكر: الفتى من الإبل. السقب: الذكر من ولد الناقة. الزفوف: السريع.

وكلب ينبح الطُّرّاق عنّي
أحبُّ إليّ من قطٍّ أليف
ولُبْس عباءةٍ وتقرَّ عيني
أحبُّ إليّ من لُبْس الشفوف
وأكل كسيرةٍ في جنب بيتي
أحبُّ إليّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فجٍّ
أحبُّ إليّ من نقر الدفوف
وخِرقٌ من بني عمّي نحيفٌ
أحبُّ إليّ من عِلجٍ عليف
خشونة عيشتي في البدو أشهى
إلى نفسي من العيش الطريف
فما أبغي سوى وطني بديلاً
فحسبي ذاك من وطنٍ شريف

فقال مُعاوية: ما رضيتي يا ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عليفاً، فالحقي بأهلك وطلّقها، فمضت إلى بادية كلب، وابنها يزيد معها(١)، فنشأ فصيحاً، ويُقال: إنها كانت حاملاً فوضعت أمةً ماتت صغيرةً. ونقل البغدادي

---

(١) شاعرات العرب ـ عبد البديع صقر.

أن مُعاوية لما طلّقها قال لها: كنتِ فبنتِ، فأجابته: ما سُررنا إذ كنّا ولا أسفنا إذ بِنّا. وكانت حازمةً عظيمة الشأن جمالاً، ورياسةً، وعقلاً، وديناً، دخل عليها مُعاوية يوماً ومعه خادم خصيّ فاستترت منه، وقالت: ما هذا الرجل معك؟ فقال: إنه خصيّ فاظهري عليه. فقالت: ما كانت المثلة لتحلّ له ما حرّم الله عليه، وحجبته عنها.

٢ ـ كتوة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف: وكانت معه في غزوة قبرص سنة ثمانٍ وعشرين وماتت هناك.

٣ ـ فاختة بنت قرظة: أخت كتوة، وأنجبت له عبد الرحمن، ومات صغيراً، ويكنى مُعاوية به. كما أنجبت له عبد الله، وكان على شيءٍ من الحمق.

٤ ـ نائلة بنت عمارة الكلبية: أعجبته كثيراً، فقال لزوجه ميسون بنت بحدل: ادخلي فانظري إلى ابنة عمك، فدخلت، فسألها عنها، فقالت: إنها لكاملة الجمال، ولكن رأيت تحت سُرّتها خالاً، وإني لأرى هذه يُقتل زوجها، ويُوضع رأسه في حجرها. فطلّقها مُعاوية فتزوّجها بعده حبيب بن مسلمة الفهريّ، ثم خلف عليها بعده النعمان بن بشيرٍ، فقُتل ووضع رأسه في حجرها.

٥ ـ قريبة بنت أبي أمية المخزوميّ: وأمها عاتكة بنت عتبة بن ربيعة، فهي ابنة خالة معاوية. كانت قريبة

عند عمر بن الخطاب في الجاهلية، فطلّقها عمر، وتزوّجها معاوية، ثم طلّقها فتزوّجها عبد الرحمن بن أبي بكرٍ الصديق. وقريبة أخت أمّ المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية.

أما الأولاد فهم:

١ ـ يزيد بن مُعاوية: وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية. وسنفرد له باباً خاصاً ـ إن شاء الله ـ.

٢ ـ عبد الرحمن بن مُعاوية: وأمه فاختة بنت قرظة، ويُكنى معاوية به، وقد مات صغيراً.

٣ ـ عبد الله بن مُعاوية: وأمه فاختة بنت قرظة، فهو شقيق عبد الرحمن، وكان ضعيف العقل.

أما الإناث فهنّ:

١ ـ رملة بنت معاوية: وتزوّجها عمرو بن عثمان بن عفّان.

٢ ـ هند بنت معاوية: تزوّجها عبد الله بن عامرٍ، فلما أُدخلت عليه بالخضراء جوار الجامع الأموي بدمشق، أرادها على نفسها فتمنّعت عليه، وأبت أشدّ الإباء، فضربها فصرخت، فلما سمع الجواري صوتها صرخن وعلت أصواتهن، فسمع مُعاوية، فنهض إليهن، فاستعلمهن ما الخبر؟ فقلن: سمعنا صوت سيدتنا، فصحنا، فدخل فإذا بها تبكي من ضربه، فقال لابن

عامر: ويحك، مثل هذه تضرب في مثل هذه الليلة؟ أخرج من هاهنا، فخرج ابن عامرٍ، وخلا بها معاوية، فقال لها: يا بُنيّة إنه زوجك الذي أحلّه الله لك، أو ما سمعت قول الشاعر:

من الخَفِرات البيض أما حرامها
فصعب وإما حلّها فذلول

ثم خرج من عندها وقال لزوجها: فقد مهدت لك خلقها ووطأته. فدخل ابن عامرٍ فوجدها قد طابت أخلاقها، فقضى حاجته منها.

ولم يُنجب مُعاوية بعد أن ضربه الخارجي «البُرَك» في إليته سنة أربعين يريد قتله. حيث بعث مُعاوية إلى الطبيب الساعدي يستشيره في معالجته، فلما نظر إليه قال: اختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربةً تقطع منك الولد، وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال مُعاوية: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقرّ به عيني. فسقاه تلك الشربة فبرأ، ولم يولد بعدها[1].

(١) تاريخ الطبري.

البَابُ الثَّالِث

يَزِيدُ بن مُعَاوِيَة وَأُسْرَتُه

يزيد بن معاوية وأسرته

يزيد بن معاوية ملك من ملوك المسلمين قام بأعمالٍ إيجابيةٍ، ولكن لم تصل لدرجةٍ إلى أن ترفعه فيُحبّ، وله أجره من خالقه - إن شاء الله -. ووقع في هناتٍ ومخالفاتٍ، ولكن لم تصل به لدرجةٍ إلى أن يُسبّ، وحسابه على الله، وحدثت في عهده فواجع حلّت بالأمة، وهدّت المجتمع لم يأمر بها، ولم يرض عنها، ولكن يناله من وزرها، ويُحمّل شيئاً من إثمها على أنه وليّ الأمر، وصاحب السلطة فلم يغضب لها، ولم تُسئه، ولم يضرب على أيدي المسؤولين عنها، والذين ولغوا من الدماء، وإن كان قد ندم فيما بعد على ما وقع، وأراد الإصلاح، فأحسن لمن فُجع، وحاول مداواة من نُكب. عفا الله عنه، وغفر له. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٤.

ولكن الأعداء يسوؤهم أن يروا المسلمين قد نسوا جراحاتهم الماضية، وحفظوا مآثرهم الخالدة، وتركوا خلافاتهم السابقة، ومآسيهم الأليمة، وذكروا وحدة أمتهم الباقية، وأمجادهم التليدة. لذا فهم يُذكّرونهم دائماً بما وقع في الماضي من فواجع، وما حدث من وقائع تُورث الأحزان، وتُبقي على الآلام، وتدعو إلى الانقسام والتجزئة في المجتمع.

إن هدف الأعداء يتركّز في ثلاث نقاطٍ أساسيةٍ.

١ ـ إخفاء المآثر، وإبراز الخلاف، وإظهار نقاط الضعف لتكون صفحات التاريخ الإسلامي سوداء قاتمة، مليئةً بالأحزان، طافحةً بالأحقاد، مُترعةً بالظلم، غاصّةً بالشدّة والعنف، كثيرةً بالضربات من بعضهم إلى بعضٍ، ليُنسى الماضي الزاهر، وتبقى التجزئة، ويظهر الانقسام والتفتّت، ويكون الضعف والخلاف، فينال الأعداء ثأرهم من المسلمين الذين أزالوا دولة الفرس المجوسية، وحطّموا دولة الروم النصرانية، واقتلعوا جذور التجمّعات اليهودية.

٢ ـ تشويه صفحات حكام الدولة الإسلامية جميعاً باستثناء واحدٍ منهم، والتشويه يشمل السلوك، ويصل إلى العقيدة، وإذا كان الإسلام لم يستطع تربية هؤلاء الحكام الذين يُعدّون الصفوة فمعنى ذلك أن الإسلام لا يصلح ليكون منهج حياةٍ، وليس له أثر في تربية النفوس وإعداد

الرجال. واستثناء أحدهم ليتخذوه سلاحاً يُخفوا خلفه حقيقتهم، ويُظهروا دعواهم بالإسلام، ويرفعوه دون سواه، ويرفعوا ذريته على مدار التاريخ كأفرادٍ مُعادين لحكام الدولة الإسلامية. فيبقى الخلاف قائماً مدى الدهر في المجتمع الإسلامي.

وكلما كان حاكم الدولة الإسلامية قوياً كانت السهام الموجّهة إليه أكثر سُمّاً، والتسديد عليه أكثر دقّةً، والتخطيط ضدّه أكثر خبثاً، والافتراءات عليه أكثر إشاعةً، والقصص الموضوعة عليه أكثر فنّاً، والشعر الذي هُجي به أحسن نظماً، والأكاذيب التي حيكت حوله أكثر حبكاً، وذلك حتى تعمّ المجتمع، وتنزل مكانة ذلك الحاكم من النفوس، وإذا كان هذا الحاكم القويّ فالضعيف أقلّ، وإن لم تُوجّه إليه السهام، ويُسدّد نحوه الرمي إلا لضعف شأنه، وقلّة عمله، وذلك تبريراً لإهماله. ولذا نال معاوية، ويزيد، وعبد الملك، والوليد، وعبد الله بن الزبير، وسليمان، والرشيد، والمعتضد و..... الكثير من السهام المسمومة، والحكايات المكذوبة، والشائعات المفتراة.

٣ ـ إدخال الزيغ في العقيدة، فالعقيدة سبب قوة المسلمين، وبها وحدتهم وتماسكهم، ومنها منهج

حياتهم ونظامها الذي يجعلهم يتفوّقون على غيرهم، ويسمون على من سواهم، لذا حرص الأعداء على إفساد هذه العقيدة، فعملوا على رفع أحد أعلام المسلمين فوق مستوى البشر، كما فعل النصارى بنبي الله عيسى، عليه السلام، واختار الأعداء أحد أقرباء رسول الله ﷺ، ابن عمه، وصهره، أحد السابقين، بطل الوقائع، رجل العلم، وجعلوا ذلك إرثاً في ذريته، دون غيره من أهل البيت، وفي نسل علي زين العابدين بن الحسين لأن أمه تعود إلى أصلٍ فارسيٍّ، واستمرار هذا الإرث في الرفعة والعلو عن مستوى الناس ليستمرّ الخلاف في المجتمع الإسلامي. وهذه الرِفعة لإدخال الزيغ في العقيدة، كما فعل النصارى.

وقعت حادثتان مُؤلمتان جداً في المجتمع الإسلامي في عهد يزيد بن معاوية، إحداهما فاجعة كربلاء في ١٠ محرم سنة إحدى وستين، وقد هزّت وقعة كربلاء المجتمع الإسلامي، وثانيتهما وقعة الحَرَّة في ٢٨ ذي الحجة سنة ثلاثٍ وستين، وقد هدّ الأمة صداها.

لقد نُسيت وقعة الحَرَّة، وتخطّى المسلمون الأحداث فيها في سبيل وحدة الأمة، واجتماع الكلمة، والتوجّه نحو الثغور لرفع راية الجهاد، والانطلاق بالدعوة

لنشر الإسلام، وكذلك لإعمار الأرض، لتتمّ مهمتهم في الحياة.

أما فاجعة كربلاء فعمل الأعداء على عدم نسيانها بإحيائها كل عام، وإعادتها إلى الأذهان لإبقاء الخلاف في المجتمع الإسلامي، واستمرار الأحزان، وتحت اسم محبة آل البيت نُبقي على الخلاف، وتحت شعار محبّة الحسين نستمر على الأحزان، وما ذلك إلا للتهديم والفرقة.

إن وقعة الحرّة تُصيب المسلمين جميعاً دون تحديدٍ، أما فاجعة كربلاء فتنال أسرةً واحدةً ومع ذلك نسيت الأولى، وبقي أثر الثانية يُثار كل عامٍ، ويُحيي بالمناسبة، مع أن العهد واحد، غير أن هناك أيدٍ تلعب بعواطف العامة، وتُثير أحزانهم في سبيل الإبقاء على الخلاف، واستمرار الفرقة، وإضعاف الأمة. وهذه النقطة تُشير وتُحدّد موضع الإتهام وأصحابه.

ونرجو من الله العلي القدير أن نتمكّن من إعطاء صورةٍ صادقةٍ عن الخليفة يزيد بن معاوية نُنصفه فيها دون أثرٍ للعاطفة ومن غير خضوعٍ لتأثير ما دُوّن من كتبٍ مُغرضةٍ تبعاً لتأثير الهوى.

نسأل الله العون والتوفيق، فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الأول
نشأة يزيد

ولد يزيد سنة ستٍ وعشرين، وأبوه أمير على الشام لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، ولكن لم يلبث معاوية أن طلّق زوجه ميسون بنت بحدل الكلبية أُمّ يزيد، فارتحلت إلى بادية بني كلبٍ في جنوب الشام، وحملت ابنها يزيد معها، أو وُلد هناك حسب بعض الروايات. ورُوي أن أُمّه رأت في المنام أنه خرج منها قمر من قُبُلها، فقصّت رؤياها على أمها، فقالت: إن صدقت رؤياك لتلدِن من يُبايع له بالخلافة.

ترعرع في البادية فنشأ فصيحاً، قوي الجسم، ولما كان ابن الأمير، كان يُعتنى به، ويُحضر له ما يُريد، وعندما انتهى من الطفولة كان يخرج إلى البادية فيرى الرعاة وأغنامهم، ويرى كلاب الحراسة فيُعجبه المنظر حتى عُرف أنه يألف إلى الكلاب، غير أن الأعداء قد سحبوا هذه المرحلة من حياته وهو صغير السنّ على بقية أيامه حتى

عندما نضج بل وإلى أن آلت إليه الخلافة، فيدّعون أنه كان يلعب بالكلاب ويعتني بها من باب الطعن.[1]

وعندما بلغ سنّ الإدراك طلبه والده، واستقدمه إليه، ويبدو من الروايات أن أُمّه قد ذهبت معه، وهي مُطلّقة، وعاشت معه في جناحٍ خاصٍ من القصر. وجلست أمه ميسون تمشّطه، وهو صبي صغير، وأبوه معاوية مع زوجته الحظيّة عنده في المنظرة ـ وهي فاختة بنت قرظة ـ فلما فرغت من مشطه نظرت أمه إليه فأعجبها، فقبّلته بين عينيه، فقال معاوية عند ذلك:

إذا مات لم تُفلح مزينة بعده

فنوطي عليه يا مزين التمائما

وانطلق يزيد يمشي وفاختة تتبعه ببصرها، ثم قالت: لعن الله سواد ساقي أُمّك، فقال معاوية: أما والله لخير من ابنك عبد الله ـ وهو ولده منها، وكان أحمق ـ فقالت فاختة: لا والله لكنك تُؤثر هذا عليه، فقال: سوف أُبيّن لك ذلك حتى تعرفينه قبل أن تقومي من مجلسك هذا، ثم استدعى بابنها عبد الله، فقال له: إنه قد بدا لي أن أُعطيك كل ما تسألني في مجلسي هذا، فقال: حاجتي أن تشتري

---

(١) البداية والنهاية.

لي كلباً فارهاً، وحماراً فارهاً، فقال: يا بني أنت حمار ونشتري لك حماراً؟ قم فاخرج، ثم قال لأمّه: كيف رأيت؟ ثم استدعى بيزيد، فقال: إني قد بدا لي أن أُعطيك كل ما تسألني في مجلسي هذا، فسلني ما بدا لك. فخرّ يزيد ساجداً، ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه فيّ هذا الرأي، حاجتي أن تعقد لي العهد من بعدك، وتُولّيني العام صائفة المسلمين، وتأذن لي في الحج إذا رجعت، وتُولّيني الموسم، وتزيد أهل الشام عشرة دنانير لكل رجلٍ في عطائه، وتجعل ذلك بشفاعتي، وتعرض لأيتام بني جمحٍ، وأيتام بني سهم، وأيتام بني عديٍّ، فقال: مالك ولأيتام بني عديٍّ؟ فقال: لأنهم حالفوني، وانتقلوا إلى داري، فقال معاوية: قد فعلت ذلك كله، وقبّل وجهه، ثم قال لفاختة بنت قرظة: كيف رأيت؟ فقالت: يا أمير المؤمنين أوصه بي فأنت أعلم به مني، ففعل. وفي روايةٍ: أن يزيد لما قال له أبوه: سلني حاجتك، قال له يزيد: اعتقني من النار، أعتق الله رقبتك منها، قال: وكيف؟ قال: لأني وجدت في الآثار أنه من تقلّد أمر الأمة ثلاثة أيّامٍ حرّمه الله على النار، فاعهد لي بالأمر من بعدك[1].

---

(١) البداية والنهاية.

تربية يزيد:

يبدو أن مُعاوية قد رأى نباهة ابنه يزيد وفصاحته، وشاهد قوته ومتانة جسمه، وأدرك إحساسه من ألفاظه، وما كان قد وصل إليه من شعره، فوجد في ذلك ما يُؤهّله إلى ولاية الأمر، هذا إضافةً إلى عاطفة الأبوة، وحبّ الولد، وربما جعله هذا يُميّزه عن أخويه عبد الله وعبد الرحمن. ومن واجب التربية وعبء المسؤولية كان مُعاوية يُوجّه يزيد، ويأخذه باللين أحياناً وبالشدّة أخرى، ويُسدي إليه النصح، ويُعطيه الكثير من العبر.

قال العتبي: رأى مُعاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له، فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر.

قلت: وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ، رأى أبا مسعودٍ يضرب غلاماً له، فقال: «اعلم أبا مسعودٍ لَلّه أقدر عليك منك عليه».

وقال العتبي: وقدم زياد بأموالٍ كثيرةٍ، وبسفطٍ مملوءٍ جواهر على مُعاوية، فسُرّ بذلك مُعاوية فقام زياد فصعد المنبر، ثم افتخر بما فعله بأرض العراق من تمهيد

الملك لمعاوية، فقام يزيد فقال: إن تفعل يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيفٍ إلى قريشٍ، ومن القلم إلى المنابر، ومن زياد بن عبيدٍ إلى حرب بن أمية، فقال له مُعاوية: اجلس فداك أبي وأمي.

وعن عطاء بن السائب قال: غضب مُعاوية على ابنه يزيد، فهجره، فقال له الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، إنما هم أولادنا، وثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم، ولا تكن عليهم ثقلاً فيملّوا حياتك، ويتمنّوا موتك. فقال معاوية: لله درّك يا أبا بحر، يا غلام ائت يزيد فاقرئه مني السلام، وقل له: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف درهم، ومائة ثوب، فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف، فقال يزيد: لا جرم لأقاسمنه، فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفاً، وخمسين ثوباً.

وقال الطبراني: حدّثنا محمد بن زكريا الغلابي حدّثنا ابن عائشة عن أبيه قال: كان يزيد في حداثته صاحب شرابٍ، يأخذ مأخذ الأحداث، فأحسّ معاوية بذلك فأحبّ أن يعظه في رفقٍ، فقال: يا بُنيّ ما أقدرك على أن تصل إلى حاجتك من غير تهتُّكٍ يذهب

بمروءتك وقدرك، ويُشمت بك عدوّك، ويُسيء بك صديقك. ثم قال: يا بُنيّ إني منشدك أبياتاً فتأدّب بها، واحفظها، فأنشده:

انصب نهاراً في طلاب العلا
واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجى
واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي
فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسقٍ تحسبه ناسكاً
قد باشر الليل بأمرٍ عجيب
غطّى عليه الليل أستاره
فبات في أمنٍ وعيشٍ خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة
يشفي بها كل عدوٌ مريب

وهذا كما جاء في الحديث: «من ابتلي بشيءٍ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عزّ وجلّ».

وروى المدائني أن عبد الله بن عبّاسٍ وفد إلى مُعاوية، فأمر مُعاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيُعزّيه بالحسن بن عليّ، فلما دخل على ابن عباسٍ رحّب به وأكرمه،

وجلس عنده بين يديه، فأراد ابن عبّاسٍ أن يرفع مجلسه، فأبى، وقال: إنما أجلس مجلس المُعزّي لا المُهنّي. ثم ذكر الحسن فقال: رحم الله أبا مُحمّدٍ أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاك، وعوّضك من مُصابك ما هو خير لك ثواباً وخير عقبى، فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباسٍ: إذا ذهب بنو حربٍ ذهب علماء الناس، ثم أنشد مُتمثّلاً:

مغاض عن العوراء لا ينطقوا بها
وأهل وراثات الحلوم الأوائل[1]

الاستقلالية:

لما بلغ يزيد سنّ الرجال وجد أن حياته بجانب والده في دمشق تُبقيه دون رأيٍ يستقلّ به، ومن غير شخصيةٍ يتميّز بها، أو بطانةٍ يعتمد عليها، لذا رأى أن يقضي بعض وقته في مكانٍ بعيدٍ عن جوّ الخلافة، بعيدٍ عن صخب المدينة ومشكلاتها، فاختار مكاناً على أطراف البادية يُقال له «حُوّارين» موقع بلدة «القريتين» اليوم بين دمشق وحمص إلى الشرق قليلاً على طريق دمشق ـ تدمر، تبعد عن دمشق ١٢٠ كيلو متراً إلى الشمال

(١) البداية والنهاية.

الشرقي، وتبعد عن حمص سبعين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي منها.

رأى في هذا المكان راحةً له، إذ يُذكّره بحياة البادية التي نشأ بها، وأحبها، كما يمكنه ممارسة الصيد الذي شُغف به، وربما يحيا معه أو يذهب معه بعض أقرانه فتتوطّد العلاقة بينهم فيكونون بطانةً له ودعامةً إذا آل الأمر إليه.

استشار يزيد أباه في إقامة بناءٍ له في حُوّارين يتدّرب فيه ويصيد، ويتخيّر ويتعرّف، فوافقه، فبنى هناك قصراً، عُرف بقصر «الحير»[1]، فكان يخرج إليه، ويُقيم هناك أياماً حيث ينطلق منه إلى رحلات الصيد. وما أن بنى يزيد قصره في «حُوّارين» حتى عُمرت تلك المنطقة، وأُحييت حيث بنى الناس بالقرب من قصره، واستصلحوا الأرض. بل أصبحت هذه سياسة سار عليها عدد من خلفاء بني أمية في إحياء الأرض. إذ بنى عبد الملك بن مروان قصر «عمرة» إلى الشرق من «عمّان» اليوم، وعلى بعد ستين كيلو متراً منها، وأحيى سليمان بن عبد الملك مناطق بـ «الرملة» إلى الشمال الغربي من القدس وعلى بعد أربعين

(١) قصر الحير: نقل إلى متحف دمشق.

كيلو متراً منها. وأحيى عمر بن عبد العزيز منطقة «دير سلمان» على هامش الغوطة على بعد عشرين كيلو متراً من دمشق، وإلى الشمال الشرقي منها، وأحيى هشام بن عبد الملك بالطريقة نفسها منطقة «الرصافة» إلى الجنوب من نهر الفرات على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً، وإلى الجنوب الشرقي من حلب، وعلى بعد مائة وخمسين كيلو متراً منها. بل إن يزيد نفسه عندما آل إليه الأمر وتولّى الخلافة شقّ فرعاً من نهر بردى قبل دخوله دمشق بثلاثين كيلو متراً من الجهة اليسرى لري الأراضي الغربية من الغوطة التي لا يمكن ريّها من نهر بردى، وذلك في بلدتي «القابون» و «حرستا»، ولتوفير مياه الشرب للبلدتين وقد عُرف ذلك الفرع باسمه فسمّي «نهر يزيد» ولا يزال يُؤدي هذا النهر الغرض الذي شُقّ من أجله.

في معترك الحياة:

لما رأى معاوية في ابنه يزيد القوة والشجاعة، والحكمة والفصاحة أراد أن يُعدّه ويختبره فأرسله في قيادة الحملة التي خرجت لغزو عاصمة الروم «القسطنطينية» من البر والبحر، حيث كان قائد الأسطول بُسر بن أرطأة، وقائد جيش البر سفيان بن عوف الأزدي، غير أن يزيد لم يخرج في الحملة.

وصلت الحملة إلى «القسطنطينية» وحاصرتها، ووقعت معارك بين الطرفين، كانت خسائر المسلمين فيها جسيمةً، فعمل مُعاوية على إرسال نجدةٍ بقيادة ابنه يزيد، ومعه من الصحابة أبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عبّاسٍ، وعبد الله بن الزبير وعدد آخر، ومع وصول هذه النجدة ارتفعت معنويات المسلمين، واشتدّ الحصار، ونال المسلمون من الروم، وإن لم يستطيعوا فتح «القسطنطينية». وأُصيب أبو أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، هناك.

دخل يزيد على أبي أيوب عند الموت، فقال له أبو أيوب: إذا أنا متّ فاقرؤوا على الناس مني السلام، وأخبروهم أني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من مات لا يُشرك بالله شيئاً جعله الله في الجنة». ولينطلقوا ويبتعدوا بي في أرض الروم ما استطاعوا. فحدّث يزيد الناس لما مات أبو أيوب فانطلقوا بجنازته. وأوصى أبو أيوب إلى يزيد، وهو الذي صلّى عليه.

ونجح يزيد باختبار أبيه، إذ لم يشكُ منه أحد من صحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا معه في جيشه، وهي مدة طويلة نسبياً قاربت السنتين، ولم ينتقد أحد شيئاً من سلوكه، كما لم يظهر عليه شيء من الضعف، هذا مع

العلم أن القائد هو الإمام لجنده، وهو الخطيب لهم في الجمعة والأعياد، وفي المناسبات التي تقتضيها الأيام، بل كان ثناء عام على شجاعته وإقدامه، ومعرفته، وسلوكه وتقديره لأهل الفضل، وفي مقدمتهم الصحابة، رضوان الله عنهم.

وقد ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ، قال: «أول جيشٍ يغزو مدينة قيصر مغفور لهم»[1]، وهو الجيش الثاني الذي رآه رسول الله ﷺ، في منامه عند أُمّ حرام، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت في الأولين» يعني جيش معاوية حين غزا قبرص، ففتحها في سنة ثمانٍ وعشرين أيام عثمان بن عفان، وكانت معهم أُمّ حرامٍ فماتت هناك بقبرص، ثم كان أمير الجيش الثاني ابنه يزيد بن معاوية، ولم تُدرك أُمّ حرامٍ جيش يزيد هذا. وهذا من أعظم دلائل النبوة.

ما أن عاد يزيد من الغزو حتى انطلق إلى الحج، وذلك عام خمسين، ثم حجّ بالناس سنة إحدى وخمسين، واثنتين وخمسين، وثلاثٍ وخمسين. ويبدو أن والده قد اختاره أميراً للموسم زيادةً بالاختبار إضافةً

---

(١) رواه البخاري. وقد مر ذكره في خلافة معاوية ـ الفتوحات.

إلى أن يكون في ذلك تمهيداً لأخذ البيعة له. ويظهر لمعاوية أن ابنه قد نجح بالاختبار ثانيةً حيث لم يشكُ أحد، بل كان يزيد موفّقاً، وهذا ما شجّع مُعاوية لأخذ البيعة له.

قال مُعاوية ليزيد: كيف تراك فاعلاً إن وُلّيت؟ قال: يُمتّع الله بك يا أمير المؤمنين، قال: لتُخبرني، قال: كنت والله يا أبت عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله!! يا بني والله لقد جهدتُ على سيرة عثمان بن عفان فما أطقتها، فكيف بك وسيرة عمر؟[1].

البيعة:

دعا مُعاوية لبيعة يزيد سنة ستٍّ وخمسين، فبايعه أهل الشام، وكتب إلى الآفاق بذلك، فبايع له الناس في سائر الأقاليم. وكتب إلى مروان بن الحكم واليه على المدينة ليأخذ له البيعة من أهلها، فلم يستجب له بعض كبار رجالاتها، وأبرزهم: الحسين بن عليٍّ، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير.

---

(١) البداية والنهاية.

سار مُعاوية، رضي الله عنه، إلى مكّة لأداء العمرة، وفي طريق عودته، مرّ على المدينة، والتقى برجالها، وتحدّث ببيعة يزيد فخالفه عبد الرحمن بن أبي بكر، واشتدّ، وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب ليناً. ثم خطب مُعاوية الناس، وكان أولئك الرجال حضوراً، فبايع الناس ولكن هؤلاء لم يُوافقوا، ولم يُظهروا خلافاً، فتمّت البيعة ليزيد، وجاءته الوفود من سائر الأقاليم مُعلنةً رضاها.

ولما مرض مُعاوية المرض الذي مات فيه، وذلك سنة ستين، دعا ابنه يزيد للإحسان بأهل الحجاز، وبالرفق بالناس، وكيفية معاملة من يخرج عليه، وتلبية طلب أهل العراق بتبديل الولاة وأن يفعل، ولو طلبوا منه كل يومٍ تبديل والٍ.

ولما حضرت معاوية الوفاة ـ وذلك سنة ستين ـ وكان يزيد غائباً، فدعا بالضحاك بن قيس الفهريّ ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المريّ، فأوصى إليهما، فقال: بلّغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يومٍ عاملاً فافعل، فإن عزل عاملٍ أحبّ إليّ من أن تُشهرَ

عليك مائة ألف سيفٍ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وَعَيْبَتَكَ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريشٍ إلا ثلاثةً: حسين بن عليٍّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. فأما ابن عمر فرجل قد وَقَذَهُ الدين، فليس ملتمساً شيئاً قبلك. وأما الحسين بن عليٍّ فإنه رجل خفيف، وأرجوا أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسّةً، وحقاً عظيماً، وقرابةً من محمد ﷺ، ولا أظنّ أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خبّ ضبّ، فإذا شخص لك فالبدْ له، إلا أن يلتمس منك صُلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[1].

وفاة معاوية:

توفي مُعاوية في شهر رجب سنة ستين، وصلّى عليه الضحاك بن قيس الفهري، وكان يزيد غائباً حين وفاة والده.

---

(١) تاريخ الطبري.

بعث الضحاك البريد إلى يزيد بوجع معاوية فقال يزيد في ذلك:

جاء البريد بقرطاسٍ يَخُبُّ
فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا في كتابكم؟
قالوا: الخليفة أمسى مُثْبَتًا وجِعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا
كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لا تزل نفسه توفي على شرفٍ
توشك مقاليد تلك النفس تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق
وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم انبعثنا إلى حوض مضمّرةٍ
نرمي الفجاج بها ما نأتلي سرعا
فما نبالي إذ بلّغنا أرجلنا
ما مات منهنّ بالمرمات أو ظلعا
أودى ابن هندٍ وأودى المجد يتبعه
كأنّا جميعاً خليط سالمين معا
أغرّ أبلج يستسقي الغمام به
لو قارع الناس عن أحلامهم قرعا

لا يرفع الناس ما أوهى وإن جهدوا
أن يرفعوه، ولا يوهون ما رفعا

قيل: مات مُعاوية، ويزيد بحُوّارين، وكانوا كتبوا إليه حين مرض، فأقبل وقد دُفن، فأتى قبره، فصلّى عليه، ودعا له، ثم أتى منزله.

وقيل: بل أسرع يزيد، وأدرك أباه قبل دفنه، وأنه هو الذي صلّى عليه.

وقيل: إن يزيد قد دخل دمشق قبل موت أبيه، وأنه أوصى إليه ـ والله أعلم ـ.

الفصل الثاني[1]
خلافة يزيد

بويع ليزيد بالخلافة بعد وفاة أبيه في رجب سنة ستين، وكان يوم بويع ابن أربعٍ وثلاثين، فأقرّ نواب أبيه على الأقاليم، فلم يعزل أحداً، وهذا من ذكائه.

كان أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وأمير الكوفة النعمان بن بشير، وأمير البصرة عبيد الله بن زياد، وأمير مصر مسلمة بن مخلد.

لم يكن ليزيد من همٍّ سوى بيعة أولئك النفر الذين أبوا على مُعاوية البيعة ليزيد، فكتب إلى نائب المدينة الوليد بن عتبة: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد: فإن مُعاوية كان

(١) يراجع الباب الثاني ـ الفصل الرابع من كتاب «رابع الخلفاء الراشدين» علي بن أبي طالب وأسرته، رضي الله عنهم.

عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه، وخوّله، ومكّن له، فعاش بقدرٍ ومات بأجلٍ، فرحمه الله، فقد عاش محموداً، ومات برّاً تقياً، والسلام.

وكتب إليه في صحيفة كأنها أُذن فأرةٍ: أما بعد: فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً، ليست فيه رخصة حتى يُبايعوا والسلام.

فلما أتاه نعي معاوية فَظُع به، وكبُر عليه، فبعث إلى مروان بن الحكم فدعاه إليه ـ وكان الوليد يوم قدم المدينة قَدِمَها مروان متكارهاً ـ فلما رأى ذلك الوليد منه شتمه عند جلسائه، فبلغ ذلك مروان، فجلس عنه وصرَمه، فلما يزل كذلك حتى جاء نعي مُعاوية إلى الوليد، فلما عظم على الوليد هلاك مُعاوية، وما أُمِر به من أخذ هؤلاء الرهط بالبيعة، فزع عند ذلك إلى مروان، ودعاه، فلما قرأ عليه كتاب يزيد، استرجع وترحّم عليه، واستشاره الوليد في الأمر، وقال: كيف ترى أن نصنع؟ قال: فإني أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول في الطاعة، فإن فعلوا قَبِلْتَ منهم، وكففت عنهم، وإن أبوا قدّمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت مُعاوية، فإنهم إن علموا بموت مُعاوية وثب كل امرئٍ منهم في جانب، وأظهر

الخلاف والمنابذة، ودعا إلى نفسه. أما ابن عمر فإني لا أراه يرى القتال، ولا يُحبّ أن يُولّى على الناس، إلا أن يُدفَع إليه هذا الأمر عفواً.

فأرسل الوليد بن عتبة إلى الحسين وإلى ابن الزبير، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ـ وهو إذ ذاك غلام حَدَث يدعوهما، فوجدهما في المسجد، وهما جالسان، فأتاهما في ساعةٍ لم يكن الوليد بن عتبة يجلس فيها للناس، ولا يأتيانه في مثلها، فقال: أجيبا، الأمير يدعوكما، فقالا له: انصرف الآن نأتيه. ثم أقبل أحدهما على الآخر، فقال عبد الله بن الزبير للحسين: ما تظنّ فيما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها، فقال حسين: قد ظننت، أرى طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر، فقال: وأنا ما أظنّ غيره. قال: فما تريد أن نصنع؟ قال: أجمع فتياني الساعة ثم أمشي إليه، فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه، ثم دخلت عليه. قال: فإني أخافه عليك إذا دخلت، قال: لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر. فقام فجمع إليه مواليه وأهل بيته، ثم أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب الوليد، وقال لأصحابه: إني داخل، فإن دعوتكم، أو سمعتم صوته قد علا فاقتحموا عليّ

بأجمعكم، وألا تبرحوا حتى أخرج إليكم، فدخل فسلّم عليه بالإمرة، ومروان جالس عنده، فناوله الوليد بن عتبة الكتاب، ونعى إليه معاوية، فاسترجع، وقال: رحم الله معاوية، وعظّم لك الأجر، فدعاه الأمير إلى البيعة، فقال له الحسين: إن مثلي لا يُبايع سرّاً، وما أراك تجتزئ مني بهذا، ولكن إذا اجتمع الناس دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً، فقال له الوليد ـ وكان يحب العافية: فانصرف على اسم الله حتى تأتينا في جماعة الناس. فقال مروان للوليد: والله لئن فارقك ولم يُبايع الساعة ليكثرن القتل بينكم وبينه، فاحبسه ولا تُخرجه حتى يُبايع وإلا ضربت عنقه، فنهض الحسين وقال: يا ابن الزرقاء أنت تقتلني! كذبت والله وأثمت. ثم انصرف إلى داره. فقال مروان للوليد: والله لا تراه بعدها أبداً، فقال الوليد: والله يا مروان ما أُحبّ أن لي الدنيا وما فيها وأني قتلت الحسين، سبحان الله!! أقتل حسيناً إن قال لا أُبايع؟ والله إني لأظنّ أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة.

وبعث الوليد إلى عبد الله بن الزبير فامتنع عليه وماطله يوماً وليلةً، ثم إن ابن الزبير ركب في مواليه، واستصحب معه أخاه جعفراً، وسار إلى مكة عن طريق

الفُرع، وبعث الوليد خلف ابن الزبير الرجال والفرسان فلم يقدروا على ردّه.

وأما الحسين بن علي فإن الوليد تشاغل عنه بابن الزبير، وجعل كلما بعث إليه يقول: حتى ننظر وننظر، ثم جمع أهله وبنيه، وركب ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب من سنة ستين، بعد خروج ابن الزبير بليلةٍ، ولم يتخلّف عنه أحد من أهله سوى محمد بن الحنفية، فإنه قال له: والله يا أخي لأنت أعزّ أهل الأرض عليّ، وإني ناصح لك لا تدخلنّ مصراً من هذه الأمصار، ولكن اسكن البوادي والرمال، وابعث إلى الناس فإذا بايعوك، واجتمعوا عليك فادخل المصر، وإن أبيت إلا سكنى المصر فاذهب إلى مكة، فإن رأيت ما تحبّ، وإلا ترفعت إلى الرمال والجبال، فقال له: جزاك الله خيراً فقد نصحت، وأشفقت، وسار الحسين إلى مكة، فاجتمع هو وابن الزبير بها.

وبعث الوليد إلى عبد الله بن عمر، فقال: بايع ليزيد، فقال: إذا بايع الناس بايعت، فقال رجل: إنما تريد أن يختلف الناس ويقتتلوا حتى يتفانوا، فإذا لم يبق غيرك بايعوك! فقال ابن عمر: لا أحبّ شيئاً مما قلت، ولكن إذا بايع الناس فلم يبق غيري بايعت، وكانوا لا يتخوّفونه.

قال الواقدي: لم يكن ابن عمر بالمدينة حين قدم نعي معاوية، وإنما كان هو وابن عبّاسٍ بمكة، فلقيهما ـ وهما مقبلان منها ـ الحسين وابن الزبير، فقالا: ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية والبيعة ليزيد بن معاوية، فقال لهما ابن عمر: اتقيا الله، ولا تُفرّقا جماعة المسلمين. وقدم ابن عمر وابن عباس إلى المدينة، فلما جاءت البيعة من الأمصار بايع ابن عمر مع الناس، وأما الحسين وابن الزبير فإنهما قدما مكة فوجدا بها عمرو بن سعيد بن العاص فخافاه، وقالا: إنا جئنا عُوّاذاً بهذا البيت.

عزل يزيد بن مُعاوية في شهر رمضان سنة ستين الوليد بن عتبة عن إمرة المدينة لتفريطه، وأضافها إلى عمرو بن سعيد بن العاص نائب مكّة، فقدم المدينة في رمضان، وقيل في ذي القعدة، وكان متألّهاً متكبراً، وسلّط عمرو بن الزبير ـ وكان عدوّاً لأخيه عبد الله ـ على حربه وجرّده له. وجعل عمرو بن سعيد يبعث البعوث إلى مكة لحرب ابن الزبير. وقد ثبت في الصحيحين أن أبا شريح الخزاعي قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: إئذن لي أيها الأمير أن أُحدّثك حديثاً قام به رسول الله ﷺ، الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي حين تكلم به، إنه

حمد الله وأثنى عليه، وقال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، وإنه لم يحلّ القتال فيها لأحدٍ كان قبلي، ولم تحلّ لأحدٍ بعدي، ولم تحلّ لي إلا ساعة من نهارٍ، ثم قد صارت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهد الغائب». وفي رواية: «فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله فيها، فقولوا: إن الله أَذِن لرسوله، ولم يأذن لكم». فقيل لأبي شريحٍ: ما قال لك؟ فقال: قال لي: نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريحٍ، إن الحرم لا يُعيذ عاصياً، ولا فارّاً بدمٍ، ولا فارّاً بِخَرَبَة.

ولّى عمرو بن سعيد على شرطة المدينة عمرو بن الزبير، فتتبّع أصحاب أخيه، ومن يهوى هواه، فضربهم ضرباً شديداً، حتى ضرب من جملة من ضرب أخاه المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر، وعبد الرحمن ابن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، وخبيب بن عبد الله بن الزبير، ومحمد بن عمّار بن ياسر وغيرهم، ضربهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين جلدةً، وفرّ منه عبد الرحمن بن عثمان التيمي، وعبد الرحمن بن عمرو بن سهل في أناس إلى مكّة. ثم جاء العزم من يزيد إلى عمرو بن سعيد في طلب ابن الزبير، وأنه لا يقبل منه وإن بايع حتى يُؤتى به إليه في جامعةٍ.

منع عبد الله بن الزبير الحارث بن خالد المخزومي من أن يصلي بأهل مكة، وكان نائب عمرو بن سعيد عليها، فحينئذٍ صمّم عمرو بن سعيد على تجهيز سريةٍ إلى مكة بسبب ابن الزبير، فاستشار عمرو بن سعيد في ذلك عمرو بن الزبير، ومن يصلح أن يُبعث إلى مكة لأجل قتاله؟ فقال له عمرو بن الزبير: إنك لا تبعث إليه من هو أنكى له مني، فعيّنه على تلك السرية، وجعل على مقدمته أُنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة مُقاتلٍ.

وقيل: إنما عيّنهما يزيد بن معاوية نفسه، وبعث بذلك إلى عمرو بن سعيد: فعسكر أُنيس بالجرف. وأشار مروان بن الحكم على عمرو بن سعيد أن لا يغزو مكة، وأن يترك ابن الزبير بها، فإنه عما قليل إن لم يقتل يمت، فقال أخوه عمرو بن الزبير: والله لنغزونّه ولو في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم. فقال مروان: والله إن ذلك ليسرّني. فسار أُنيس، واتبعه عمرو بن الزبير في بقية الجيش ـ وكانوا ألفين ـ حتى نزل بالأبطح، وقيل بداره عند الصفا، ونزل أُنيس بذي طوىً، فكان عمرو بن الزبير يُصلّي بالناس، ويصلّي وراءه أخوه عبد الله بن الزبير، وأرسل عمرو إلى أخيه يقول له: برّ يمين الخليفة، وأتِهِ وفي عنقك جامعة من

ذهبٍ أو فضةٍ، ولا تدع الناس يضرب بعضهم بعضاً، واتق الله فإنك في بلدٍ حرام. فأرسل عبد الله يقول لأخيه: موعدك المسجد، وبعث عبد الله بن الزبير - عبد الله بن صفوان بن أمية في سريةٍ فاقتتلوا مع أُنيس بن عمرو الأسلمي فهزموا أُنيساً هزيمةً قبيحةً، وتفرّق عن عمرو بن الزبير أصحابه، وهرب عمرو إلى دار علقمة، فأجاره أخوه عبيدة بن الزبير، فلامه أخوه عبد الله بن الزبير، وقال: تُجير من في عنقه حقوق الناس؟ ثم ضربه بكل من ضربه بالمدينة إلا المنذر بن الزبير وابنه فإنهما أبيا أن يستقيدا من عمرٍو، وسجنه ومعه عارم فرس المنذر، فسُمّي سجن عارمٍ، وقد قيل إن عمرو بن الزبير مات في السجن.

فاجعة كربلاء:

لما وصل الحسين إلى مكة نزل دار العباس بن عبد المطلب، ورأى عبد الله بن الزبير أن يسير الحسين إلى العراق حيث يكثر أتباعه، ويمكن تطويق حكم يزيد من الحجاز والعراق. ثم غيرّ ابن الزبير رأيه حيث خشي على الحسين من أهل العراق فنصحه بالبقاء، وكذا نصحه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن مطيع، وأخوه محمد بن الحنفية، وأبو

سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وأبو واقد الليثي، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وحتى والي المدينة عمرو بن سعيد بن العاص نصحه بذلك، بل إن يزيد نفسه كتب إلى عبد الله بن عباس يطلب منه أن ينصح الحسين، ففعل، فأبى الحسين إلا الخروج لما كان يأتيه من كتب العراقيين، وقد قال لابن عباسٍ: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحبّ إليّ من أن تُستحلَّ بي مكة.

بعث الحسين إلى المدينة فقدم عليه من خفّ معه من بني عبد المطلب، فخرج من مكة يوم الاثنين في عشر ذي الحجة سنة ستين متوجّهاً إلى العراق مع أهل بيته وستين شيخاً من أهل الكوفة. وكان مروان بن الحكم قد بعث إلى عبيد الله بن زياد أمير البصرة يعلمه بخبر خروج الحسين إلى العراق، ويُحذّره من التعرّض له بأذى.

كان الحسين قد بعث ابن عمه مسلم بن عقيل، وأمره أن ينزل على هانئ بن عروة بالكوفة، غير أن أمر مسلم قد كُشف، وقُتل، كما أن يزيد قد عزل النعمان بن بشير الأنصاري عن الكوفة، وأضافها إلى عبيد الله بن زياد. ولم يصل خبر مقتل مسلم بن عقيل حتى كان الحسين قد اقترب من القادسية.

بعث عبيد الله بن زياد مقدمةً له من ألف فارس بإمرة الحرّ بن يزيد التميمي الرياحيّ ليستقبل الحسين في القادسية ويمنعه من متابعة السير، ولكن الحرّ كان موفّقاً في تصرّفه مع الحسين حيث كان ليناً ومُقدّراً.

نزل الحسين بمكانٍ يوم الخميس الثاني من المحرّم سنة إحدى وستين، وفي اليوم التالي جاءت قوة قوامها أربعة آلاف رجلٍ بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص. ولكن عمر بن سعد كره قتال الحسين فبعث إليه عبيد الله بن زياد يُهدّده، وأرسل إليه شَمِر بن ذي الجوشن يتسلّم مكانه إن أبى، ويضرب عنقه.

عبّأ الطرفان أصحابهما للقتال، وقد انحاز الحر بن يزيد الرياحي إلى جانب الحسين، وجرت المعركة بين قوتين غير متكافئتين في العاشر من المحرم سنة إحدى وستين قتل فيها الحسين، وأكثر من معه من أهل بيته، كما قُتل معهم الحر بن يزيد.

حُمل رأس الحسين ومن نجا من أهل بيته في كربلاء إلى عبيد الله بن زياد، وهو بدوره قد بعث بهم إلى يزيد بن معاوية بدمشق.

ولما ورد الخبر إلى يزيد دمعت عيناه، وقال:

كنت أرضى من طاعتكم دون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، رحم الله الحسين. ولم يصل يزيد - ابن زياد بشيءٍ.

وعندما وصل علي بن الحسين، ومن معه إلى دمشق دعا يزيد أشراف الشام فأجلسهم حوله، ودعا بعلي بن الحسين ومن معه، وقال يزيد: قبّح الله ابن مرجانة، لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا.

وقال يزيد بن معاوية: يا نعمان بن بشير، جهِّزهم بما يُصلحهم، وابعث معهم رجلاً من أهل الشام أميناً صالحاً، وابعث معه خيلاً، وأعواناً، فيسير بهم إلى المدينة. ثم أمر يزيد بالنسوة أن ينزلن في دارٍ وحدهن، معهن ما يُصلحهن، وأخوهن عليّ بن الحسين معهن، في الدار التي هن فيها. فخرجن حتى دخلن دار يزيد، فلم تبق امرأة من آل معاوية إلا استقبلتهن تبكي، وتنوح على الحسين، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً. وكان يزيد لا يتغدّى ولا يتعشّى إلا دعا عليّ بن الحسين إليه.

ولما أزمعوا على المسير دعا يزيد عليّ بن الحسين، ثم قال: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خَصلةً أبداً إلا أعطيتها إياه، ولدفعت

الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى بما رأيت. كاتبني، وَأَنْهِ كل حاجةٍ تكون لك. وكساهم، وأوصى بهم ذلك الرسول.

ومع الأسف فإن أقلام الأعداء والمغرضين قد اختلقوا رواياتٍ، وافتروا شائعاتٍ، وروّجوها حتى شاعت، واستمرّوا يُغذّونها أبداً لتبقى الفرقة في المجتمع الإسلامي، ويبقى الاختلاف والانقسام، فيضعف المسلمون وتذهب ريحهم.

لقد أبدى يزيد بن مُعاوية ندمه على ما وقع في كربلاء، وأظهر أسفه، وأعلن حزنه، ولعن ابن زياد، وقال: لو كنت مكانه لعفوت عنه، ووضع اللوم على ابن زيادٍ لأنه لم يحمل إليه طلبات الحسين قبل أن تقع الفاجعة، وعجّل بالقتال والقتل. ثم أكرم يزيد آل الحسين ومن معهم، وأعطاهم، وسيّرهم إلى المدينة مع حمايةٍ وحراسةٍ شريفةٍ، وطلب من علي زين العابدين بن الحسين أن يُنهي إليه ما يريد، وسيحقق له ذلك ـ بإذن الله ـ، وبقي يصله. ومع هذا كله فإنه لم يحاسب عبيد الله بن زياد على فِعلته، ولم يعاقبه على تصرّفه، وهو قادر على ذلك، فكأنه قد رضي عنه، وإن لم يصله، وهذا ما يجعله يحمل وزراً، وعليه من الإثم بما يستحق.

وقعة الحرّة:

عزل يزيد عن الحجاز عمرو بن سعيد بن العاص، وأعاد الوليد بن عتبة بن أبي سفيان للإمرة، فأساء إلى سلفه، فخرج عمرو من المدينة، ولحق بيزيد في دمشق فأكرمه واحترمه، ورحّب به وأدنى مجلسه، ثم إنه عاتبه في تقصيره في شأن ابن الزبير، فقال له: يا أمير المؤمنين، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وإن جُلّ أهل مكة والحجاز مالأوه علينا وأحبّوه، ولم يكن لي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته، وقد كان يحذرني ويحترس مني، وكنت أرفق به كثيراً وأُداريه لأستمكن منه فأثب عليه، ومع أني قد ضيّقت عليه، ومنعته من أشياء كثيرةٍ، وجعلت على مكة، وطرقها، وشعابها رجالاً لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتب اسمه واسم أبيه، ومن أي بلادٍ هو؟ وما جاء له؟ وماذا يريد؟ فإن كان من أصحابه أو ممن عرف أنه يريده رددته صاغراً، وإلا خلّيت سبيله. وقد ولّيت الوليد وسيأتيك من عمله وأمره ما لعلك تعرف به فضل مسارعتي واجتهادي في أمرك ومناصحتي لك إن شاء الله، يصنع لك ويكبت عدوّك، فقال له يزيد: أنت أصدق ممن رماك وحملني عليك، وأنت ممن أثق به، وأرجو معونته، وأدخره لرأب الصدع، وكفاية المهمّ، وكشف نوازل الأمور العظام و.....

وأما الوليد بن عتبة فإنه أقام بالحجاز، وقد همّ مراراً أن يبطش بعبد الله بن الزبير فيجده متحذّراً ممتنعاً قد أعدّ للأمور أقرانها.

قدم وفد المدينة النبوية على يزيد بن معاوية، فأكرمهم، وأجازهم بجوائز سنيةٍ، ثم عادوا من عنده بالجوائز فخلعوه، وولّوا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، فبعث إليهم يزيد جنداً في السنة الآتية.

وثار باليمامة رجل آخر يُقال له: نجدة بن عامر الحنفي وذلك حين قُتل الحسين، وخالف نجدة يزيد بن معاوية، ولم يخالف ابن الزبير، فلما كان ليلة عرفة دفع الوليد بن عتبة بالجمهور، وتخلّف عنه ابن الزبير، وأصحاب نجدة، ثم دفع كل فريقٍ وحده، ثم كتب نجدة إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق، لا يتّجه لأمرٍ رَشَدٍ، ولا يرعوي لعظة الحكيم، فلو بعثت إلينا رجلاً سهل الخُلق، ليّن الكنف، رجوت أن يسهُل به الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرّق، فانظر في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله تعالى.

عزل يزيد واليه الوليد بن عتبة وولّى عثمان بن محمد بن أبي سفيان فسار إلى الحجاز، وإذا هو فتًى غِرّ، حَدَث غَمْر لم يُمارس الأمور، فطمعوا فيه. ولما دخل إلى المدينة بعث إلى يزيد منها وفداً فيهم:

عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة الحضرمي، والمنذر بن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة فقدموا على يزيد فأكرمهم، وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة، إلا المنذر بن الزبير فإنه سار إلى صاحبه عبيد الله بن زياد بالبصرة، وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهمٍ نظير أصحابه من أولئك الوفد.

ولما رجع وفد المدينة إليها أخذوا يعيبون على يزيد وعتبة، وقالوا: رجعنا من عند رجل ليس له دين، وأعلنوا خلعه، فتابعهم الناس، ورجع المنذر بن الزبير من البصرة إلى المدينة فوافق أولئك على خلع يزيد، وعابه أكثر مما عابه أولئك.

بعث يزيد إلى أهل المدينة النعمان بن بشير ينهاهم عما صنعوا، ويُحذّرهم غِبّ ذلك، ويأمرهم بالرجوع إلى السمع والطاعة ولزوم الجماعة، فسار إليهم ففعل ما أمره يزيد، وخوّفهم الفتنة، وقال لهم: إنَّ الفتنة وَخِيْمة، وقال: لا طاقة لكم بأهل الشام، فقال له عبد الله بن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح من أمرنا؟.

خلع أهل المدينة يزيد، وولّوا على قريشٍ عبد الله بن

مطيعٍ، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامرٍ، ثم اجتمعوا على إخراج عامل يزيد من بين أظهرهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ابن عمّ يزيد، وعلى إجلاء بني أمية من المدينة، فاجتمعت بنو أمية في دار مروان بن الحكم، وأحاط بهم أهل المدينة يُحاصرونهم، واعتزل الناس علي زين العابدين بن الحسين، وكذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب لم يخلعا يزيد، ولا أحد من بيت ابن عمر، وقد قال ابن عمر لأهله: لا يخلعنّ أحد منكم يزيد فيكون الفيصل بيني وبينه. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن علية حدثني صخر بن جويرية عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهّد، ثم قال: أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة يُقال: هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يُبايع رجل رجلًا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته» فلا يخلعنّ أحد منكم يزيد، ولا يُسرفنّ في هذا الأمر، فيكون الفيصل بيني وبينه[١].

---

(١) البداية والنهاية.

ولما رجع أهل المدينة من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدّى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته، وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرّياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنُّعاً لك، فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يُظهر لي الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحلّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه، فقال لهم أبى ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]. ولست من أمركم في شيء، قالوا: فلعلك تكره أن يتولّى الأمر غيرك، فنحن نولّيك أمرنا. قال: ما أستحلّ القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئوني بمثل أبي أُقاتل على مثل ما قاتل عليه. فقالوا: فمر

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٦.

ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقاماً تحضّ الناس فيه على القتال، قال: سبحان الله!! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه، إذن ما نصحت لله في عباده. قالوا: إذن نكرهك. قال: إذن آمر الناس بتقوى الله... وخرج إلى مكة[(١)].

قال أبو القاسم البغوي: حدثنا مصعب الزبيري، حدثنا ابن أبي حازم عن هشام عن زيد بن أسلم عن أبيه، أن ابن عمر دخل ـ وهو معه ـ على ابن مطيع، فلما دخل عليه، قال: مرحباً بأبي عبد الرحمن ضعوا له وسادةً، فقال: إنما جئتك لأحدّثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «من نزع يداً من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حُجّة له، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت موتةً جاهليةً»[(٢)].

وقال أبو جعفر الباقر: لم يخرج أحد من آل أبي طالبٍ ولا من بني عبد المطلب أيام الحرّة[(٣)].

كتب بنو أمية إلى يزيد بما هم فيه من الحصر

---

(١) البداية والنهاية، والمعروف أن ابن الحنفية يكنى أبا القاسم، ولم يكن له ولد يدعى أبا القاسم بل أبا هاشم وهو عبد الله.

(٢) رواه مسلم.

(٣) البداية والنهاية.

والإهانة، والجوع والعطش، وإنه إن لم يبعث إليهم من ينقذهم مما هم فيه استُؤصلوا عن آخرهم، وبعثوا ذلك مع البريد. فلما قدم بذلك على يزيد وجده جالساً على سريره ورِجلاه في ماءٍ يتبرّد به من النقرس في رجليه، فلما قرأ الكتاب انزعج لذلك، وقال: ويلك! أما فيهم ألف رجلٍ؟ قال: بلى، قال: فهل لا قاتلوا ساعةً من نهارٍ؟. ثم بعث إلى عمرو بن سعيد بن العاص فقرأ عليه الكتاب، واستشاره فيمن يبعثه إليهم، وعرض عليه أن يبعثه إليهم فأبى عليه ذلك، وقال: إن أمير المؤمنين عزلني عنها، وهي مضبوطة، وأمورها محكمة، فأما الآن، فإنما دماء قريشٍ تُراق بالصعيد، فلا أُحبّ أن أتولّى ذلك منهم. ليتولّ ذلك من هو أبعد منهم مني، قال: فبعث البريد إلى مسلم بن عقبة المري ـ وهو شيخ ضعيف ـ فانتدب لذلك، وأرسل معه يزيد عشرة آلاف فارسٍ.

قال المدائني: وجعل على أهل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزاري، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكوني، وعلى أهل الأردن حبيش بن دلجة القيني، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذامي وشريك الكناني، وعلى أهل قنّسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعليهم مسلم بن عقبة المري من غطفان،

وإنما يُسمّيه السلف مُسرف بن عقبة. فقال النعمان بن بشير: يا أمير المؤمنين، ولّني أكفك، فقال يزيد: لا ليس لهم إلا هذا الغشمشم، والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم وعفوي مرةً بعد مرةٍ. فقال النعمان: يا أمير المؤمنين أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ. وقال له عبد الله بن جعفر: أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيُقبل منهم؟ قال: إن فعلوا فلا سبيل عليهم. وقال يزيد لمسلم بن عقبة: ادع القوم ثلاثاً، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم، وكُفّ عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً، ثم اكفف عن الناس، وانظر إلى علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوص به خيراً، وأدنِ مجلسه، فإنه لم يدخل في شيءٍ مما دخلوا فيه. وأمر مسلم بن عقبة إذا فرغ من المدينة أن يذهب إلى مكة لحصار ابن الزبير، وقال له: إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكوني. وقد كان يزيد كتب إلى عبيد الله بن زياد أن يسير إلى ابن الزبير فيُحاصره بمكة، فأبى عليه وقال: والله لا أجمعها للفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وأغزو البيت الحرام؟ وقد كانت أمه مرجانة قالت له حين قتل الحسين: ويلك! ماذا صنعت! وماذا ركبت؟ وعنّفته تعنيفاً شديداً.

وسار مسلم بن عقبة بمن معه من الجيوش إلى المدينة، فلما اقترب منها اجتهد أهل المدينة في حصار بني أمية، وقالوا لهم: والله لنقتلنّكم عن آخركم أو تُعطونا موثقاً أن لا تدلّوا علينا أحداً من هؤلاء الشاميين ولا تُمالئوهم علينا، فأعطوهم العهود بذلك. فلما وصل الجيش تلقّاهم بنو أمية، فجعل مسلم يسألهم عن الأخبار، فلا يُخبره أحد، فانحصر لذلك، وجاء عبد الملك بن مروان، فقال له: إن كنت تريد النصر فانزل شرقي المدينة في الحرّة، فإذا خرجوا إليك كانت الشمس في أقفيتكم وفي وجوههم، فادعهم إلى الطاعة، فإن أجابوك وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، فإن الله ناصرك عليهم إذ خالفوا الإمام، وخرجوا عن الطاعة. فشكره مسلم بن عقبة على ذلك، وامتثل ما أشار به، فنزل شرقي المدينة في الحرة، ودعا أهلها ثلاثة أيام، كل ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما مضت الثلاث قال لهم في اليوم الرابع ـ وهو يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاثٍ وستين ـ قال لهم: يا أهل المدينة، مضت الثلاث وإن أمير المؤمنين قال لي: إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرني أن أؤجلكم ثلاثاً فقد مضت، فماذا أنتم صانعون؟ أتُسالمون أم تُحاربون؟ فقالوا: بل نُحارب. فقال: لا تفعلوا، بل سالموا ونجعل

حدّنا وقوتنا على هذا. . . ـ يعني ابن الزبير ـ فقالوا: يا عدوّ الله لو أردت ذلك لما مكّناك منه، أنحن نذركم تذهبون فتُلحدون في بيت الله الحرام؟ ثم تهيؤوا للقتال، وكانوا قد اتّخذوا خندقاً بينهم وبين ابن عقبة خندقاً، وجعلوا جيشهم أربعة أرباعٍ عن كل ربعٍ أمير.

اقتتل الفريقان قتالاً شديداً، ثم انهزم أهل المدينة إليها، وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان منهم: عبد الله بن حنظلة الغسيل، ومحمد بن ثابت بن شماس، ومحمد بن عمرو بن حزم، وقد مرّ به مروان وهو مجندل فقال: رحمك الله! فكم من ساريةٍ قد رأيتك تُطيل عندها القيام والسجود.

ثم أباح مسلم بن عقبة ـ قبّحه الله من شيخ سوء ما أجهله ـ المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد ـ لا جزاه الله خيراً ـ وقتل خلقاً من أشرافها وقُرّائها، وانتهب أموالاً كثيرةً منها، ووقع شرّ عظيم وفساد عريض.

استدعى مسلم بن عقبة علي بن الحسين بن علي بن أبي طالبٍ فجاء يمشي بين مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، ليأخذ له بهما عنده أماناً، ولم يشعر أن يزيد أوصاه به، فلما جلس بين يديه قال له: إنما جئت مع هذين لتأمن بهما ـ وكان مروان مُواداً لعليّ بن

الحسين ـ ثم قال له: لولا أن أمير المؤمنين أوصاني بك لضربت عنقك، ثم قال له: لعل أهلك فزعوا! فقال: إي والله. فأمر بدابته فأُسرجت، ثم حمله عليها حتى ردّه إلى منزله مكرماً.

واستدعى مسلم بن عقبة أيضاً عمرو بن عثمان بن عفان ـ ولم يكن خرج مع بني أمية ـ فقال له: إنك إن ظهر أهل المدينة قلت: أنا معكم، وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان. وأساء إليه.

ووصل خبر الحرّة إلى أهل مكة ليلة مستهل المحرم مع سعيد ـ مولى المسور بن مَخرمة ـ فحزنوا حزناً شديداً، وتأهّبوا لقتال أهل الشام. وحجّ عبد الله بن الزبير بالناس في هذه السنة.

وبعث مسلم بن عقبة إلى يزيد ببشارة الحرّة روح بن زنباعٍ، فلما أخبره بما وقع قال: واقوماه، ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له: ترى ما لقي أهل المدينة؟ فما الذي يُجبرهم؟ قال: الطعام والأعطية، فأمر بحمل الطعام إليهم، وأفاض عليهم أُعطيته[1].

---

(١) البداية والنهاية.

إن وقعة الحرّة حادثة أليمة وفاجعة مريرة، ومع ما فيها من آلام وجراحاتٍ فقد أضاف المغرضون افتراءاتٍ كثيرةً، وتوهّموا أحداثاً وقعت، وجرائم ارتكبت وذلك في سبيل الطعن بالمجتمع الإسلامي عامةً بل وبالإسلام، وإن كان بعضهم يظنّ أن الهدف هو الطعن ببني أمية فقط. غير أن ما يدّعونه قد وقع من جند الإسلام سواء أكانوا من بني أمية أم من غيرهم. ولكن ـ ولله الحمد ـ لم تُثر أحداثها كل عام كما يحدث في موضوع فاجعة كربلاء.

حصار عبد الله بن الزبير:

في أول المحرم سنة أربع وستين قصد مسلم بن عقبة مكة لقتال عبد الله بن الزبير، ومن التفّ حوله على مخالفة يزيد بن معاوية، واستخلف على المدينة. فلما بلغ مسلم بن عقبة ثنية «هَرْشا» بعث إلى رؤوس الأجناد فجمعهم، فقال: إن أمير المؤمنين عهد إليّ إن حدث بي حادث الموت أن استخلف عليكم حصين بن نمير السكوني، ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت، ثم دعا به فقال: انظر يا برذعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به، ثم أمره إذا وصل إلى مكة ألاّ يُناجز ابن الزبير قبل ثلاثٍ.

سار حصين بن نميرٍ بالجيش نحو مكة فانتهى إليها

لأربع بقين من المحرم. وقد تلاحق بابن الزبير ممن بقي من أشراف المدينة، وجاء إليه أيضاً نجدة بن عامر الحنفي ـ من أهل اليمامة ـ مع طائفةٍ من أهلها ليمنعوا البيت من أهل الشام، فنزل حصين بن نمير ظاهر مكة، وخرج إليه ابن الزبير ومن التفّ حوله فاقتتلوا عند ذلك قتالاً شديداً، وتبارز المنذر بن الزبير ورجل من أهل الشام فقتل كل واحدٍ منهما صاحبه، وحمل أهل الشام على أهل مكة حملةً صادقةً، فانكشف أهل مكة، وعثرت بغلة عبد الله بن الزبير به، فكرّ عليه المِسْوَر بن مَخرمة ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف وطائفة، وقاتلوا دونه حتى قتلوا جميعاً، وصابرهم ابن الزبير حتى الليل فانصرفوا عنه، ثم اقتتلوا في بقية شهر المحرم وصفراً بكماله، فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة أربع وستين نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها حتى بالنار، فاحترق جدار البيت يوم السبت.

وقيل: إنما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار، وهم حول الكعبة، فعلقت النار في بعض أستار الكعبة فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت.

وقيل: إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة في ليلةٍ ظلماء فظنّ أنهم أهل الشام،

فرُفعت نار على رمحِ لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل، فأطارت الريحُ شرارةً من رأس الرمح إلى ما بين الركن اليماني والأسود من الكعبة فعلقت في أستارها وأخشابها فاحترقت، واسودّ الركن وانصدع في ثلاثة أمكنةٍ منه. واستمرّ الحصار إلى مستهلّ ربيعِ الآخر.

وجاء الناسَ نعيُ يزيد بن معاوية، وأنه قد مات لأربع عشرة خلت من ربيعِ الأول سنة أربعٍ وستين، وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة، فكانت ولايته ثلاثَ سنين وثمانية أشهرٍ، فغُلب أهلُ الشام هنالك وانقلبوا صاغرين، فحينئذٍ خمدت الحرب وطُفئت نار الفتنة.

ويقال: إنهم مكثوا يُحاصرون ابن الزبير بعد موت يزيد نحو أربعين ليلةً، ويذكر أن ابن الزبير علم بموت يزيد قبل أهل الشام، فنادى فيهم: يا أهل الشام قد أهلك الله طاغيتكم، فمن أحبّ منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعلْ، ومن أحبّ أن يرجع إلى شامه فليرجع. فلم يُصدّق الشاميون أهل مكة فيما أخبروهم به، حتى جاءهم ثابت بن قيس بن المُنقّع بالخبر اليقين.

ويُذكر أن حصين بن نمير دعاه ابن الزبير لُيحدّثه بين الصفين، فاجتمعا حتى اختلفت رؤوس فرسيهما، وجعلت فرس حصين تنفر ويكفّها، فقال له ابن الزبير: مالك؟ فقال: إن الحمام تحت رجلي فرسي تأكل من

الروث، فأكره أن أطأ حمام الحرم، فقال له: تفعل هذا وأنت تقتل المسلمين؟ فقال له حصين: فائذن لنا فلنطف بالكعبة ثم نرجع إلى بلادنا، فأذن لهم فطافوا.

وذكرابن جرير الطبري: أن حصيناً وابن الزبير اتّعدا ليلةً أن يجتمعا، فاجتمعا بظاهر مكة، فقال له حصين: إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحقّ الناس بهذا الأمر بعده، فهلمّ فارحل معي إلى الشام، فوالله لا يختلف عليك اثنان. فيقال: إن ابن الزبير لم يثق منه بذلك، وأغلظ له في المقال فنفر منه ابن نميرٍ فقال: أنا أدعوه إلى الخلافة وهو يغلظ لي في المقال؟ ثم كرّ بالجيش راجعاً إلى الشام. وقال: أعده بالملك ويتواعدني بالقتل؟ ثم ندم ابن الزبير على ما كان منه إليه من الغلظة، فبعث إليه يقول له: أما الشام فلست آتيه، ولكن خذ لي البيعة على من هناك، فإني أؤمنكم وأعدل فيكم. فبعث إليه يقول له: إن من يبتغيها من أهل هذا البيت بالشام لكثير. فرجع فاجتاز بالمدينة فطمع فيه أهلها وأهانوهم إهانةً بالغةً، وأكرمهم علي زين العابدين بن الحسين، وأهدى لحصين بن نمير قَتّاً وعَلَفاً. وارتحلت بنو أمية مع الجيش إلى الشام فوجدوا معاوية بن يزيد بن معاوية قد استخلف مكان أبيه بدمشق عن وصيّةٍ من أبيه له بذلك. والله سبحانه أعلم بالصواب.

الفتوحات في عهد يزيد:

إن النكبات الثلاث التي وقعت في عهد يزيد بن معاوية (كربلاء ـ الحرّة ـ حصار مكة) قد وجّهت المؤرخين إليها حتى ترك بعضهم كل ما سواها، ولفت نظر الناس لها حتى نسوا ما عداها وذلك لأنها كانت حوادث مُؤلمةً ووقائع مُفجعةً، ولكن لا بدّ من ذكر ما حدث من أعمالٍ إيجابيةٍ دون إهمال السلبيات، وكتابة ما وقع من أحداثٍ أليمة دون إغفال جوانب الخير، وانطلاق الأمة في مساراتها الطبيعية لأداء مُهمّتها في الحياة، وإن واجب الأمة الإسلامية الأساسي لهو الدعوة في سبيل الله لنشر الإسلام، وإن سبيله الرئيسي لهو الجهاد وفتح البلدان.

أ ـ الجبهة الغربية:

شعر الروم بالأحداث التي تقع في ديار الإسلام فأرادوا استغلالها، عساهم أن يحصلوا على شيءٍ من النصر فتعود المعنويات إلى جيوشهم أو يستطيعوا استرجاع بعضٍ ما فقدوه في حروبهم السابقة مع المسلمين، فأكثروا من غاراتهم على الثغور الإسلامية براً وبحراً غير أنهم لم يظفروا بحاجةً حيث كانت الثغور محميةً، وعلى استعدادٍ لردّ أي عدوانٍ، بل إن مالك بن

عبد الله الخثعمي قد قاد صائفةً ودخل أرض الروم سنة إحدى وستين.

وزادت غارات الروم البحرية على مواقع المسلمين في الجزر التي سبق لهم أن فتحوها، وكانت قوة الروم البحرية أقوى من قوة المسلمين نتيجة الخبرة، وكثرة السفن، وهذا ما جعل يزيد بن معاوية يأمر المسلمين الذين مع أهلهم في تلك الجزر من العودة إلى بر ديار الإسلام وخاصةً الذين كانوا في قبرص وأرواد، وبقي من لا أهل له مُرابطاً في تلك المواقع يعمل على صدّ غارات الروم وقراصنتهم.

أعاد يزيد بن معاوية ولاية إفريقية إلى عقبة بن نافع سنة اثنتين وستين، فسار من الشام حتى قدم على القيروان بعشرة آلاف فارسٍ، فأخذ أبا المهاجر، وحبسه وقيّده، وأخذ ما معه من الأموال، وجدّد بناء القيروان، وشيّدها، ونقل الناس إليها فعمرت وعظُم شأنها. وخرج عقبة بأصحابه وبكثيرٍ من أهل القيروان إلى المغرب بعد أن ترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي، وخرج بأبي المهاجر معه موثقاً. ودعا عقبة أولاده قبل مغادرته القيروان، وقال لهم: إني قد بعت نفسي لله عزّ وجلّ،

فلا أزال أُجاهد من كفر بالله. ثم قال: يا بني أوصيكم بثلاث خصالٍ فاحفظوها ولا تُضيّعوها: إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عزّ وجلّ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب، ويدلّكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، ثم أُوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدَّين ذلّ بالنهار وهمّ بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم، وتبقى لكم الحرمة في الناس ما بقيتم. ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخّصين فيُجهّلوكم دين الله، ويُفرّقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم، ونجا فيمن نجا. ثم قال: عليكم سلام الله، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا. ثم قال: اللّهمّ تقبّل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك.

سار عقبة في عسكرٍ عظيمٍ حتى انتهى إلى مدينة (باغاية)، لا يُدافعه أحد، والرومُ يهربون من طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها، وقد اجتمعوا فيها، وقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزموا عنه، وقتل منهم قتلًا ذريعاً، وغنم منهم غنائم كثيرةً. واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة إلى تلمسان، وهي من أعظم مدائنهم، فانضمّ إليها من حولها من الروم والبربر، فخرجوا إليه في جيشٍ ضخمٍ لجبٍ، والتحم القتال، ووقع الصبر حتى ظنّ المسلمون أنّه الفناء، ولكنهم هجموا على الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم، فقاتلوهم إلى أبوابها، وأصابوا منهم غنائم كثيرةً.

وسار عقبة إلى بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فقيل له: (أَرَبة)، وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاثمائة وستون قريةً كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى، وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى (تاهرت)، فاستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم، فقام عقبة بالناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم، وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم لرب العالمين بجنته بيعةً رابحةً، وأنتم اليوم في دار غربةٍ، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا

هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا، فكلما كثُر العدوّ كان أخزى لهم وأذلّ، إن شاء الله تعالى، وربكم عزّ وجلّ لا يسلمكم، فالقوهم بقلوبٍ صادقةٍ، فإن الله عزّ وجلّ جعلكم بأسه الذي لا يُردّ عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، فالله لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين. والتقى المسلمون بأعدائهم، وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتدّ الأمر على المسلمين لكثرة العدوّ، ولكنهم انتصروا أخيراً، فانهزمت الروم والبربر، وأخذهم السيف، وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وسار عقبة حتى نزل على (طنجة) فلقيه بطريق من الروم، اسمه (يليان) فأهدى له هديةً حسنةً، ونزل على حكمه، وأراد عقبة فتح الأندلس، فقال له (يليان): أتترك كفّار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، وبقطع البحر بينك وبين المدد؟ فقال عقبة: وأين كفّار البربر؟ فقال: في بلاد السوس، وهم أهل نجدةٍ وبأسٍ. فقال عقبة: وما دينهم؟ فقال: ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم. وكانوا على دين المجوسية يومئذ. فتوجّه عقبة، فنزل على مدينة (ولبلى) بإزاء جبل (زرهون)، وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين (سبو) و (ورغة)،

وهذه المدينة المسماة اليوم على لسان العامة (قصر فرعون)، فافتتحها عقبة، وغنم وسبى.

وانتهى عقبة إلى (السوس الأدنى)، وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة، وقتل منهم قتلاً ذريعاً، وبعث خيله في كل مكانٍ هربوا إليه، وقد اجتمع له البربر في عالمٍ لا يُحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم. وسار عقبة حتى انتهى إلى (مالبان)، ورأى البحر المحيط، فقال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك، ثم قال: اللهمّ اشهد. إني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أُقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد أحد من دونك.

رجع عقبة إلى القيروان، فلما انتهى إلى ثغر إفريقية، وهو (طُبْنة) أَذِن لمن معه من أصحابه أن يتفرّقوا، ويقدموا القيروان فوجاً بعد فوج ثقةً منه بما نال من العدو، وأنه لم يبق أحد يخشاه.

ومال عقبة بخيلٍ يسيرةٍ يريد (تُهُوَذة)، وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلّةٍ طمعوا به، فأغلقوا الحصن وشتموه، وهو يدعوهم إلى الإسلام، فلم يقبلوا منه.

وبعث الروم إلى (كَسِيلة) الذي كان في عسكر عقبة مضمراً للغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره، وجمع أهله وبني عمه، وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه، وكان أبو المهاجر موثقاً بالحديد مع عقبة، فزحف عقبة على (كسيلة)، فتنحّى (كسيلة) عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثّل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حُزناً أن ترتدي الخيلِ بالقنا
وأُتـرك مـشـدوداً عـلـيّ وثـاقـيـاً
إذا قمت عنّاني الحديد وأُغلقت
مصارع من دوني تصمّ المُناديا

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه، وقال له: الحقْ بالمسلمين وقُم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أريد الشهادة. وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدّموا إلى البربر، وقاتلوهم، فقُتل المسلمون جميعهم، ومعهم عقبة في أرض الزاب، وكانوا زهاء ثلاثمائةٍ، وذلك في سنة ثلاثٍ وستين[1].

---

(١) قادة الفتح الإسلامي، محمود شيت خطاب.

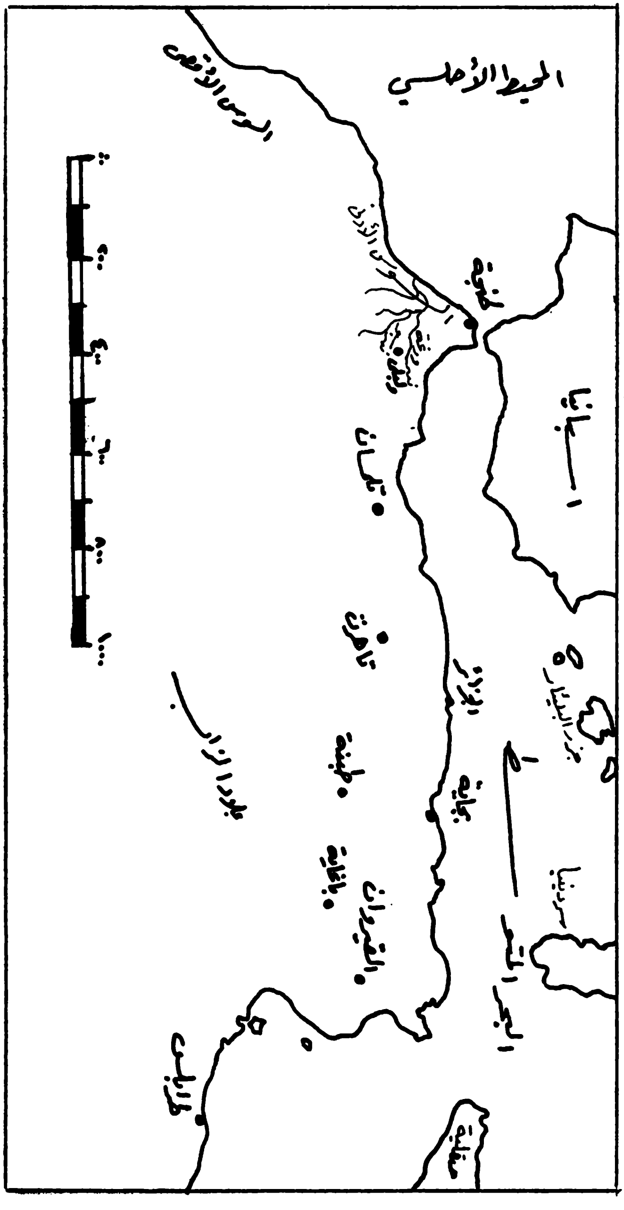
المحيط الأطلسي
طنجة
إسبانيا
تلمسان
تاهرت
الجزائر
بجاية
طبنة
باغاية
القيروان
بلاد الزاب
جزر البليار
سردينيا
صقلية

ب ـ الجبهة الشرقية:

وكان القتال على هذه الجبهة على شكل غاراتٍ بصورةٍ عامةٍ شأنه في ذلك القتال على جبهة الروم في منطقة الأناضول كأن الهدف منه إشغال العدو وإخافته كي لا تُطمعه الأحداث الجارية في ديار الإسلام فيقوم بهجومٍ قويٍ معاكسٍ. وإن كان الأمر يتعدّى أحياناً الغارات فيقوم الوالي بغزواتٍ يقصد منها تقدّم الدعوة ونشر الإسلام، ويرتبط ذلك بهمّة الوالي وإقدامه.

ولّى يزيد على خراسان سَلْم بن زياد أبا حرب، وأمدّه بأعيان البصرة، فوجّه سَلْم أخاه يزيد بن زياد إلى سجستان مكان أخيه الثاني عبّاد بن زياد، وأعطى بالحارث بن معاوية الحارثي جبهة خراسان، فكانوا يغزون في الصيف فإذا جاء الشتاء، وتساقطت الثلوج، واشتدّ البرد عادوا إلى قواعدهم. وإن كان سَلْم قد غزا على رأس شاتيةٍ في إحدى السنوات.

أرسل سَلْم حملةً قويةً بقيادة المهلب بن أبي صفرة إلى خُوارزم فشتّا المهلب في غزوته وتمكّن من فتح خُوارزم.

وسار سَلْم على رأس حملةٍ باتجاه بخارى التي تملكها (خاتون)، وأخذ سلم معه زوجه، أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفية. وقطع سلم

نهر جيحون، ولما اقترب من بخارى خافته ملكتها (خاتون)، فكتبت إلى (طرخون) ملك الصغد، وعرضت الزواج منه، ومُلك بخارى مقابل المساعدة ضدّ المسلمين، فوافق (طرخون) وأقبل نحو بخارى، فلما رأى سلم ذلك، قدّم المهلب بن أبي صفرة، وجعله طليعةً له مع كتيبةٍ من الفرسان، ووجّهه إلى (طرخون) فالتقى الجمعان، ووقعت معركة حامية صبر فيها المسلمون، وصدقوا فكتب الله لهم النصر، وغنموا أموالاً كثيرةً حتى بلغ سهم الفارس ألفين وأربعمائة درهم، وللراجل نصف ذلك. ولما رأت (خاتون) ما حلّ بـ (طَرخون) عرضت على المسلمين الصلح وافتدت نفسها بمبلغ ضخمٍ، وافتتح سلم سمرقند، ودخل خوقند، وتابع سيره حتى تركستان الشرقية فدخل (يارقند) و (خوتان) ولكن لم يستقر هناك، وعاد أدراجه.

ونقض أهل كابل عهدهم، وسجنوا أميرهم أبا عبيدة بن زياد، فسار إليهم أخوه يزيد بن زياد من سجستان، ولكنه هُزم، فبعث إليهم سلم جيشاً بقيادة طلحة الخزاعي، فانتصر عليهم، وفدى أبا عبيدة بخمسمائة ألف درهم خوفاً من أن يقتلوه.

وتوفي يزيد بن معاوية، وسلم بن زياد أميراً على خراسان.

الفصل الثالث
صفات يزيد

● كان يزيد بن معاوية كثير اللحم، عظيم الجسم، كثير الشعر، جميلاً، طويلاً، ضخم الهامة، محدد الأصابع غليظها مجدراً[1].

● وقد كان يزيد فيه خصال من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمالٍ، حسن المعاشرة، وكان فيه أيضاً إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإقامتها في أغلب الأوقات[2].

● ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة، وقال له أحاديث[3]. روى هو عن أبيه معاوية

(١) البداية والنهاية.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) نهاية الأرب.

أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وحديثاً آخر في الوضوء. وروى عنه ابنه خالد، وعبد الملك بن مروان.

● قال في إحدى خطبه: إذا مرض أحدكم مرضاً فأشفي ثم تماثل فلينظر إلى أفضل عملٍ عنده فليلزمه، ولينظر إلى أسوأ عمل عنده فليدعه.

وليزيد خطب، وكلمات، وشعر تدلّ على فصاحته وعلى صفاته النفسية، وطباعه، ومنها:

خطب في الشام فقال: أيها الناس، سافروا بأبصاركم في كرّ الجديدين، ثم ارجعوها كليلةً عن بلوغ الأمل، وإن الماضي عظة للباقي، ولا تجعلوا الغرور سبيل العجز عن المجد، فتنقطع حجتكم في موقفٍ، الله سائلكم فيه، محاسبكم عما أسلفتم. أيها الناس، إن أعمالكم مطيات آجالكم، والصراط ميدان يكثر فيه العثار، والسالم ناجٍ والعاثر في النار.

وشعره يدلّ على أن نظم في الغزل، وكانت عنده حساسية مرهفة، وله شعر في الحياة الاجتماعية لا يخلو من حكم، وفي الحياة السياسية وفيه عظة وعبرة.

ولا ندري بصحة كل ما نسب إليه، ولكن نذكر

بعضه لنعرف قوته، وشاعريّة قائله، ومن هذا الشعر:

خذوا بدمي ذات الوشاح فإنني
رأيت بعيني في أناملها دمي
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها
بلى، خبّروها بعد موتي بمأتمي
ولما تلاقينا، وجدت بنانها
مُخضّبةً تحكي عُصارة عنْدم
فقلت: خضبت الكفّ بعدي، هكذا
يكون جزاء المستهام المتيّم
فقالت وأبدت في الحشا حَرَق الجوى
مقالةَ من في القول لم يتبرّم
وعيشِك ما هذا خضاباً عرفته
فلاتكُ بالبهتان والزور مُتهمي
ولكنني لما رأيتك نائياً
وقد كنت لي كفّي وزندي ومعصمي
بكيت دماً يوم النوى فمسحته
بكفّي، وهذا الأثر من ذاك الدم

وله أيضاً:

نالت على يدها ما لم تنهله يدي
نقشاً على معصمٍ أوهت به جَلَدي

كأنّه طُرْقُ نملٍ في أناملها
أو روضةٌ رصّعتها السحب بالبرد
وقوس حاجبها من كل ناحيةٍ
ونَبْلُ مقلتها ترمي به كبدي
مدّت مواشطها في كفّها شركاً
تصيد قلبي به من داخل الجسد
أنيسة لو رأتها الشمس ما طلعت
من بعد رؤيتها يوماً على أحد
سألتها الوصل قالت: لا تُغرّ بنا
من رام منا وصالاً مات بالكمد
فكم قتيلٍ لنا بالحبّ مات جوىً
من الغرام، ولم يُبدئ ولم يُعِد
فقلت: استغفر الرحمن من زللٍ
إن المحبّ قليل الصبر والجلد
قد خلّفتني طريحاً وهي قائلة:
تأملوا كيف فِعل الظبي بالأسد
قالت لطيف خيالٍ زارني ومضى:
بالله صفه، ولا تنقص ولا تزد
فقال: خلّفته لو مات من ظمأٍ
وقلت: قف عن ورود الماء لم يَرد

قالت: صدقت، الوفا في الحبّ شيمته
يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كبدي
واسترجعت سألت عني، فقيل لها:
ما فيه من رمقٍ، دقّت يداً بيد
وأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ، وسقت
ورداً وعضّت على العُنّاب بالبَرَد
وأنشدت بلسان الحال قائلةً
من غير كُرْهٍ ولا مَطْلٍ ولا مدد
والله ما حزنت أخت لفقد أخٍ
حزني عليه، ولا أمّ على ولد
إن يحسدوني على موتي، فوا أسفي
حتى على الموت لا أخلو من الحسد

وقال:

جاءت بوجهٍ كأنّ البدر بَرْقَعَهُ
حُسناً على مثل غُصن البانة الثَّمِل
إحدى يديها تعاطيني مُعتّقةً
كخدّها عَصْفَرَتْهُ حُمرةُ الخجِل
ثم استبدّت وقالت وهي عالمةٌ
بما تقول وشمسُ الكأس لم تَفِل

لا تَرْحَلَنَّ فما أبقيتَ لي جَلَداً
مـمـا أطـيـق بـه تـوديـع مُـرتـحـل
ولا من الصبر ما ألقى الفراق به
ولا من الدمع ما أبكي على طلل(١)

ومن شعره:

وقائلةٍ لي حين شبّهت وجهها
ببدر الدجى يوماً وقد ضاق منهجي
تُشبّهـني بـالـبـدر هـذا تـنـاقـص
بقدري، ولكن لست أول من هُجي
ألـم تـر أن الـبـدر عـنـد كـمـالـه
إذا بلغ التشبيه عاد كدملجي
فلا فخر إن شبهت بالبدر مبسمي
وبالسحر أجفاني وبالليل مدعجي

وقد ذكره الزبير بن بكار عن أبي محمد الجزري قال: كانت بالمدينة جارية مغنية يقال لها: «سلاّمة»، من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهن عقلاً، وأحسنهن قدّاً، قد قـرأت الـقـرآن، وروت الـشـعـر وقـالـتـه، وكـان عبد الرحمن بن حسان والأحوص بن محمد يجلسان

(١) نهاية الأرب.

إليها، فعلقت بالأحوص، فصدّت عن عبد الرحمن، فرحل ابن حسّان إلى يزيد بن معاوية إلى الشام فامتدحه، ودلّه على سلاّمة، وجمالها، وحسنها، وفصاحتها، وقال: لا تصلح إلا لك يا أمير المؤمنين، وأن تكون من سُمّارك، فأرسل يزيد فاشتُريت له، وحُملت إليه، فوقعت منه موقعاً عظيماً، وفضّلها على جميع من عنده، ورجع عبد الرحمن إلى المدينة فمرّ بالأحوص فوجده مهموماً، فأراد أن يزيده إلى ما به من الهمّ همّاً، فقال:

يا مبتلى بالحبّ مقروحا
لاقى من الحبّ تباريحا
أفحمه الحبّ فما ينثني
إلا بكأس الحبّ مصبوحا
وصار لا يعجبه مغلقاً
عنه وما يكره مفتوحا
قد حازها من أصبحت عنده
ينال منها الشمّ والريحا
خليفة الله فسل الهوى
وعزّ قلباً منك مجروحا

فأمسك الأحوص عن جوابه، ثم غلبه وجده عليها فسار إلى يزيد فامتدحه فأكرمه يزيد، وحظي عنده،

فدسّت إليه «سلاّمة» خادماً، وأعطته مالاً على أن يدخل إليها، فأخبر الخادم يزيد بذلك، فقال: امض لرسالتها، ففعل، وأدخل الأحوص عليها، وجلس يزيد في مكانٍ يراهما ولا يريانه، فلما بصرت الجارية بالأحوص بكت إليه، وبكى إليها، وأمرت فألقي إليه كرسي فقعد عليه، وجعل كل منهما يشكو إلى صاحبه شدّة شوقه إليه، فلم يزالا يتحدّثان إلى السحر، ويزيد يسمع كلامهما من غير أن يكون بينهما ريبة، حتى إذا همّ الأحوص بالخروج قال:

أمسى فؤادي في همٍّ وبلبال
من حبٍّ لم أزل منه على بال

فقالت:

صحا المحبون بعد النأي إذا يئسوا
وقد يئست وما أضحوا على حال

فقال:

من كان يسلو بيأسٍ عن أخي ثقةٍ
فعنك سلاّم ما أمسيت بالسالي

فقالت:

والله والله ما أنساك يا شجني
حتى تفارق مني الروح أوصالي

فقال:

والله ما خاب من أمسى وأنتِ له
يا قرّة العين في أهل وفي مال

فقال: ثم ودّعها وخرج، فأخذه يزيد، ودعا بهما، فقال: أخبراني عما كان في ليلتكما، وأصدقاني، فأخبراه، وأنشداه ما قالا، فلم يُحرّفا منه حرفاً، ولا غيّرا شيئاً مما سمعه، فقال لها يزيد: أتُحبينه؟ قالت: أي والله يا أمير المؤمنين.

حبّاً شديداً جرى كالروح في جسدي
فهل يُفرّق بين الروح والجسد؟

فقال: أتُحبّها؟ فقال: أي والله يا أمير المؤمنين.

حُبّاً شديداً تليداً غير مطرف
بين الجوانح مثل النار يضطرم

فقال يزيد: إنكما لتصفان حُبّاً شديداً، خذها يا أحوص فهي لك، ووصله صلةً سنيةً. فرجع بها الأحوص إلى الحجاز، وهو قرير العين[1].

وكتب يزيد إلى عبد الله بن عباس يطلب منه نصح

---

(١) البداية والنهاية.

الحسين بعدم الانتقال إلى العراق، وأرفق كتابه بهذه الأبيات:

يا أيها الراكب الغادي لطيّته
على عذافرةٍ في سيرها قُحُمُ
أبلغ قريشاً على نأي المزار بها
بيني وبين حسين الله والرّحم
وموقف بفناء البيت أنشده
عهد الإله وما توفي به الذمم
غنيتم قومكم فخراً بأُمّكم
أم لعمري حَصان برّة كرم
هي التي لا يداني فضلها أحد
بنت الرسول وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم
من قومكم لهم في فضلها قَسْم
إني لأعلم أو ظنّاً كعالمه
والصدق يصدق أحياناً فينتظم
أن سوف نترككم ما تدعون بها
قتلى تهاداكم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبّوا الحرب إذ سكنت
ومسّكوا بحبال السلم واعتصموا

قد غرّت الحرب من قد كان قبلكم
ومن القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بَذَخاً
فربّ ذي بذخٍ زلّت به القدم

اليزيديون:

وهم الذين يعرفون باسم «عبدة الشيطان» ويقيمون في منطقة «كردستان» في شمالي العراق، في قضاء شيخان، وسنجار، وداهوك، وزاخو، ويزيد عددهم على سبعين ألفاً، ويقيم بعضهم في خارج العراق، في منطقة سنجار في سورية، وفي مدن ماردين، وكلّس وعينتاب، وقارص في تركيا، وفي تفليس، وباطوم في جورجيا، وفي أريفان في أرمينيا، وفي إقليم «قره باخ» الواقع بين أذربيجان وأرمينيا والمتنازع عليه بينهما.

يعتقد اليزيديون المجوسية ديانة فارس القديمة. وينتسبون إلى مدينة «يزد» في إيران، فهم «يزديون»، وليسوا «يزيديون»، ولكن لما كانوا من المجوس، وفتح المسلمون منطقتهم، أظهروا الإسلام خوفاً من السيف، وأبطنوا المجوسية، وبقيت تظهر عليهم بعض العادات المجوسية.

ولما أخذت الانقسامات تظهر على المجتمع الإسلامي، أخذت بعض الفرق تنسبهم إلى أعدائها للنيل

من خصومها، فسماهم أعداء الخوارج «يزيديون» ونسبوهم إلى يزيد بن أنيسة. ولما صار اسمهم «يزيديون» فقد نسبهم أعداء الأمويين إلى يزيد بن معاوية. وقد قبلوا هم هذا النسب إذ يجعلهم فرقةً من المجتمع الإسلامي. وجاء إليهم عدي بن مسافر(١) في نهاية القرن الخامس الهجري، وادعى النسب إلى مروان بن الحكم، فقبلوه، وعدُّوه أحدهم ما داموا جميعاً من الأمويين، وعمل على حملهم على الصوفية فأظهروا موافقته، ومات عندهم، ونسبوا له كرامات، وهم يحجّون إلى قبره، وموسم الحج عندهم من ٦ ـ ١٣ من شهر تشرين الأول كل عام. ولهم عادات سخيفة(٢).

فاليزديون لا يمتّون بشيء من الصلة إلى يزيد بن معاوية، وإن ادّعوا ذلك، أو تكلم الخصوم بهذا.

---

(١) عدي بن مسافر بن إسماعيل الهكاري، شرف الدين أبو الفضائل، يدّعي الانتساب إلى مروان بن الحكم الأموي، من شيوخ المتصوفة، تنسب إليه الطريقة العدوية. ولد عام ٤٦٧هـ في بيت قار من أعمال بعلبك، وارتحل إلى المدينة المنورة، ومكث فيها أربع سنوات، ثم انتقل إلى كردستان، وبنى له زاوية في جبل الهكارية من أعمال الموصل، وتوفي ودفن فيها عام ٥٥٧هـ.

(٢) انظر كتاب الجماعات البدائية ـ للمؤلف ـ من طبع المكتب الإسلامي.

الفصل الرابع

أسرة يزيد

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وفهر هو قريش بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأبوه معاوية بن أبي سفيان، صحابي معروف، وقد تكلمنا عنه، كما أن جدّه أبا سفيان صحابي وقف في وجه الإسلام حتى كتب الله له الهداية فأسلم يوم فتح مكة، وحسن إسلامه بعد فتح الطائف، وفقد يومها إحدى عينيه، واستعمله رسول الله ﷺ، على نجران. وخرج إلى الجهاد بعد رسول الله ﷺ، أيام أبي بكر، رضي الله عنه، وكان تحت راية ابنه يزيد، واشترك في معركة اليرموك، وأبلى بلاءً حسناً في القتال، وحضّ المسلمين على الثبات والصبر في ملاقاة الأعداء، ونصح

ابنه يزيد وأوصاه. وفقد عينه الأخرى في هذه المعركة، وعاش بعدها كفيفاً منصرفاً للعبادة. غير أن حياته في الجاهلية بقي الأعداء يحمّلونه وزرها بل حمّلوها لبني أمية جميعاً وخاصةً ابنه معاوية وحفيده يزيد، ولكثرة ما دوّنوا من افتراءات تأثّر بها بعضهم غفلةً وجهلاً. ولم يكن ذلك دفاعاً عن الإسلام وحبّاً له بل هجوماً عليه وطعناً به تحت عنوان إظهار المحبة والتباكي. فالطعن بالخلفاء وهم يُمثّلون الحكم بالإسلام والعمل به طعن به، وعمل للهدم بتجزئه المجتمع. وقد نسي المغفلون حديث رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبّ كل ما كان قبله».

أما أم يزيد فهي ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن نفاثة بن عدي بن زهير بن جناب بن حارثة الكلبية، وهي من سادات كلب وأشرافها، ولقبيلة كلب شأن في جنوبي الشام. كانت ميسون بدويةً فنقلها معاوية من البادية إلى غوطة دمشق، وأسكنها قصراً، فكانت نفسها تتوق إلى حياة البرية، فتكثر الحنين إلى البادية، وتشعر بالغُربة عن أهلها، وعن المكان الذي نشأت فيه وألفته، وللفراغ الذي تعيش فيه، أخذت مرةً تنظم الشعر حنيناً لأهلها وديارها، وأن تلك الديار أحبّ إليها مما

سواها على ما فيها من جدبٍ، وأن القرب إلى أهلها أحب إليها من غيرهم رغم الفقر الذي هم فيه، حتى لتكون النحافة سمة رجالهم، وذلك خير من أولئك الذين تظهر عليهم السمنة لكثرة ما يتناولون من طعام للخير الذي هم فيه، وكان أن نظمت تلك القصيدة التي تُنسب إليها التي مطلعها:

لـبـيـت تـخـفـق الأرواح فـيـه
أحـبّ إلـيّ مـن قـصـرٍ مـنـيـف

وأخذت تُردّد ما نظمت وتترنم به، ومعاوية زوجها يسمع، حتى قالت:

وخِرقٌ من بني عمّي نحيفٌ
أحـبّ إلـيّ مـن عـلـجٍ عـلـيـف

فقال معاوية: ما رضيتي يا ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عليفاً، فالحقي بأهلك، وطلّقها، فمضت إلى بادية كلب، وابنها يزيد معها، فنشأ فصيحاً. ويقال: إنها قد ذهبت إلى أهلها وهي حامل بيزيد، ويقال: بل كان يزيد معها، وإنما كانت حاملاً بغيره، وقد ولدت في ديار أهلها أمةً ماتت وهي صغيرة.

كانت ميسون حازمةً، عظيمة الشأن جمالاً ورياسةً وعقلاً وديناً. دخل عليها معاوية يوماً ومعه خادم خصيّ

فاستترت منه، وقالت: ما هذا الرجل معك؟ فقال: إنه خصيّ فاظهري عليه، فقالت: ما كانت المثلة لتحلّ له ما حرّم الله عليه، وحجبته عنها. وفي روايةٍ أنها قالت: إن مجرد مثلتك له لن تحلّ ما حرّمه الله عليه، فلهذا أولى الله ابنها يزيد الخلافة بعد أبيه(١).

وكانت ميسون صاحبة أنفةٍ، نقل البغدادي أن معاوية لما طلّقها قال لها: كنتِ فبنتِ، فأجابته: ما سُررنا إذ كنا ولا أسفنا إذ بِنّا.

وكانت ميسون صاحبة نظر، يروى أن معاوية تزوّج نائلة بنت عمارة الكلبية فأعجبته، وقال لميسون بنت بحدل: ادخلي فانظري إلى ابنة عمك، فدخلت، فسألها عنها فقالت: إنها لكاملة الجمال. ولكن رأيت تحت سرّتها خالاً، وإني لأرى هذه يقتل زوجها، ويوضع رأسه في حجرها. فطلّقها معاوية، فتزوّجها بعده حبيب بن مسلمة الفهري، ثم خلف عليها بعده النعمان بن بشير، فقتل ووضع رأسه في حجرها(٢).

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) البداية والنهاية، رغبت ميسون بقولها أن يطلق معاوية نائلة، وتمّ لها ما أرادت، أما الغيب فليس له إشارة، وعلمه عند الله.

زوجات يزيد:

تزوّج يزيد عدة زوجات وهنّ:

١ ـ أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة: وأنجبت له معاوية وخالداً وأبا سفيان ويزيد، وتزوّجها بعد يزيد مروان بن الحكم.

٢ ـ أم مسكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

٣ ـ أم كلثوم فاختة بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وأنجبت له عبد الله الأكبر.

٤ ـ أم كلثوم بنت عنبسة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية.

٥ ـ أم محمد بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

٦ ـ ابنة حريث بن عبد الملك الكندي السكوني.

هذا عدا أمهات الأولاد.

أبناء يزيد:

كان ليزيد خمسة عشر ولداً من الذكور وهم:

١ ـ معاوية: ويكنى أبا يزيد، وأبا عبد الرحمن، وأبا يعلى، وأبا ليلى. وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة.

كان أبيض، شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جَعِد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه، دقيقه، حسن الجسم. قال أبو زرعة الدمشقي: معاوية، وعبد الرحمن، وخالد، كانوا من صالحي القوم، وقال فيه بعض الشعراء - وهو عبد الله بن همام البلوي:

تلقّاها يزيد عن أبيه
فدونكما معاوي عن يزيدا
أديروها بني حربٍ عليكم
ولا ترموا بها الغرض البعيدا[1]

كان معاوية بن يزيد ولي عهد أبيه، وبويع له من بعده في دمشق فقط، ومن قِبَلِ بني أمية وأعوانه فقط حيث كانت البيعة الشرعية لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في الحجاز، وفي غالبية ديار الإسلام، لذا لا يُعدّ مُعاوية الثاني بن يزيد خليفةً بل خارجاً.

كان مدة ولايته مريضاً لا يخرج للناس، وكان الضحاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس، ويُسيّر الأمور.

---

(١) البداية والنهاية.

مات معاوية عن بضعٍ وعشرين سنة، ولم تطل مدة ولايته عن أشهرٍ لا تصل إلى الثلاثة مع اختلافٍ بالروايات، وصلّى عليه الوليد بن عقبة، وقيل: أخوه خالد، وقيل: عثمان بن عنبسة.

يروى أن معاوية بن يزيد هذا، نادى في الناس ذات يومٍ: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال لهم فيما قال: يا أيها الناس إني قد وُلِّيت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجلٍ قويٍ كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في ستةٍ منكم كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقد تركت لكم أمركم فولّوا عليكم من يصلح لكم. ثم نزل، ودخل منزله، فلم يخرج منه حتى مات، رحمه الله تعالى. ويقال: إنه سُقي، ويقال: إنه طُعن.

ولما دُفن حضر مروان دفنه، فلما فُرغ منه قال مروان: أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم، معاوية بن يزيد، فقال مروان: أبو ليلى الذي قال فيه أرثم الفزاري:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها

والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا[1]

---

(١) البداية والنهاية.

مات معاوية بن يزيد من غير عهدٍ منه لأحدٍ، ودُفن بمقابر باب الصغير بدمشق. ولم يكن له عقب. ويروى أنه لما حضرته الوفاة قيل له: ألا تُوصي؟ فقال: لا أتزود مرارتها إلى إخوتي، وأترك حلاوتها لبني أُميّة.

٢ ـ خالد بن يزيد: وكان يُكنى أبا هاشم، وكان يقال إنه أصاب علم الكيمياء، وقد أشار على عبد الملك بن مروان بتحريم دنانير الروم، ومنع التعامل بها، ويجب أن يضرب للناس نقداً خاصاً بهم لتكون للأمة شخصيتها.

وكان من رجالات قريشٍ سخاءً وفصاحةً، وقد شغل نفسه بطلب الكيمياء.

وقال عنه ابن النديم: والذي عُني بكتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد، وكان خطيباً، شاعراً، فصيحاً، حازماً، ذا رأيٍ، وهو أول من تُرجم له كتب الطب، والنجوم، وكتب الكيمياء، وكان جواداً، وله في ذلك عدة تصانيف ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى، رأيت نحو خمسمائة ورقة، ورأيت من كتبه، كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب

الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته لابنه في الصنعة[1].

أجاز شاعراً بمائة ألف لقوله فيه:

سألت الندى والجود حُرّان أنتما

فقالا جميعاً إننا لعبيد

فقلت: فمن مولاكما؟ فتطاولا

عليّ، وقالا: خالد بن يزيد[2]

قيل: تهدّد عبد الملك بن مروان خالداً وسطا عليه، فقال: أتهدِّدُني ويد الله فوقك مانعة، وعطاؤه دونك مبذول؟

قال الأصمعي: قيل لخالد بن يزيد: ما أقرب شيءٍ؟ قال: الأجل، قيل: فما أبعد شيءٍ؟ قال: الأمل، قيل: فما أرجى شيءٍ؟ قال: العمل.

وعنه، قال: إذا كان الرجل لجوجاً، ممارياً، معجباً برأيه، فقد تمّت خسارته[3].

وقد ثار حفيده علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد

(١) الفهرست ص ٣٥٤.

(٢) سير أعلام النبلاء.

(٣) سير أعلام النبلاء.

على العباسيين، عام ١٩٥هـ أيام المأمون وقاد ثورةً ضدهم في دمشق، وهو المعروف بالسفياني.

وتوفي خالد سنة أربعٍ وثمانين.

٣ ـ عبد الله بن يزيد: وأمه أم كلثوم فاختة بنت عبد الله بن عامر بن كريز، ويقال له الأُسوار، وكان من أرمى العرب، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

زعم الناس أن خير قريشٍ
كلهم حين يذكرون الأساور

وأما ابنته عبدة بنت عبد الله بن يزيد فقد تزوّجها يزيد بن عبد الملك، وخلفه عليها أخوه هشام بن عبد الملك، وقتلت بمدينة حمص على يد جيش عبد الله بن علي قائد العباسيين. وأختها أمة الحميد بن عبد الله بن يزيد، فتزوجها معاوية بن هشام بن عبد الملك.

٤ ـ عبد الرحمن بن يزيد: وأمه أم ولد، كان من الأتقياء العُبّاد، حدّث عن ثوبان. وله حديث واحد عند النسائي، وابن ماجه برقم (١٨٣٧) رواه عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن يتقبل لي بواحدة، أتقبل له بالجنة» قلت: أنا، فقال: «لا تسأل الناس شيئاً» قال:

فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب، فلا يقول لأحدٍ ناولنيه حتى ينزل فيأخذه.

قال الوليد بن هشام: كان عمر بن عبد العزيز يرقّ له لما هو عليه من النُّسك، فرفع ديناً عليه أربعة آلاف دينار، فوعده أن يوفيه، وقال: وكّل أخاك الوليد، فوكّله، فقال له عمر: إني أكره أن أقضي عن واحدٍ هذا المال، وإن كان أنفقها في حقٍّ. قال: يا أمير المؤمنين، إن من أخلاق المؤمن أن يُنْجِزَ ما وعد، قال: ويحك وضعتني هذا الموضع، فلم يقض عنه.

وقيل: اجتهد عبد الرحمن بن يزيد في العبادة حتى صار كالشّنّ البالي ـ رحمه الله[1] ـ.

وكان يقول: إني أحبّ أن يكون فعلي أحسن من قولي.

٥ ـ عبد الله الأصغر: وأمه أم ولد.

٦ ـ أبو بكر بن يزيد: وأمه أم ولد.

٧ ـ عتبة بن يزيد: وأمه أم ولد.

---

(١) سير أعلام النبلاء.

٨ ـ الربيع بن يزيد: وأمه أم ولد.

٩ ـ محمد بن يزيد: وأمه أم ولد: وقد خرج أحد أحفاده، وهو علي بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن يزيد من الشام إلى منطقة عسير في جزيرة العرب فاراً من وجه العباسيين، وثار ضد الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي، وقتل عام ١٦٩هـ على يد الجيش العباسي الذي كان في طريقه إلى اليمن بقيادة عبد الله بن عبد الرحمن الغامدي لإخماد الثورات هناك.

وكان مقتل عليٍّ في مكانٍ يعرف باسم «وهلة» بعد هزيمة جيشه في موقع يعرف باسم «الربعان» ببلاد غامد. ويقال: إن ذرية عليٍّ لا تزال ذات شأنٍ في تلك الجهات.

١٠ ـ يزيد بن يزيد: وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة.

١١ ـ حرب بن يزيد: وأمه أم ولد.

١٢ ـ عمر بن يزيد: وأمه أم ولد.

١٣ ـ عثمان بن يزيد: وأمه أم ولد.

١٤ ـ أبو سفيان بن يزيد: وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة.

١٥ ـ عبد العزيز بن يزيد: وأمه أم ولد.

بنات يزيد:

كان ليزيد بن معاوية خمس من البنات، وهنّ:

١ ـ عاتكة بنت يزيد: وكانت فاضلةً كريمةً، حدّثت بالشام، وتزوّجها عبد الملك بن مروان، وأنجبت له ولده يزيد، قال عنها الأصمعي: هي أعرق الناس بالخلافة، جدها معاوية خليفة، وأبوها يزيد خليفة، وأخوها معاوية خليفة، وأبو زوجها (مروان بن الحكم) خليفة، وزوجها عبد الملك خليفة، وابنها يزيد خليفة، وحفيدها الوليد بن يزيد خليفة، وأبناء زوجها عبد الملك: الوليد، وسليمان، وهشام خلفاء، فهؤلاء كلهم لها محرم.

٢ ـ رملة بنت يزيد.

٣ ـ أم عبد الرحمن بنت يزيد.

٤ ـ أم يزيد بنت يزيد.

٥ ـ أم محمد بنت يزيد.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة	5
السرّ الكامن	١٣
بنو أمية	١٩
أثر الافتراءات	٣٥
الباب الأول	
معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما	
الفصل الأول: قبل الإسلام	٤١
نشأة معاوية	٤٢
البعثة المحمدية	٤٥
الهجرة	٤٧
معركة الفرقان	٤٩
معركة أحد	٥٣
مقتل خبيب، رضي الله عنه	٦٧
في غزوة الخندق	٧١
الحديبية	٧٥
الفصل الثاني: معاوية في الإسلام	٧٧
مع رسول الله ﷺ	٨٥

الموضوع	الصفحة

مع الصديق ٩١
مع الفاروق ٩٢
مع ذي النورين ٩٩
مع رابع الخلفاء الراشدين ١٠٣
صفين ١١٥
وقفة تأمل ١٣٨
التحكيم ١٤٢
وقفة ١٥٠
عودة الصراع ١٥١
مقتل عليٍّ، رضي الله عنه ١٥٦
مع الحسن بن عليٍّ، رضي الله عنهما ١٥٧
الفصل الثالث: خلافة معاوية، رضي الله عنه ١٦٥
الولايات ١٦٩
١ ـ الشام ١٦٩
٢ ـ الكوفة ١٧١
٣ ـ البصرة ١٧٨
أ ـ خراسان ١٨١
ب ـ سجستان ١٨٣
جـ ـ كرمان ١٨٣
٤ ـ المدينة المنورة ١٨٣
٥ ـ مصر ١٨٦
الفتوحات في عهد معاوية ١٨٧

الموضوع	الصفحة

ساحات الجهاد ١٩٣
الجبهة الغربية ١٩٤
أ ـ بلاد الأناضول ١٩٤
ب ـ البحر ١٩٩
جـ ـ شمالي إفريقية ٢٠٤
الجبهة الشرقية ٢١٣
الخوارج ٢١٤
بيعة يزيد ٢٢٤
الفصل الرابع: صفات معاوية رضي الله عنه ٢٣٣
الكرم ٢٣٨
الخوف من الحساب ٢٣٩
التواضع ٢٤١
الحلم ٢٤١
العمل اليومي ٢٤٤
الفصل الخامس: مكانة معاوية، رضي الله عنه ٢٤٨

الباب الثاني
أسرة معاوية، رضي الله عنه

الفصل الأول: والدا معاوية، رضي الله عنه ٢٦١
والد معاوية ٢٦١
والدة معاوية ٢٨٥
في فتح مكة ٢٩٣
الفصل الثاني: إخوة معاوية، رضي الله عنه ٣٠٣

الموضوع	الصفحة

إخوة معاوية الذكور ٣٠٤
١ ـ يزيد بن أبي سفيان ٣٠٤
٢ ـ حنظلة بن أبي سفيان ٣٠٥
٣ ـ عمرو بن أبي سفيان ٣٠٥
٤ ـ عتبة بن أبي سفيان ٣٠٦
٥ ـ محمد بن أبي سفيان ٣٠٦
٦ ـ عنبسة بن أبي سفيان ٣٠٦
أخوات معاوية، رضي الله عنه ٣٠٩
١ ـ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ٣٠٩
٢ ـ أمينة بنت أبي سفيان ٣١٤
٣ ـ ميمونة بنت أبي سفيان ٣١٤
٤ ـ صخرة بنت أبي سفيان ٣١٥
٥ ـ هند بنت أبي سفيان ٣١٥
٦ ـ جويرية بنت أبي سفيان ٣١٥
٧ ـ أم حكم بنت أبي سفيان ٣١٥
٨ ـ عزة بنت أبي سفيان ٣١٥
٩ ـ الفارعة بنت أبي سفيان ٣١٦
١٠ ـ رملة الصغرى بنت أبي سفيان ٣١٦
الفصل الثالث: نساء معاوية وأبناؤه ٣١٧
١ ـ ميسون بنت حميد بن بحدل ٣١٧
٢ ـ كتوة بنت قرظة ٣١٩
٣ ـ فاختة بنت قرظة ٣١٩

الموضوع	الصفحة

٤ ـ نائلة بنت عمارة الكلبية ٣١٩
٥ ـ قريبة بنت أبي أمية المخزومية ٣١٩
الأولاد ٣٢٠
١ ـ يزيد بن معاوية ٣٢٠
٢ ـ عبد الرحمن بن معاوية ٣٢٠
٣ ـ عبد الله بن معاوية ٣٢٠
الإناث ٣٢٠
١ ـ رملة بنت معاوية ٣٢٠
٢ ـ هند بنت معاوية ٣٢٠

الباب الثالث
يزيد بن معاوية وأسرته

الفصل الأول: نشأة يزيد ٣٣٠
تربية يزيد ٣٣٣
الاستقلالية ٣٣٦
في معترك الحياة ٣٣٨
البيعة ٣٤١
وفاة معاوية ٣٤٣
الفصل الثاني: خلافة يزيد ٣٤٦
فاجعة كربلاء ٣٥٤
وقعة الحرة ٣٥٩
حصار عبد الله بن الزبير ٣٧٠
الفتوحات في عهد يزيد ٣٧٤

الموضوع	الصفحة
أ ـ الجبهة الغربية	٣٧٤
ب ـ الجبهة الشرقية	٣٨٢
الفصل الثالث: صفات يزيد	٣٨٤
اليزيديون	٣٩٤
الفصل الرابع: أسرة يزيد	٣٩٦
زوجات يزيد	٤٠٠
أبناء يزيد	٤٠٠
بنات يزيد	٤٠٨
المحتوى	٤٠٩